

رواية

كولسون

وايتهيد



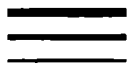
FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

السكك الحديدية

السريّة

ترجمة سماح حفر

كولسون وايتهد



لسكك الحديدية لسرية

ترجمة: سماح جعفر



لِسَّكِّ (لِحَدِيدِيَّة) (لِسْرِيَّة)

هذا الكتاب بدعم من:

عنوان
1001

مبادرة 1001 عنوان

السكك الحديدية السريّة

تأليف: كولسون وايتهد
ترجمة: سماح جعفر
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-146-8

روايات
REWAYAT



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2018

القضاء - مبنى D
هاتف: +971 6 5566696 فاكس: +971 6 5566691
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2018
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

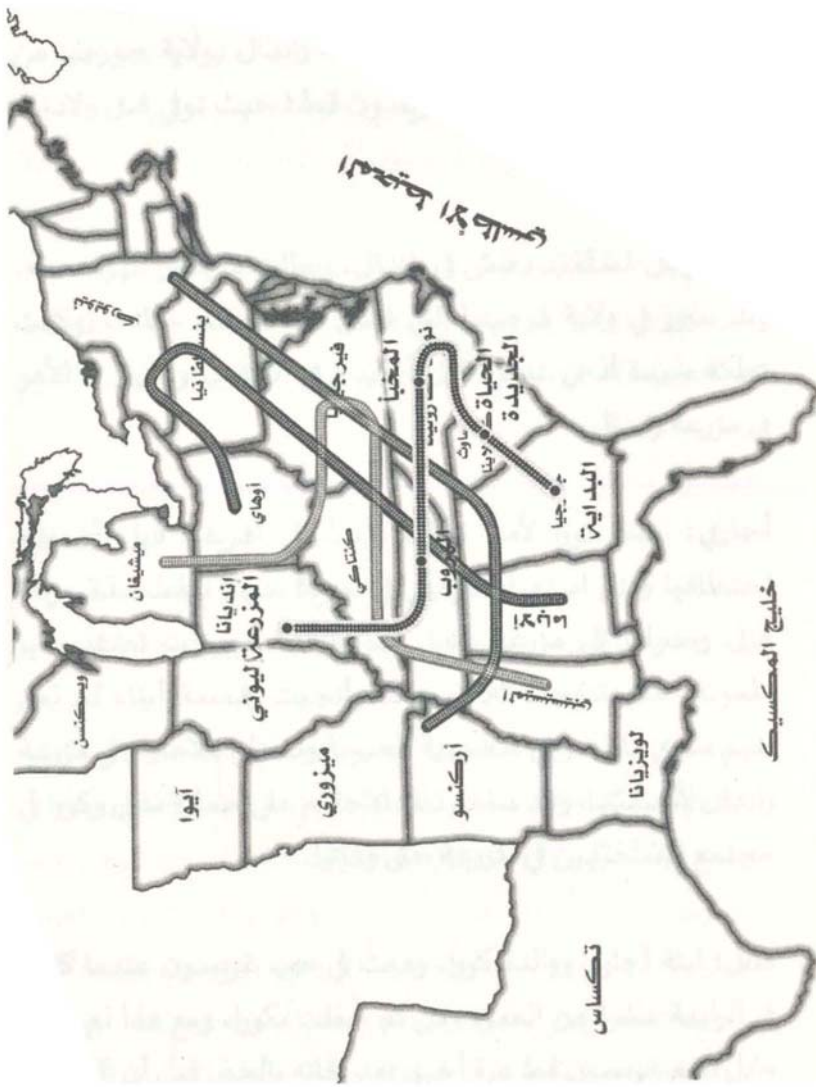
The Underground Railroad, a novel
Copyright © 2016 by Colson Whitehead



مجموعة كلمات • KALIMAT GROUP

ہی جولی...

خريطة الأنظمة



خريطة الشخصيات

كورا: كورا هي البطلة. وُلِدَتْ في مزرعة راندال بولاية جورجيا من أم تُدعى مابل، ولم تَرَ أباهَا غريسون قط؛ حيث توفي قبل ولادتها، وتُدعى جدُّها أجاري.

سيزر: رجل مُسْتَعْبَد يعيش في راندال، ويطلب من كورا الهرب معه. وُلِدَ سيزر في ولاية فرجينيا التي قضى فيها معظم حياته، (وكانت تملكه سيدة تُدعى غارنر) قبل أن يُباع في الجنوب وينتهي به الأمر في مزرعة راندال.

أجاري: جدّة كورا لأُمها مابل، وُلِدَتْ في أفريقيا قبل أن يتم اختطافها ويتم استعباد الرقيق في أمريكا حيث بيعت عدّة مرات قبل وصولها إلى مزرعة راندال، لدرجة أنها أصبحت تعتقد بأنها ملعونة، فقد تزوّجت ثلاث مرات وأنجبت خمسة أبناء لم يَخَي منهم سوى مابل، وهي شخصية محبوبة وتحظى بالاحترام في مزرعة راندال لأسبقيتها، وقد ساعد ذلك الاحترام على حماية مابل وكورا في مجتمع المُسْتَعْبَدِين في المزرعة حتى وفاتها.

مابل: ابنة أجاري ووالدة كورا، وقعت في حب غريسون عندما كانت في الرابعة عشرة من العمر، ومن ثم حملت بكورا، ومع هذا لم تذكر مابل اسم غريسون قط مرة أخرى بعد وفاته بالحقى قبل أن تَلِدَ كورا، تقضي مابل حياتها في مزرعة راندال، وذات يوم تهرب وتترك كورا وراءها.

لوفي: امرأة مُسْتَعْبِدة تعيش في مزرعة راندال وهي ابنة جير وصديقة كورا، وهي شخصية عطوفة وتهوى الرقص في الاحتفالات التي تقام في مزرعة راندال.

تشيستر: طفل صغير يعيش في مزرعة راندال، تحبه كورا حيث ترى أنه يشبهها في كونه «مُشَرِّدًا» (يتيمًا).

تيرانس راندال: أحد أبناء راندال الاثنين، حيث يملك كل منهما نصف مزرعة راندال، وَيُعَدُّ تيرانس أكثر سادية بكثير من شقيقه جيمس؛ لما تملؤه من رغبة في تعذيب الأشخاص المُسْتَعْبِدِينَ والاعتداء عليهم جنسيًا في كثير من الأحيان.

جيمس راندال: شقيق تيرانس وهو الابن الأكبر لرانдал، ويملك نصف المزرعة التي تعيش فيها كورا، ويتسم بأنه غير ودود وغير متعاون.

العجوز راندال: والد جيمس وتيرانس وهو المالك السابق لمزرعة راندال، وقد كان أكثر شعبية من أبنائه في المجتمع المحلي ذي العرق الأبيض، وكان قد مات بالفعل قبل أن تقع معظم أحداث الرواية.

كونيللي: المشرف على مزرعة راندال وهو من العرق الأبيض، وهو شخص أناني وقاسٍ، ويتخذ من النساء المُسْتَعْبِدَات عشيقات له.

أرنولد ريدجواي: ابن الحدّاد ريدجواي الأب الذي يكبر ليصبح صائدًا سَيِّئَ السُّمعة للرقيق، ولديه سمعة رهيبة في صيد الرقيق، كما أنه معروف بشخصيته الغربية، ولديه اعتقاد قوي «بالقدر المحتوم»، وفكرة أن البيض لديهم الحق (الذي يتعدّى ذلك ليصبح واجبًا) في استعمار أمريكا واستعباد السود لبناء البلاد.

مارتن ويلز: وكيل محطة السكك الحديدية السريّة في ولاية كارولينا الشمالية، وقد شارك في جهود مكافحة الرق من خلال والده دونالد، وهو متزوج من إثيل، ويشكّل ملاذًا لكورا بإخفائها في عِلْيّة منزله.

إثيل ويلز: زوجة مارتن وأم ابنته، وقد كانت لديها صديقة حميمة مُستَغْبِدة عندما كانت طفلة تُدعى جاسمين، وكانت تحلم بأن تكون مُبَشِّرَة للدين المسيحي، وهناك تلميحات بأنها مثليّة وأنها بأئسة في زواجها من مارتن.

سام: وكيل إحدى المحطّات السريّة، ويملك حانة في كارولينا الجنوبية، ويساعد في توفير هويّات جديدة لكورا وسيزر وتسكينهم، وهو شخص عطوف ويُكرِّس نفسه للعمل في السكك الحديدية السريّة.

روبال: رجل أسود حر يقوم بإنقاذ كورا من ريدجواي، ويتسم بشخصية متفائلة ويُكرِّس نفسه للسعي لتحقيق الحرية لنفسه ولجميع السود.

الفهرس

أجارى	15
جورجىا	25
رىدجواى	105
كارولائنا الجنوبىة	109
ستىفنز	181
كارولائنا الشمالىة	191
إئىل	253
تىنىسى	263
سىزر	301
إندىانا	309
ماىل	377
الشمال	385

أجاري



في المرة الأولى التي اقترح فيها سيزر على كورا الهرب نحو الشمال، أجابت بالنفي.

كان هذا حديث جدتها: أجاري. لم تشاهد جدة كورا المحيط مطلقاً قبل تلك الظهيرة المشرقة في ميناء عويده⁽¹⁾، حيث كان الماء يلتمع وقتها في زنزانة الحصن. كانوا يوضعون داخل الزنزانة حتى تصل السفن. اختطف مهاجمو داهوميان الرجال أولاً، ثم عادوا إلى قريتها في الليلة التالية لأجل النساء والأطفال، اصطحبوهم نحو البحر مكبلين بسلاسل تصل كل اثنين معاً. اعتقدت أجاري، بينما تحديق في المدخل الأسود، أنها سوف تجتمع مع والدها، هناك في الظلام. أخبرها الناجون من قريتها أنه عندما فشل والدها في الحفاظ على وتيرة المسيرة الطويلة، أوقد المهاجمون النار في رأسه وتركوا جسده على الطريق. أما والدتها فقد ماتت قبل سنوات.

بيعت جدة كورا عدة مرات خلال الرحلة إلى الحصن، وتم تبادلها بين تجار الرقيق لتعمل في نَظْمِ الوَدَعِ والخَزَزِ. كان من الصعب معرفة سعرها في عويده لأنها كانت ضمن عملية شراء بالجملة، ثمانية وثمانون نفساً بشرية مقابل ستين صندوق من خمرة الرُّم والبارود، وهو سعر تم الاتفاق عليه بعد مساومة قياسية في الساحل الإنجليزي⁽²⁾. أصحاب البنية القوية من الرجال والنسوة القادرات على الإنجاب سعرهم أعلى من الأطفال، مما يجعل الحساب الفردي صعباً.

السفينة ناني كانت قد انطلقت من ليفربول، وقد توقفت مرتين على طول ساحل الذهب⁽³⁾. قام القبطان بتنظيم مشترياته من العبيد

Port Of Ouidah (1)

Coast English (2)

Gold Coast (3)

في صفوف متعاقبة، حتى لا يجد نفسه محملاً بمجموعة مترابطة ذات ثقافة مشتركة فتقلقه. فما من أحد يعلم نوع التمرد الذي قد يطبخه أسراه، فهم يتحدثون بلسانٍ مشترك. كان هذا هو الميناء الأخير للسفينة قبل عبورهم المحيط الأطلسي. قام اثنان من البحارة الشُّقر بجَرَ أجلي إلى السفينة وهما يهمهان. كان جلدهما أبيض مثل العظام.

هواء الانتظار الضار، كآبة الحبس، وصراخ أولئك المكبلين دفعت أجلي إلى الجنون. وبسبب صغر سنها، لم يكن مختطفوها مستعجلين على إدخالها البلاد، لكن، في نهاية المطاف، قام بعض زملائهم الأكثر حنكة بسحبها من فترة الانتظار التي استمرت ستة أسابيع نحو المعبر. فقد حاولت الانتحار مرتين خلال الرحلة إلى أمريكا، مرة بتجويع نفسها والأخرى محاولة الغرق. تمكن البحارة من إحباط محاولاتها في المرتين، كانوا على دراية بمخططات وميول العبيد. لم تكن أجلي قد وصلت إلى حافة المركب العُليا عندما حاولت القفز في المرة الأولى. كان بالإمكان تمييز وقفها المتكلفة ومظهرها البائس من بين آلاف العبيد. كانت مقيدة من رأسها إلى أخص قدميها، من رأسها إلى أخص قدميها في بؤس مأساوي.

على الرغم من محاولتهم البقاء معاً في أثناء المزد العُلني في عويده، فقد اشترى تجار برتغاليون باقي أفراد عائلتها فأخذوهم من البارجة فيفيليا، البارجة التي بعد رحيلهم بأربعة أشهر كانت تنجرف على بُعد عشرة أميال قبالة برمودا⁽⁴⁾. فقد انتشر الطاعون على متنها، وقررت السلطات إشعال النار فيها ومشاهدتها تتصدع وتغرق. لم تعرف جدة

Bermuda (4)

كورا شيئًا عن مصير البارجة. راحت طوال حياتها تتخيل أبناء عمومها يعملون مع سادة أسخياء في الشمال، وتُعدّد صفقاتٍ حولهم بشروط أكثر تسامحًا من الصفقات التي تتضمنها هي. ربما ينسجون، أو يغزلون، ولا يقومون بأعمال الحقول. في قصصها، تمكّن إيساي وسيدو والبقية بطريقة أو بأخرى من شراء صكوك عثقتهم من العبودية، فعاشوا رجالًا ونساءً أحرارًا في مدينة بنسلفانيا⁽⁵⁾، وهو المكان الذي سمعت اثنين من الرجال البيض يتكلمون عنه ذات مرة. تلك الأوهام منحت أجاري الراحة عندما كانت أعباءها تحطمها إلى ألف قطعة.

المرة التالية التي تُباع فيها جدّة كورا، كانت بعد قضاءها شهرًا في مستشفى الأمراض الوبائية في جزيرة سوليفان⁽⁶⁾. ما إن صدّق الأطباء على أن جدّة كورا وبقية حمولة سفينة ناني خالية من الأمراض، حتى شهدوا يومًا حافلًا في السوق، مزادًا كبيرًا يجلب دائمًا حشدًا متنوعًا من الشراة. توافد التجار والقوادون من كل مكان على الساحل في تشارلستون، للتحقق من عيون البضائع ومفاصلها وأعمدتها الفقرية، حذرين من الاضطرابات التناسلية والآلام الأخرى. كان المشاهدون يمشغون المحار الطازج والذرة الساخنة بينما يطلق بائعو المزداد أصواتهم في الهواء. وقف العبيد عراة على المنصة. كانت هناك حرب مزادات بين مجموعة من عُشّاق الأشانتي: أولئك الأفارقة من أصحاب السلالة الجيدة والعضلات المفتولة، قام مدير محاجر الحجر الجيري بشراء حفنة من الأطفال الزوج في صفقة مذهلة. رأت جدّة كورا صبيًا صغيرًا من العبيد يأكل الحلوى وتساءلت عمّا يضعه في فمه.

City of Pennsylvania (5)

Sullivan's Island (6)

قبل غروب الشمس اشتراها وكيل بمبلغ مئتين وستة وعشرين دولارًا. كان بإمكانها أن تجلب سعرًا أكبر، لكن ذلك الموسم شهد وفرة في الفتيات الصغيرات. كانت بذلة الوكيل مصنوعة من أكثر الأقمشة التي رأتها بياضًا. بينما تومض على أصابعه خواتم ذات أحجار ملونة. وعندما قرص ثديها لمعرفة ما إذا وصلت سنّ البلوغ، شعرت بمعدن الخواتم باردًا على بشرتها. تمّ وشمها، ليست أول مرّة ولن تكون الأخيرة، وتكبيّلها خلال ما تبقى من يوم المزاد. في تلك الليلة بدأ العبيد مسيرتهم الطويلة نحو الجنوب، مكبلين خلف عربات التجار التي تجرّها الدواب. أمّا السفينة ناني فكانت حينئذ في طريقها إلى ليفربول، مُحَمَّلة بالسُّكَّر والتبغ. وكان هناك عددًا أقل من الصّرخات في جوفها. ربما تظنّ أن جدة كورا ملعونة، بسبب بيعها واستبدالها وإعادة بيعها عدة مرات على مدى السنوات القليلة التالية. دائمًا كانت الكوارث المذهلة تحلّ على مُلاكها. سيدها الأوّل خُدع بواسطة رجل باعه جهازًا لتنظيف القطن أسرع مرتين من مَحَلَج القُطن⁽⁷⁾. كانت الرسوم البيانية مقنعة، لكن في النهاية كانت أجاري مُلكيّةٌ أخرى تمّت تصفيتها بأمر من القاضي. بيعت بمائتين وثمانية عشر دولارًا في تبادل سريع، وجاء سبب الانخفاض في السعر بسبب تقلبات السوق المحلي. مالِك آخر مات بداء الاستسقاء، ثم قامت أرملته ببيع العقارات لجمع المال من أجل عودتها إلى موطنها في أوروبا. قضت أجاري ثلاثة أشهر مملوكةً لرجل ويلزيّ فقدها في نهاية المطاف هي وثلاثة عبيد آخرين واثنين من الخنازير جرّاء خسارته في جَوْلَة لعبٍ بأوراق اللعب. وهلمّ جرا.

(7) آلة تخليص القطن من بذاره.

كان سعرها متذبذبًا. لكن عندما تُباع مرّات عدّة مثلها، فإن العالم يَعْلَمُك أن تولي اهتمامًا أكثر وأكثر للتفاصيل. لذا تعلّمت أن تتكيف بسرعة مع المزارع الجديدة التي تؤخذ إليها للعمل، وأن تُميّز مُحطّطي الزّنوج من المّلاك عن الرّحيمين بهم، والكسالى عن المجتهدين، والمُخبرين عن حافظي الأسرار. السّادة والعشيقات بدرجات مكرهم، والأراضي المملوكة يائسة المستقبل عن الواعدة بالخير. أحيانًا لا يريد المزارعون أكثر من حياة متواضعة، لكن هناك رجالٌ ونساءٌ يرغبون في امتلاك العالم، كما لو كان العالم مجرد مساحات للزّراعة يُمكن امتلاكها شيئًا فشيئًا. مائتان وثمانية وأربعون ومائتان وستون ومائتان وسبعون دولارًا. أينما ذهب وجدتهم يزرعون قصب السّكر والبقوليات فتعمل معهم، باستثناء آخر أسبوع قبل بيّنها مرة أخرى، حين قضت الوقت في لفّ التّبغ.

أعلن التاجر في مزارع التّبغ أنه يبحث عن عبید في سن التكاثر، ويفضل أن تكون أسنانهم مكتملة وأن يكونوا ليّتي العريكة. كانت قد أصبحت امرأة وقتئذ. لذلك ذهبت.

كانت تعرف أن العلماء البيض يحدقون في الأشياء لفهم كيفية عملها. حركة النجوم عبر الليل، امتزاج الأخلاط الأربعة في الدم⁸. درجة الحرارة المطلوبة لإنتاج محصول قطن صحي. اخترعت أجلي علمًا لجسدها الأسود وراكت الملاحظات.

(8) مذهب الأخلاط الأربعة هو نظام طبي مفصّل لتكيب وعمل الجسم البشري من خلال الاعتماد على نِسب معيّنّة تمتزج بها عناصر الماء والهواء والنار والتراب في الجسد، وهي تؤثر مباشرة على مزاج الإنسان وصحته. المدرسة اليونانية القديمة والأطباء الرومانيين هم أول من اعتمد هذا الافتراض.

كل شيء له قيمة، وإذا تغيّرت القيمة يتغيّر كل شيء. اليقطينة السليمة تساوي أكثر من تلك المتشققة التي لا تحتفظ بالمياه داخلها، والسنارة التي تُبقي سمكة القرموط عالقةً بها أكثر قيمة من تلك التي ينفك عنها الطعم. المفارقة الساخرة الساخرة في أمريكا هي أن البشر أيضًا أشياء لها قيمة معيّنة. من الأفضل مثلًا أن تقلّل خسائك بآلا تبتاع رجلًا مسنًا لن يبقى على قيد الحياة خلال الرحلة عبر المحيط، بل تبتاع شابًا من سلالة قبليّة قويّة يجلب زبائنه أولًا بأوّل. الفتاة المُستعبدة الولودة التي تعصُر من نفسها جرأً صغيرة كانت مثل نبتة النعناع، إنّها مالٌ يجلب مالًا أيضًا. إذا كنت شيئًا -عربة أو حصانًا أو عبدًا- فقيمتك تحدد إمكانياتك. وبالتالي فكّرت في مكانها.

وصلت أخيرًا إلى جورجيا. اشتراها وكيلُ مزارع عائلة آل راندال، مقابل مائتين واثنين وتسعين دولارًا رغم الفراغ الجديد الذي شاع في نظرة عينها، والذي جعلها تبدو بسيطة التفكير. ولبقيّة حياتها، لم تذهب أجماري بعيدًا عن مزارع راندال ولم تنقّس نفسًا واحدًا خارجها. كانت في المنزل، على تلك الجزيرة النائية التي تُطلّ على الفراغ.

تزوّجت جده كورا ثلاث مرات. كانت تحملُ مَيلاً للأكتاف العريضة والأيدي الكبيرة، ما يُشبه تمامًا راندال الأب، العجوز، رغم التباين في أنواع العمل الذي يضعه السيّد وعبدته في الاعتبار. كان مخزون المزرعتين جيّدًا، تسعين رأسًا من العبيد في النصف الشمالي، وخمسة وثمانين رأسًا في النصف الجنوبي. ولذلك فقد توقّر أمام أجماري وفترة من الرجال لتختار منهم عموماً. وعندما لم يكن الأمر كذلك، فإنّها تصبر.

أصبح زوجها الأول مدمناً على ويسكي الذرة وبدأ باستخدام يده الكبيرة لتناول كميات كبيرة. لم تكن أجماري حزينة لرؤيته يختفي على الطريق

عندما باعوه إلى مُلْكِيَّةٍ في فلوريدا متخصصَّة في زراعة قصب السُّكَّر. بعدها اجتمعت مع أحد الفتیان اللطفاء من النَّصف الجنوبيّ. قبل موته بسبب الكوليرا، كان يُحِبُّ أن يقصَّ عليها قصصًا من الكتاب المقدَّس، حيث كان سيده السابق أكثر ليبرالية فيما يتعلَّق الأمر بعلاقة العبيد بالدين. استمتعت بالقصص والعِبَر، وافترضت أن للرجال البيض وجهة نظر: الحديث عن الخلاص يمكن أن يمنح الأفارقة أفكارًا. الفقراء. أبناء حام⁹. البسطاء. أمَّا زوجها الأخير فقد تُقِبَّت أذناه بسبب سرقة العسل. وظلَّت جروحه تتقيح حتى قضى نحبه. أنجبت أجاري خمسة أطفال من هؤلاء الرجال، جميعهم وُلدوا في المكان نفسه، على الألواح الخشبيَّة إيَّاهما في الكوخ نفسه، وهي البقعة التي كانت تشير إليها أجاري عندما يُسيؤون التصرف. ذاك هو المكان الذي جئتم منه، وإذا لم تفعلوا ما أمركم به، سوف أعيدكم إليه. كانت تريد تعليمهم طاعتها، فريما سيطيعون جميع السادة القادمين وينجون. اثنان منهما ماتا بسبب الحمى. قطع أحد الصبية قدمه أثناء اللعب على محرث صديء، فتسمم دمه. فيما لم ينهض أصغرهم بعد أن ضربه سيده على رأسه بكتلة خشبية. واحدًا تلو الآخر. على الأقل لم يتم بيعهم قط، قالت سيدة مُسنَّة لأجاري. وقد كان ذلك صحيحًا، ففي ذلك الوقت نادرًا ما كانت مزارع راندال تبيع الأطفال. لذا كنتُ تعرف أين وكيف سيموت أطفالك.

الطفلة التي عاشت بعد سنِّ العاشرة كانت والدة كورا، مابل. ماتت جدَّة كورا، أجاري، في مزارع القطن، بينما رؤوس نبات القطن الدائريَّة تصرخ حولها مثل أمواج بيضاء في مُحيط غاشم. إنَّها آخر أبناء قريتها،

(9) حام ابن النبي نوح.

وقد جُرّت خلال صفوف النّباتات الطويلة عبر الحقل بعُقدٍ حول رأسها، والدّم يتدفق من أنفها، والزّيد الأبيض يغطي شفّتها. إنّه أمرٌ يمكن حدوثه في أي مكان آخر. كانت الحرية ممكنة لأشخاص آخرين، لمواطني مدينة بنسلفانيا الصاخبة التي تقع ألف ميل إلى الشّمال. منذ الليلة التي اختُطف فيها تم تسعيرها مرارًا، كانت تستيقظ كل يوم على ميزانٍ بمقياس مختلف.

اعرف قيمتك وستعرف مكانك في النظام. الهرب من حدود المزرعة كالهروب من المبادئ الأساسية لوجودك: مستحيل. ذلك كان حديث جدّتها في مساء يوم أحد، عندما فاتحها سيزر حول السّكك الحديدية السريّة؛ وقالت لا. وبعد ثلاث أسابيع وافقت. هذه المرّة، كان الحديث لوالدتها.

جورجيا





مكافأة قيمتها ثلاثون دولارًا

في الخامس من هذا الشهر، هربت فتاة زنجية تدعى ليتزي تعيش في ساليسبري من الموقَّع أدناه. من المفترض أن الفتاة المذكورة توجد في محيط مزرعة السيدة ستيل. سأعطي المكافأة المذكورة أعلاه لقاء تسليم الفتاة، أو مقابل الحصول على معلومات عن تقديمها لأي سجن في هذه الولاية. سيتعرض جميع الأشخاص الذين يُقدمون على إيواء الفتاة المذكورة إلى المساءلة بموجب العقوبة التي يقرها القانون.

دابليو. إم. ديكسون

١٨ يوليو ١٨٢٠



يأتي عيد ميلاد جوكي مرة أو مرتين فقط في السنة. وقد حاولوا الاحتفال به بشكل مناسب. كان دائماً يصادف يومَ أحد، اليوم الذي يعملون خلاله نصفَ نهار فقط. في الساعة الثالثة، يشير المدراء إلى نهاية العمل ويشجع عمال المزرعة الشمالية في التحضير للإسراع في الأعمال المنزلية. الإصلاح، وكسح الطحالب، وسدّ تسرّبات السقف. وقد كان للمأدبة الأسبقية، إلا إذا كان لديك إذنٌ للذهاب إلى المدينة لبيع المنتجات اليدوية أو تم استئجارك لعمل يومي. حتى لو رغبت في التخلّي عن السّعي وراء أموالٍ إضافيّة - ولم يكن أحد يميل إلى ذلك - كان من المستحيل لعبد أن يخبر رجلاً أبيض يطلب منه العمل أنه لا يستطيع بسبب أنّ اليوم هو يوم ميلاده. فالجميع يعلم أن الزنوج ليس لديهم أعياد ميلاد.

جلست كورا على حافة أرضها فوق كتلة القيقب السكري وحاولت إخراج الأوساخ من تحت أظافرها. كانت كورا، عندما تستطيع، تساهم بالفجل أو أي نوع من الخضراوات في أعياد الميلاد. لكنها غير قادرة على تقديم شيء اليوم. صاح أحدهم أسفل الزقاق، أحد الأولاد الجدد على الأرجح، والذي لم يتم تحطيمه بعد بواسطة كونيلى، ثم تحوّل الصّراخ إلى نزاع. الأصوات كانت انفعالية أكثر من كونها غاضبة،

وعالية جدًا. سيكون عيد ميلادٍ لا ينسى طالما الناس غاضبون لهذه الدرجة منذ الآن.

"لو كان لك أن تختاري عيد مولدك، متى سيكون؟" سألت لوفي.

لم تتمكن كورا من رؤية وجه لوفي بسبب وقوع الشمس خلفها، لكنها كانت تعرف تعبير صديقتها. لوفي شخص بسيط. سيقام احتفال في تلك الليلة. وكانت لوفي تُحبّ هذه الفسح المُستركة، سواءً تمثّلت في عيد ميلاد جوكي، أو الكريسماس، أو واحدة من ليالي الحصاد عندما يُستبقى كل من يملك ذراعين كي يواصل القطف، بينما يطلبُ مُلاك المزارع، آل راندال، من المُشرفين توزيع ويسكي الذرة للحفاظ على سعادة القاطنين. كان هذا عملاً أيضًا، لكن القمر جعل الأمر مقبولاً. كانت لوفي أوّل من أخبر العازف بأن يعزف وأوّل من رقص. وحاولت سحب كورا إلى ساحة الرقص، متجاهلة احتجاجاتها. كانوا يدورون في دوائر، بأذرع متشابكة، بينما تصطاد لوفي عينيّ صبيّ مُدّة ثانية مع كل دوران. لكن كورا لم تنضم إليها أبدًا. دفعت ذراعها بعيدًا. ووقفت تشاهد.

"هل أخبرتك عن الوقت الذي وُلدتُ فيه"، قالت كورا. وُلدت كورا في الشتاء. وكانت والدتها، مابل قد اشتكت بما فيه الكفاية من صعوبة ولادتها، وكذلك من الصّقيع الشّديد ذلك الصباح، وعواء الرياح بين شقوق ألواح الكوخ. أخبرتها كيف نزلت والدتها أيّامًا ولم يكلف كونيّلي نفسه عناء استدعاء الطبيب حتى بدت مثل شبح. في بعض الأحيان كان عقل كورا يخدعها فتحول القصة إلى واحدة من ذكرياتها، مُدْرِجَةً فيها وجوهًا شبحيّة لعبيد ماتوا، ينظرون نحوها بحب وتسامح. حتى الناس الذين تكرههم، الذين ركلوها أو سرقوا طعامها بعدما توفيت

والدتها، كانوا هناك أيضًا.

"لو كان لك أن تختاري"، قالت لوفي.

"ليس بإمكانك الاختيار"، قالت كورا. "فقد قرره آخرون لك".

"من الأفضل أن تُحسّني مزاجك"، قالت لوفي. وانطلقت.

دلكت كورا كاحليها وهي تشعر بسعادة حصولها على وقتٍ للجلوس.

بوليمة أودونها، هذا هو المكان الذي تنتهي إليه كورا كل يوم أحد، عندما

تقضي نصف يوم عملها: جالسة هناك، تبحث عن أشياء تُصلحها.

فكرة أنها تملك نفسها بضع ساعات كل أسبوع، ذلك ما فكرت فيه: هزّ

الحشائش، وتنتف البرقات، وترقيق الخضر الحامضة، والحملقة في أي

شخص يخطط للسطو على قطعة أرضها! والاعتناء بفراشها بالطبع،

عمليات تنظيف وإعداد لازمة، وكان أيضًا إشارة إلى أنها لم تفقد عزمها

منذ مولدها.

كان للأوساخ على قدميها قصة، أقدم قصة عرفتتها كورا. عندما بدأت

أجاري تزرع هناك، بعد فترة وجيزة من مسيرتها الطويلة إلى المزرعة،

كانت قطعة الأرض خليطًا من التراب والأشجار المنخفضة خلف كوخها

الخشبيّ، في نهاية خط مساكن العبيد. خلفها الحقول المألوفة، وبعد

الحقول تمتد الأراضي السبخة. ثم حُلّم راندال الأب ذات ليلة ببحر

أبيض يمتد على مدى البصر وقد بُدّل محصوله من البقوليات⁽¹⁰⁾ إلى

القطن الأبيض الجنوب أمريكي⁽¹¹⁾. أجرى اتصالات جديدة في نيو

أورليانز، اتفق مع المضاربين المدعومين من قبل بنك إنجلترا. وتدفق

المال كما لم يحدث من قبل. كانت أوروبا تعاني لإيجاد القطن وتحتاج

.Indigo (10)

.Sea Island cotton (11)

إلى من يزودها به، فهي تحتاج لكلّ رزمة قطن. وفي يوم من الأيام، أزالَت الأموال المتدفّقة الأشجار عند الأكواخ. وفي الليل، عندما عاد العبيد من الحقول إلى أكواخهم، أخذوا يقطعون جذوع تلك الأشجار لبناء صفّ جديد من الأكواخ.

كانت تنظر إليهم وهم يتراخضون جيئةً وذهابًا، يُعدّون العُدّة. يصعب على كورا تخيل أنّه كان هناك زمنٌ لم تُكن فيه تلك الأكواخ الأربعة عشرة موجودة: ذاك الخشب المتآكل، والصّيرير الذي يصدر من عمق الألواح في كل خطوة تخطوها عليها. كانت للأكواخ ميزة دائمة بسبب إطلالتها على التلال ناحية الغرب، وتبعثُ بدورها في الهواء مشاعر الذين عاشوا فيها والذين ماتوا: الحسد والضغينة. لو أنّهم تَرَكو مساحة أكبر بين الأكواخ القديمة والجديدة لكان من شأن ذلك تقليل الحزن الذي كان قابلاً هناك على مرّ السنين.

احتدم الجِدال بين الرّجال البيض أمام القضاة بسبب مزاعم ملكيّة هذه الأرض أو تلك، أراضي تبعدُ مئات الأميال، وقد قُسمت على خريطة. وبحماسةٍ لا تقلّ عن ذلك، قاتل العبيدُ من جهتهم على قِطع الأرض الصّغيرة تحت أقدامهم. فقد كان شريط الأرض الصّغير بين الأكواخ والذي يفصل فيما بينها مكانًا لربط الماعز، وبناء قنّ الدجاج، وبُقعة مناسبة لزراعة ما تشتهي لملء بطنك من الطّعام، لا الهريس الذي يُعطى لك من المطبخ كلّ صباح وحسب. هذا إذا كنتَ من أوائل ساكني الأكواخ. وعندما ينوي راندال الأب، أو أحد أبنائه لاحقًا، بيعك، فإن أحد العبيد سيقوم بانتراع قطعة أرضك الصّغيرة قبل أن يجفّ الحبر على عقد بيعك. إن رؤيتك هناك في المساء هادئًا أو مبتسمًا أو مدندنًا بلحنٍ ما، قد تمنح جارك فكرة إيجابك على التنازل عن أرضك

باستخدام أساليب التخويف والاستفزاز المختلفة. من سيسمع إلى مرافعتك؟ لا قضاة بين العبيد.

"لكن أمي لم تسمح لهم بلمس أرضها"، أخبرت مابل ابنتها. رغم أن قطعة أرضها مجرد أضحوكة، فهي بالكاد ثلاث ياردات مربعة. "قالت إنها كانت لتدق المطرقة في رؤوسهم لو حاولوا النظر إليها".

صورة جدتها وهي تعنف عبداً آخر لم تنسجم مع ذكريات كورا عنها، لكن بمجرد أن بدأت تعتني بقطعة الأرض فهمت حقيقة الصورة. واصلت أجازي مراقبة حديقتها من خلال تحولات الازدهار. اشترى آل راندال مزارع آل سبنسر الواقعة شمال أراضيها، بعد أن قررت تلك الأسرة تجريب حظها والرحيل غرباً. كذلك اشترى المزرعة التي تليهم جنوباً، وحولوا المحصول من الأرز إلى القطن، وأضافوا كوخين إلى كل صف. لكن قطعة الأرض التي تخص أجازي ظلت في منتصف كل شيء، لم تُنقل، مثل الجذع الذي يضرب بجذوره في مكان عميق. بعد وفاة أجازي، تولت مابل زراعة البطاطا والبامية. بدأت الأمور تختلف عندما تولت كورا رعايتها.

عندما اختفت مابل، لم يعد هناك من يوجه كورا. كان عمرها أحد عشر عامًا، أو عشرة تقريباً - لم يكن هناك من يؤكد ذلك على وجه اليقين. ما صدم كورا هو أن العالم صار في عينيها مجرد انطباعات رمادية. وأول لون عاد كان النبي المحمر من التربة في قطعة أرض عائلتها. وقد جعلها الأمر تنتبه إلى الناس والأشياء، وقررت المحافظة على قطعة الأرض، على الرغم من أنها كانت صغيرة، ولم يعد هناك شخص يهتم بها بعد الآن. كانت مابل هادئة جدًا وعنيدة، فلم تحظ بشعبية، لكن

الناس كانوا يحترمون أجاري. وقد ظلّ طيفها يوقر لها الحماية. معظم عبيد آل راندال الأصليين كانوا قد ماتوا الآن أو تم بيعهم، وبعضهم تمكن من الفرار. هل بقي هناك شخص مُخلص لجدها؟ أَلقت كورا نظرة مدقّقة على القرية فردًا فردًا: لا، لقد ماتوا جميعًا.

قاتلت من أجل التراب. كان هناك الأطفال الصغار، الصغار جدًا على العمل الحقيقي. نهرتهم كورا لأنهم داسوا براعمها، وصرخت فيهم عندما حاولوا نزع ثمرات البطاطا، مستخدمة التبرة نفسها التي استخدمتها في عيد ميلاد جوكي لجعلهم ينظّمون أقدامهم ويبدأون الألعاب. عاملتهم بنوايا طيبة.

غير أن الأدعاء لم يدعوها وشأنها. فقد ظهرت لها أفا. نشأت والدة كورا وأفا في المزرعة نفسها. وعملاً سويًا المعاملة نفسها من قبل آل راندال، فقد تعرّضتا إلى أحداث روتينية جدًا ومألوفة حتى باتت تُعتبر تحوّلًا في الطّقس وحسب، بما فيها تلك الحوادث الوحشية جدًا التي يرفض العقل استيعابها. في بعض الأحيان، تُقرب مثل تلك التجارب شخصًا إلى آخر؛ تمامًا كما يحوّل العجز والعار في كثير من الأحيان الجميع إلى أعداءك. رغم ذلك، لم تكن مابل في وفاق مع أفا قط.

كانت أفا نحيلة وقوية، ويدها سريعتان مثل ثعبان الحُفر، السرعة التي كانت مفيدة في القطف وصبغ صغارها على وجوههم بسبب تكاسلهم وذنوبهم الأخرى. كانت تعترّ بدجاجها أكثر من اعتزازها بأطفالها، وتطمع في أرض كورا لتوسيع حظيرتها. قالت أفا: «يا له من تبذير»، ضاغطة بلسانها على أسنانها. «كل ذلك لها!» كانت أفا وكورا ينامان جنبًا إلى جنب كل ليلة في الدور العلوي. وزُعم أنهما كانتا تتحشران هناك مع ثمانية أشخاص آخرين، تمكنت كورا من تمييز إحباط أفا الذي كان

ينتقل عبر الخشب. كانت أنفاس المرأة رطبة بالغضب والمرارة. وكانت تجد دومًا فرصةً لصفع رأس كورا كلما نهضت من النوم لتبول.

"لقد تمّ نقلك إلى الفرن الآن"، قال موسى لكورا ذات ظهيرة عندما عادت بعد المساعدة في كبس القطن. كان موسى قد عقد صفقة مع أفا، مقابل مقايضة ما. ومنذ أن قام كونيلى بترقية العامل الزراعيّ إلى مدير، ومن ثمّ إلى واحد من المفتّشين المشرفين، نصب موسى نفسه كوسيط للأراضي الصّغيرة حول الأكواخ. كان يُلقي الأوامر في النزاعات بحجة محاولة احتوائها، فقد كانت هناك أمور لا يمكن للرجل الأبيض القيام بها. تقبّل موسى دوره بحماس. اعتقدت كورا أنّ له وجهًا ينطوي على اللؤم، مثل نُتوءٍ في جذع، تفوح منه رائحة العرق. لم تكن مندهشة عندما كشفت شخصيته عن نفسها - وإذا انتظرت بما فيه الكفاية، فسيحدث ذلك دائمًا. في الفجر، تم تحويل كورا إلى الفرن، وهو المكان الذي يقومون بنفي التعساء إليه. لم يكن هناك ملاذ، لا توجد إلا القوانين التي يعيدون كتابتها كل يوم. شخص ما كان قد نقل أشياءها بالفعل.

لم يتذكّر أحد سيّء الحظّ الذي سُمّي المكان باسمه: الفرن. عاش طويلًا كي يجمع امتيازاتٍ كثيرة، وعاش أطول كي يراها تُنتزع منها الواحدة تلو الأخرى. رحلت كورا إلى الفرن ضمن من صاروا مُقعدين بسبب عقوبات المشرفين، رحلت إلى الفرن صحبة من تم تحطيمهم بواسطة العمل، سواء بطرق واضحة أو خفيّة، رحلت إلى الفرن مع أولئك الذين فقدوا عقولهم. رحلت إلى الفرن مع الشوارد.

كان الرجال المتضررين، أنصاف الرجال، هم أول من عاش في الفرن. ثم بدأت النساء في الإقامة هناك. كان الرجال البيض والسود يستخدمون

أجساد النساء بعنف، فيخرج أطفالهن متقزمين ومتقلصين، بينما يُذهب الضربُ بعقولهن. وقد كنَّ يكررن أسماء أطفالهن الموق في الظلام: إيف، إليزابيث، نثانيال، توم. تكوّرت كورا على الأرض في الغرفة الرئيسية، خائفة جدًا من النوم هناك معهن، تلك المخلوقات البائسة. شتمت نفسها لصغر عقلها رغم أنها كانت عاجزة من قبل. حدقت في الأشكال الداكنة: الموقد، والأعمدة التي تدعم الدور العلويّ، والأدوات التي تتدلى بمسامير على الجدران. كانت هذه المرة الأولى التي تمضي فيها الليلة خارج كوخها الذي وُلدت فيه، على بُعد مئة خطوة وما يساويها من الأميال.

لم يكن الأمر سوى مسألة وقت قبل أن تنقذ آفا المرحلة التالية من مخططها. وكان هناك أبراهام الكبير ليتنافس معها. أبراهام الكبير، غير الكبير على الإطلاق، لكنه كان قد واءم نفسه على التصرف على غرار المستنّين العدوانيين منذ أن تعلم الجلوس أول مرة. لم يضع للأرض أيّ تصميمٍ توسّعي مثل آفا، لكنه أراد أن تنتقل ملكيّة الأرض حسب الأصول. لماذا يجب عليه أو أي شخص آخر أن يحترم مطالب تلك الفتاة الصغيرة فقط لأن جدتها نظّفت تلك الأرض ذات مرة؟ أبراهام الكبير لم يكن تقليديًا. تمّ بيعه مرات كثيرة حتى لم يعد لمثل تلك الأمور وزن بالنسبة له. وفي عديد من المناسبات، عندما كانت تمرّ بقرية أثناء العمل، تسمعه كورا يجادل لإعادة توزيع حصّتها من الأرض. "كلّ ذلك لأجلها!". كلّ الثلاث ياردات!

ثم وصل بليك. في ذلك الصيف تولى الشاب تيرانس راندال واجبات التحضير لليوم الذي سيتولى فيه هو وأخوه أمر المزرعة. اشترى مجموعة

من العبيد من كارولينا. وإذا كان بالإمكان تصديق الوسيط فقد كانوا ستة من قبائل الفانتي والماندينغو، جُلبت أجسادهم وأمزجتهم على العمل. بليك، وبوت، وإدوارد، وغيرهم صنعوا قبيلة على أرض راندال، ولم يمتنعوا بعضهم عن مساعدة البعض الآخر في أخذ ما لم يكن من حقهم نيله. وقد جعل تيرانس راندال من حقيقة أنهم المفضلون الجُدد لديه أمرًا واضحًا، وتأكد كونيلي من أن الجميع يتذكرون ذلك. عادةً، يجب عليك التنحي جانبًا عن طريق أولئك الرجال عندما لا يكونون في مزاج جيّد، أو في ليلة السّبت عندما يقضون على نبيذ التفاح كلّهُ.

كان بليك قوي البنية، رجل متين أثبت بسرعة مدى فطنة استثمار تيرانس راندال فيه. فقد فكر تيرانس في السّعر الذي سوف يجنيه فقط من ذرّة هذا الرجل العتيد. أشعل بليك رفاقه وكل القادمين الآخرين وهو يركل التراب في مشهد متكرر. صعد صوته عبر الصفوف عندما كان يؤدي عمله. حتى أولئك الذين يحتقرونه لم يستطيعوا منع أنفسهم من ترديد الغناء معه. كان للرجل شخصية بائسة، لكن الأصوات التي جاءت من جسده جعلت وقت العمل يمرّ سريعًا.

بعد بضعة أسابيع من تقصي المعلومات هنا وهناك وتقييم النصف الشماليّ، قرّر بليك أن أرض كورا ستكون مكانًا جميلًا لربط كلبه. الشمس، والنسيم، والقُرب. خلال إحدى رحلاته إلى المدينة، صادف بليك الكلب الهجين فاستدرجه للبقاء إلى جانبه، فعاد معه. بقي الكلب يجول حول معمل التدخين عندما كان بليك يعمل، وظل ينبج عقب كل ضجيج في ليالي جورجيا المزدحمة. يعرف بليك بعض الأشياء عن النّجارة - لم يكن الأمر، كما هو الحال في كثير من الأحيان، مجرد كذبة وضعها التاجر لرفع سعره. فقد بنى بيتًا صغيرًا لكلبه، محاولًا استمالة

المديح. كانت الكلمات الرقيقة حقيقية، لأن بيت الكلب كان قطعة فنية، منقّدة بشكل لطيف، وذات زوايا متقنة. كما ضمّ بابًا ذي مفاصل، وشمسًا وقمرًا منحوتين على طول الجدار الخلفي.

"أليس هذا قصرًا جميلًا؟" سأل بليك أبراهام الكبير. كان بليك يُقدّر صراحة ذلك الرجل، وبطريقة واضحة في بعض الأحيان منذ وصوله. "يا له من عمل عظيم. هل ذلك سريري؟"

كان بليك قد خاظّ وسادة وقام بحشوها بالطحالب. وقرر أن البقعة خارج كوخها كانت المكان الأنسب لمنزل كلبه. كانت كورا غير مرئية بالنسبة له، أما الآن فقد رأى عينها عندما أصبحت قريبة، ليحدّرها من أنها لم تعد غير مرئية بعد الآن.

حاولت أن تتحصل على عدد قليل من الديون المستحقة لأمها، تلك التي كانت تعلم بشأنها. لكن جميعهم صدّوها. مثل بو، الخياطة التي رعتها مابل حتى استعادت صحتها عندما تعرّضت للحصى. كانت مابل قد أعطت الفتاة جزءًا من عشاءها وسقتها شوربة الحبوب والجذور في شفاها المرتعشة حتى فتحت عينها مرة أخرى. قالت بو إنها دفعت هذا الدين، ثم طلب البعض من كورا العودة إلى القرن. تذكرت كورا أن مابل قد دافعت عن كالفن عندما ضاعت بعض أدوات الزراعة. كان كونيلى يملك موهبة في استخدام السوط، وكان لينزع اللحم عن ظهر كالفن لو لم تهبّ هي للدفاع عنه. وكان ليفعل الشيء نفسه مع مابل إذا اكتشف أنها كانت تكذب. ذهبت كورا للبحث عن كالفن بعد العشاء: أنا بحاجة إلى مساعدة. لكنه صدّها بعيدًا. قالت مابل إنها لم تكتشف أبدًا الغرض الذي أخذَ لأجله تلك الأدوات.

بعد وقت قصير جعل بليك نواياه معروفة، استيقظت كورا صباح أحد الأيام على انتهاكه أرضها. غادرت الفرن للتحقق من حديقتهما. كان فجرًا باردًا. تحوم فيه الخيوط الدخانية للرطوبة البيضاء فوق الأرض. وها قد رأت ذلك - بقايا ما كان يمكن أن يكون أول ملفوف تزرعه. كانت الكروم المتشابكة قد جفت بالفعل. وكان قد تم تشذيب الأرض لصنع ساحة لطيفة لمنزل الكلب، والذي وُضع في منتصف أرضها مثل القصر الكبير في قلب مزرعة.

مدّ الكلب رأسه خارج الباب كما لو كان يعرف أن هذه أرضها ويريد أن يوصل عدم اكترائه.

خرج بليك من كوخه وضمّ ذراعيه. وبصق. تجمّع الناس في زوايا رؤية كورا: تحوم حولهم ظلال من القيل والقال. يشاهدونها. كانت والدتها، مابل، قد هربت. ولذلك نُقلت كورا إلى البيت البائس، الفرن، ولم يأت أحد لمساعدتها.

الآن هي أمام رجل يبلغ ثلاثة أضعاف حجمها، ضخّم، وقد أخذ أرضها. كانت كورا تبحث عن استراتيجية. لو حدث هذا خلال السنوات اللاحقة لاستطاعت وقتها أن تطلب نجدة نساء الفرن، أو ربما لوفي. لكن هذا يحدث الآن. كانت جدتها قد حذرت من أنها سوف تدق رأس أي شخص يحاول العبث بأرضها. بدا هذا غير مناسب بالنسبة لكورا. لكن في لحظة شيطانية، عادت إلى الفرن والتقطت فأسًا صغيرة من الجدار، الفأس التي كانت تحدّق فيه عندما يغالبها النوم، والذي على الأغلب تركه أحد السكّان السابقين الذين قضوا نهاية سيئة بمرض الرئة أو الجروح المفتوحة بواسطة السوط، أو تغوُّط أحشائهم على الأرض.

بحلول ذلك الوقت كانت الأخبار قد انتشرت ووقف المارة خارج الأكواخ بينما رؤوسهم مائلة في ترقب. مرّت كورا خلالهم، عازمة كما لو أن جسدها اخترقته عاصفة. لم يتحرّك أحد ليوقفها، لأن ذلك العرض كان غريبًا. ضربتها الأولى أسقطت سقف منزل الكلب، وقد أصدر الكلب صريرًا لأن ذيله قُطع نصفين. بعدها سارع إلى حُفرة تحت كوخ صاحبه. دمرت الضربة الثانية الجانب الأيسر من منزل الكلب تمامًا، فيما أراحت ضربتها الأخيرة بقية المنزل من يؤسه.

وقفت هناك، تتنفس بثناقل. كلتا يديها على الفأس. تتمايل الفأس في الهواء، في لعبة شدّ حبل مع شبح، لكن الفتاة لم تترنح. أحكم بليك قبضته واتجه نحو كورا. كان رفاقه يقفون خلفه متوترين. ثم توقّف. ما حدث بين هذين الشّخصين في تلك اللحظة - الشاب قويّ البنية، والفتاة النّحيلة في ثوب أبيض من قطعة واحدة دون أكمام - كان مسألة أفضلية. بالنسبة لأولئك الذين يشاهدون من صفّ الأكواخ الأوّل، بدا وجه بليك مليئًا بالمفاجأة والقلق، كرجل يتعصّر في عُشّ دبابير. أما بالنسبة للذين يقفون قبالة الأكواخ الجديدة فقد رأوا عيني كورا تتجولان كثعبان، كما لو أنها تقيس مقدرات الجيش الذي أمامها، لا رجلًا واحدًا فقط. جيش لم تكن على استعداد للقاءه. بغض النظر عن المنظور، كان المهم هو الرسالة التي ينقلها المرء من خلال الموقف والتعبير، وكيف فسّرها الآخر: قد تحسّل على أفضل ما عندي، لكن ذلك سوف يكلفك.

وقفوا لحظات قليلة حتى دقت أليس جرس الإفطار. لم يكن أحد ليتخلّى عن تناول الهريس. وعندما عادوا من الحقول، نظّفت كورا الفوضى التي حدثت في أرضها. جلست على كتلة من القيقب السكريّ،

التي لا بد أنها كانت جزءًا من مشروع شخص ما، ليصبح الموقع الذي تجلس عنده كلما منحت لها لحظة فراغ.

إذا لم تكن كورا تنتهي إلى الفرن قبل مَكيدة أفا، فقد فعلت الآن. كانت المقيمة الأكثر شهرة والتي بقيت هناك أطول فترة. في نهاية المطاف يحطّم العمل من يعاني من أيّ ضعفٍ كان- دائمًا ما يفعل ذلك. أمّا أولئك الذين تصب عقولهم غير متزنة فكان يتم بيعهم بأسعار رخيصة أو ربما يأخذون سكينًا لينحروا أعناقهم. الأماكن الشاغرة كانت قليلة. بقيت كورا في الفرن. كان الفرن منزلها.

استخدمت منزل الكلب لإشعال النار، أشعرها هي ومن معها في الفرن بالدفء ليلاً، لكن أسطورته ظلت تطاردها بقيّة وقتها في مزرعة راندال. بدأ بليك وأصدقائه يروون الحكايات. سرد بليك كيف استيقظ من قيلولة وراء الاسطبلات ليجد كورا تقف فوقه حاملة الفأس وتتمتم. تقلّده الذي بدا طبيعياً وصادقاً، وإيماءاته، جعلت من القصّة حقيقة. وبمجرد أن بدأ صدر كورا في الظهور، تفاخر أدوارد، الأكثر شراً في عصابة بليك، كيف أن كورا قدمت له اقتراحات فاسقة بينما تنزع رداءها وهددته بسلخ فروة رأسه عندما رفضها. همست الفتيات أنهن شاهدنها ترحل بعيداً عن الكوخ نحو الغابة عندما اكتمل القمر، حيث زنت مع الحمير والماعز. أولئك الذين وجدوا هذه القصة الأخيرة أقلّ مصداقية، اعترفوا بعدم جدوى إبقاء الفتاة الوحيدة المريبة خارج دائرة الاحترام.

لم يمض وقت طويل قبل أن يلاحظ الجميع أن كورا صارت امرأة ناضجة. ذات يوم قام إدوارد، وبوت، واثنان من النصف الجنوبي بجرّها وراء المدخنة. ولم يقم حتى الذين سمعوا أو رأوا ما حدث بالتدخل. قامت النسوة في الفرن بتخييطها. كان بليك قد رحل قبل وقت طويل

من حدوث هذا الأمر. ربما بعد النظر في وجهها عند ذلك اليوم، كان لينصح رفاقه بعدم جدوى الانتقام: لأن الانتقام مُكلف. لكنه رحل. هرب بعد ثلاث سنوات من تحطيمها منزل الكلب. اختبأ في الأراضي السبخة عدّة أسابيع. لكن نباح الكلب فضح موقعه للدوريات. كانت كورا لتقول إنه حصل على ما يستحقه، لو أنّ التّفكير في عقابه لم يُرعى جسدها!

كانوا قد حرّكوا بالفعل الطاولة الكبيرة من المطبخ وملئوها بالطعام احتفالاً بعيد ميلاد جوي. عند أحد جوانب الطاولة يعمل صياد على سلخ حيوان راكون من جلده، وعند الطرف الآخر تقوم فلورنسا بإزالة الأوساخ عن البطاطا. النار تحت المرجل الكبير مشتعلة تصدر صفيراً. الحساء يغلي داخل وعاء أسود، وقطع من الملفوف موضوعة حول رأس خنزير يهتز صعوداً وهبوطاً، وعينه تتجول في رغبة رمادية. ركض تشيستر الصغير وحاول الاستيلاء على حفنة من اللوبيا، فزجرته أليس بعيداً بمغرفتها.

"أليس من شيء اليوم يا كورا؟" قالت أليس.

"الوقت مبكر جداً على حصاد أرضي"، قالت كورا.

أبدت أليس قليلاً من الإحباط وعادت لإعداد طعام العشاء.

فكرت كورا أن هذا ما تبدو عليه الكذبة، ووضعت علامة حولها. بدا الأمر وكأن حديقتهما أيضاً تم رفضها. في عيد ميلاد جوي السابق كانت قد تبرعت برأسَي ملفوف، وهو الأمر الذي قوبل بترحيب، لكن كورا ارتكبت خطأ بالعودة بعد أن غادرت المطبخ، فوجدت أليس تقذف برأسَي الملفوف في دلو القاذورات.

تمايلت كورا نحو ضوء الشمس. هل اعتقدت المرأة أن طعامها ملوث؟

هل تخلّصت أليس من كل شيء ساهمت به كورا في السنوات الخمس الماضية؟ هل تعاملت بهذه الطريقة مع كل حزمة لفت وحفنة من الخضر الحامضة؟ هل بدأ الأمر مع كورا، أم قبل ذلك، مع مابل، أو جدّتها؟ لم تكن هناك فائدة من مواجهة تلك المرأة. كانت أليس محبوبة من راندال الأب، والآن من جيمس راندال، الذي كُتِرَ على تناول فطائر اللحم المفروم خاصّتها. كان هناك بؤس، بؤس مدسوس داخل المآسي، وكان من المفترض عليك تتبعه.

بالنسبة للأخوين راندال، فمنذ أن كان جيمس صبيًا صغيرًا، كان يتم استرضائه بأطباق من مطبخ أليس، كالسفرجل الهندي لمعالجة إحدى نوبات غضبه. شقيقه الأصغر، تيرانس كان نوعًا مختلفًا. فالطباخة ما تزال تحمل ندبة بجانب أذنها من حادثة أعربَ فيها السيّد تيرانس عن استيائه من أحد أطباقيها. كان عمه عشرة سنوات. لكن العلامات ظهرت عليه جليّة منذ أن تمكن من المشي، وبرزت الجوانب الأكثر إزعاجًا من شخصيته كلما تقدم به السنّ وتحمل مسؤولياته. كان لجيمس سلوك حيوان النوتيلوس البحري، يختبئ خلف شهيته الخاصة، لكن تيرانس التقط كل نزوة عابرة وعميقة الجذور بكل ما في وسعه. فذاك كان أحد حقوقه.

قعقت الأواني من حول كورا، وأطلق الزوج الصغار الصرخات فرحًا بالمسرات القادمة. بينما لا شيء في النصف الجنوبي. كان الأخوان راندال قد اقترعا منذ سنوات لتحديد إدارة كل نصف من المزرعة، وذلك ما جعل هذا اليوم ممكنًا. لم تكن مثل هذه الأعياد تحدث في النصف الذي يملكه تيرانس، لأن الأخ الأصغر كان بخيلًا فيما يتعلق بتسليّة العبيد. أدار ابني راندال ميراثهما وفقًا لمزاجيهما. كان جيمس راضيًا

بالمحاصيل المألوفة، والتراكمات البطيئة التي لا مفر منها لممتلكاته. كانت الأرض والزواج ضماناً تتجاوز ما يمكن لأي بنك أن يقدمه. أما تيرانس فقد استولى على اليد العاملة الأكثر نشاطاً، باحثاً عن طرق لزيادة الأحمال المرسلة إلى نيو أورليانز. كان يعرف كيف يكسب كل دولار ممكن. وحينما كان الدم الأسود مألواً، عَلِمَ رجل الأعمال الماكر كيف يفتح الأوردة.

كورا، عندما أمسكها الصبيّ تشيستر وأصدقائه، فزعت. لكنهم كانوا مجرد أطفال. في أوقات السباقات، دائماً ما قامت كورا بتنظيم الأطفال عند خط البداية: توازي أقدامهم، وتهدئ اللعوبين، وتؤهل بعضهم إلى سباق الأطفال الأكبر سنّاً إذا لزم الأمر. هذا العام رشّحت تشيستر لسباق الأطفال الأكبر سنّاً. كان ضالاً، مثلها، بيع والداه قبل أن يتمكن من المشي. فاعتنت به كورا. كان رأسه مدبباً وعيناه حمراوتين. ودائماً ما فاز في السباقات خلال الأشهر الستة الماضية، فالسباقات كانت تحفز شيئاً في جسده الرشيق. قال كونيلي له أنّه رياضيّ متمرّس، وقد كانت مجاملة نادرة منه.

"أنت تركض بسرعة"، قالت كورا.

ضم ذراعيه وأمال رأسه قائلاً: "أنت لا تحتاجين إلى أن تخبريني أيّ شيء." كان تشيستر قد بدأ ينضج، حتى لو لم يكن يعرف ذلك. رأت كورا أنه لم يكن يتسابق في العام المقبل، فقد كان يتبخر على جوانب حلبة السباق، ويتمازج مع أصدقائه، ويتكرر مقالّباً مؤذية.

تجمع العبيد الشباب والعبيد القدامى على جوانب المسار. النساء اللواتي فقدن أطفالهن كن ينجرفن أكثر فأكثر لإذلال أنفسهن بالاحتمالات وما لن يحدث أبداً. تبادل حشد من الرجال أباريق نبيد

التفاح وشعروا بأن خزيهم يمضي بعيدًا. نادرًا ما شاركت نساء الفرن في الأعياد، لكن فاغ حاولت دمجهن بطريقتها الخيرة.

وقفت لوفي حكمًا في خط النهاية كالقاضي. الجميع عدا الأطفال كان يعرف أنها دائمًا ما تعلن أحد أحبّتها فائزًا، خصوصًا عندما تدبّر الأمر بشكل يجعلها تفلت من المساءلة. كان جوكي أيضًا يجلس في خطّ النهاية، في كرسيه المصنوع من خشب القيقب، والذي يجلس عليه معظم الليالي لمشاهدة النجوم. لكنّها في أعياد ميلاده، كان يجرّه معه جيئةً وذهابًا خلال الزقاق، كي يولي اهتمامًا مناسبًا لفقرات التسلية التي تُعقد باسمه. ذهب المتسابقون إلى جوكي بعد أن فرغوا من سباقاتهم، وقدمَ لكلّ منهم قطعة من كعكة الزنجبيل، للفائزين ولغيرهم. انتظر تشيستر، ويداه على ركبتيه. ثم أسرع نحو خط النهاية. قالت كورا «كدت تفوز».

قال الفتى، «تقريبًا»، وذهب للحصول على نصيبه من كعكة الزنجبيل. ربتت كورا على ذراع الرجل العجوز بعد انتهاء السباق الأخير. لا يمكنك أن تعرف أبدًا ما رآه خلال حياته بتلك العيون الحليبيّة. «كم عمرك يا جوكي؟»

"أوه، دعيني أتذكّر". ثم شرد قليلًا.

كانت على يقين من أنه أخبرها عن بلوغه المائة عام وواحد في آخر حفل أقيم لأجله، ما يعني أنه أقدم عبدٍ رآه أيّ شخص في مزرعتي آل راندال الشماليّة والجونوبيّة على الإطلاق. بمجرد أن تصير عجوزًا إلى هذا الحد، قد تكون في الثمانية وتسعين من العمر أو المائة وثمانية، لن يشكل ذلك فارقًا. لم يتبق لدى العالم شيء ليظهره لك سوى صور جديدة من القسوة.

اعتقدت كورا أن عمرها سيكون ستّ عشرة سنة أو سبع عشرة. كان قد مر عام منذ أن أمرها كونيلى بأن تتخذ زوجًا. وعامين منذ أن اعتدى عليها بوت وأصدقائه. لم يكرروا انتهاكهم مجددًا، ولم يُعرها أيّ رجل مناسب انتباهًا منذ ذلك اليوم. ربما بسبب أنها تعيش في القرن الذي تعتبره منزلها، والقصاص المتداولة حول خَبَلها. وكانت قد مرّت ستة أعوام منذ هروب والدتها.

ظنّنت كورا أن لدى جوكي خطة عيد ميلاد جيدة. استيقظ جوكي خلال يوم أحد مفاجئ ليعلن احتفاله بعيد ميلاده، كان ذلك كل ما في الأمر. في بعض الأحيان كان يحتفل به خلال أقطار الربيع، وأحيانًا أخرى بعد الحصاد. وكان خلال بعض السنوات لا يُقيم له ميلادًا، ربما ينسى أو يقرّر عدم الاحتفال وفقًا لبعض الاعتبارات الشخصية المتعلقة بأن المزرعة كانت لا تستحق ذلك. لم يكن أحد يمانع نزواته الصّغيرة تلك. كان كافيًا أنه كان الأكبر سنًا بين الرجال الملونين ممّن قابلوا في حياتهم كلّها، وأنّه نجا من كل تعذيب ضخم أو طفيف أوقعه الرّجال البيض به. كانت عيناه غائمتان، وساقه عرجاء، ويده المحطمة ملتوية بشكل دائم كما لو أنه ما يزال ممسكًا بمجرفة، لكنه كان على قيد الحياة.

وقد تركه الرجال البيض الآن. العجوز راندال لم يقل شيئًا عن أعياد ميلاده، وكذلك فعل جيمس عندما تولى أمر ذلك الجزء من المزرعة. كونيلى، المشرف، لم يكن يظهر كثيرًا يوم الأحد، إذ كان يستدعى أيّ واحدة من العبدات فيجعلها زوجته لذلك الشهر. كان الرجال البيض صامتين. كما لو أنهم استسلموا أو قرّروا أن الحرية الصغيرة كانت أسوأ عقوبة على الإطلاق، مقدّمين هبة الحرية الحقيقية على الرّاحة المؤلّة.

يومًا ما، إذا عاش طويلًا بما فيه الكفاية، سيتمكن جوكي من اختيار اليوم الصحيح لولادته. ولو كان هذا صحيحًا، لكانت كورا اختارت يومًا لميلادها من حين لآخر، فربما تتمكن من بلوغ يوم مولدها الحقيقي أيضًا. في الواقع، قد يصادف هذا اليوم ميلادها. لكن ما الذي سوف تستفيده من معرفة اليوم الذي ولدت فيه في عالم الرجل الأبيض؟ لم يبذُ كشيء يود المرء تذكره. بل على الأغلب ربما سيرغب في نسيانه. "كورا".

وصل معظم من هم في النصف الشمالي إلى المطبخ كي يتناولوا الطعام، إلا سيزر الذي تباطأ. ها هو قد وصل. لم تنل كورا فرصة للتحدث إلى الرجل منذ وصوله إلى المزرعة. فعلى الفور يتم تحذير العبيد الجدد من التعامل مع نساء الفرن. ذلك يوفر الوقت. سألها "هل يمكنني التحدث معك؟"

كان جيمس راندال قد اشتراه وثلاثة عبيد آخرين من وكيل سفر بعد موجة الحمى التي أدت إلى وفاة بعضهم قبل عام ونصف. امرأتان للعمل في المغسلة، وسيزر وبرينس للانضمام إلى عمال المزرعة. كانت قد رأتة ينحت كتلاً من الصنوبر بسكاكين النحت التي يملكها. لم يكن يختلط بالعناصر الأكثر إزعاجًا في المزرعة، وعرفت أنه يخرج أحيانًا مع فرانسيس، وهي واحدة من الخدم اللاتي يعملن داخل المنزل. ألا يزالان معًا؟ لوفي يمكن أن تخبرها. ربما كانت لوفي فتاة صغيرة لكنها كانت تحبّ تتبع أخبار العشاق، والترتيبات الوشيكة. سألته كورا. «ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك يا سيزر؟»

لم يكلف نفسه عناء معرفة ما إذا كان هناك أي شخص يستمع إلى حديثهما. كان على دراية بعدم ووجد أحد لأنه خطط للأمر. قال

«سأعود إلى الشمال». «قريبًا. سوف أهرب. وأريدك أن تأتي معي». حاولت كورا أن تفكر في الشخص الذي دفعه ليخبرها بهذه الخدعة. «أنت ذاهب إلى الشمال وأنا ذاهبة لتناول الطعام»، قالت.

أمسك سيزر ذراعها بلطف وإصرار. كان جسده نحيلًا وقويًا، مثل أي عامل حقل في عمره، لكنه كان يُبدي قوّته بخفّة. له وجه مستدير، وأنف مسطح - تذكّرت سريعًا أنه يحمل غمّازةً تظهر عندما يضحك. لم احتفظت بهذا الأمر في ذهني؟

قال «لا أريدك أن تبغني عني. يجب أن أثق بك من ذلك الأمر. لكنني سأذهب قريبًا، وأريدك معي لجلب الحظّ الجيد».

ثم فهمته. لم يكن يستهدف خداعها. بل يخدع نفسه. كان الصبيّ ساذجًا. رائحة لحم الراكون أعادتها إلى الاحتفال فسحبت ذراعها بعيدًا. «لا أريد أن أقتل على يد كونيلى، أو الدوريات، أو الشعابين». كانت كورا ما تزال تفكر في حماقته عندما حصلت على أول طبق من الحساء. الرجل الأبيض يحاول قتلك ببطء كل يوم، وأحيانًا يحاول قتلك بسرعة. لم تجعل الأمر أسهل بالنسبة له؟ كان ذلك شيئًا يجب أن ترفضه.

وجدت لوفي، لكنها لم تسألها عما تهاست به الفتيات حول سيزر وفرانسيس. إذا كان جادًا في خطته، وفرانسيس قد أصبحت أرملة. الحديث الذي دار بينها وسيزر هو أطول حديث خاضته مع أي شاب منذ انتقالها إلى الفرن.

أضاءوا المشاعل لمباراة المصارعة. واكتشف شخص ما كميةً من ويسكي الذرة ونبيد التفاح المخبئة، تمّ توزيعهما في الوقت المناسب لتغذية حماس المتفرجين. بحلول ذلك الوقت، جاء الأزواج الذين يعيشون

في المزارع الأخرى بغرض زياراتهم التي تجري عادة يوم الأحد. ساروا أميالاً، وهو ما يعد وقتاً كافياً للتخيل. بعض الزوجات كن أكثر سعادة بالعلاقات الزوجية المحتملة من غيرهن.

ضحكت لوفي. "كنت لأتصارع معه"، قالت وهي تومئ نحو ميجور. حملق ميجور كما لو أنه سمعها. كان يتحول إلى رجل قوي. يعمل بجهد، ونادراً ما أجبر أرباب العمل على رفع السوط. كان يحترم لوفي بسبب سنه، ولم يكن ليستغرب إذا رتب كونيلى لمضاجعتها ذات يوم. كان الشاب وخصمه يتصارعان فوق العشب. وبد الأمر أقرب إلى التنفيس عن ثورتهم في وجه بعضهما بما أنهما لن يتمكنّا من فعل ذلك أمام من يستحقون ذلك. نظر الأطفال إلى الكبار، ووضعوا رهانات لم يكن لديهم ما يدعم صحتها. كان أولئك الأطفال يعملون حالياً في اقتلاع الأعشاب الضارة وجمع القمامة، لكن في يوم من الأيام سيجعلهم العمل الميداني كباراً مثل الرجال الذين يتصارعون ويركل بعضهم بعضاً فوق العشب.

أحضره، أحضر ذلك الصبي، وعلمه ما يحتاج تعلمه. عندما بدأت الموسيقى وابتدا الرقص، أعرب الجميع عن تقديرهم وامتنانهم لجوكي. فقد اختار اليوم المناسب لعيد ميلاده مرة أخرى. حيث كان يتفق معهم في التوتر المشترك والإدراك الجماعي الذي يتجاوز الوقائع الروتينية لعبوديتهم. بددت الساعات القليلة الماضية كثيراً من الشعور بالمرض. كان بإمكانهم مواجهة الصباح القادم، والصباحات التالية والأيام الطويلة بأرواحهم التي تم تجديدها بهدوء بواسطة ليلة أثرية سيظلون يتذكرونها، وعيد ميلاد مقبل يتطلعون إليه. ومن خلال صنع دائرة تتكون من ذواتهم فصلوا الأرواح البشرية في الداخل عن

الخارج المتدهور.

التقط نوبل دفًا صغيرًا وأخذ ينقر عليه. كان أسرع عامل داخل الحقول، والمحرض على البهجة خارجها؛ وفي هذه الليلة أبرز كل أشكال البراعة: التصفيق، والمرفقين المحتالين، وهزة الوركين. هناك آلات وعازفون لكن في بعض الأحيان يمكن للكمان أو الطبل أن يحوِّلا أولئك الذين يعزفونهما إلى آلات موسيقية، بحيث يصير الجميع عبيدًا للأغنية. كذلك كان الأمر عندما يلتقط جورج وويسلي الكمان والبانجو في الأيام التي يُسرفون فيها في الشرب حتى الثمالة. جلس جوكي على كرسي القيقب، ينقر بقدميه العاريتين التراب. وتقدّم العبيد إلى الأمام ورقصوا.

لم تتحرك كورا. كانت حذرة، ففي بعض الأحيان عندما يتم عزف الموسيقى، قد تجدين نفسك فجأة جوار رجل دون أن تعرفي ما قد يفعله. كل الأجساد تتحرك بحرية. عادة ما يسحبونك، يمسكون بكتا يديك، حتى لو كانوا يفعلون ذلك إنطلاقًا من فكرة لطيفة. ذات مرة في عيد ميلاد جوكي، عزف لهم ويسلي أغنية كان يعرفها من الفترة التي عاش خلالها في الشمال، لحنًا جديدًا لم يسمعه أي منهم من قبل. تجرأت كورا على الانضمام إلى الراقصين واغمضت عينيها ودارت وعندما فتحتهما كان إدوارد هناك، كانت عيناه مضطرمتين. حتى بعد أن مات إدوارد وبوت - مات إدوارد مختنقًا ومات بوت على الأرض بعد أن لدغته الفئران وتحول لونه إلى الأرجواني - انقبضت من فكرة تخفيف كبحها لجماح نفسها. عزف جورج على كمانه، كان اللحن يدور في الليل مثل الشرر المتطاير من النار. ولم يقترّب أحد لسحبها نحو هذا الجنون الحي.

توقفت الموسيقى. انفضت الدائرة. في بعض الأحيان قد تفقد العبدَة صوابها في دَوامة وجيزة من التحرر. في تأثير استغراق مفاجئ بين الثعابين أو أثناء تفكيك أسرار حلم الصباح الباكر. في منتصف أغنية في ليلة أحد دافئة. ثم تأتي، دائمًا، صرخة المشرف، الدعوة إلى العمل، ظلّ السيد، لتذكرها أنها مجرد إنسانة للحظة صغيرة في أبدية عبوديتها.

خرج الأخوان راندال من البيت العظيم وانضمّا إليهم. ابتعد العبيد جانبًا، وهم يحسبون المسافة التي تمثل النسبة الصحيحة من الخوف والاحترام. كان غودفري خادم جيمس يحمل فانوسًا. وفقًا لأبراهام الكبير، فقد كان جيمس يشبه والدته، سمينًا كالبرميل ويمائلها في الهيئة، بينما تأثر تيرانس بالأب، طويل القامة وله وجه يشبه البومة، وكأنه على وشك الانقراض على الفريسة على الدوام. بالإضافة إلى الأرض، ورثًا خياط أبيهما، الذي يصل مرة واحدة في الشهر في عربة متهاكة مع عيّناتٍ من الكتان والقطن. كان الأخوان يرتديان ملابس متشابهة عندما كانا طفلين واستمرا في ذلك في مرحلة النضوج. سراويلهم بيضاء، وقمصانهم نظيفة بقدر ما تمكّنت أيدي فتيات الغسيل من ذلك، والتوهج البرتقالي جعل الرجلين يبدوان وكأنهما شبحين يرتفعان من الظلام.

"سيد جيمس"، قال جوكي. قبضت يده السليمة على ذراع كرسيه كما لو أنه يحاول النهوض، لكنه لم يرتفع. "سيد تيرانس".

"لا تدعنا نزعجك" قال تيرانس. "كنا أنا وأخي نناقش الأعمال وسمعنا الموسيقى. فقلت له، هذه أفضح ضجة سمعتها في حياتي قط!"

كان الأخوان راندال يتناولوا النبيذ بكؤوس من الزجاج، وبدا أنهما شربا بضعة زجاجات. بحثت كورا عن وجه سيزر في الحشد. لم تجده. لم

يكن حاضرًا في آخر مرة ظهر فيها الأخوان معًا في النصف الشمالي. من الجيد تذكر الدروس المختلفة من تلك المناسبات. دائمًا ما يحدث شيء عندما يأتي الأخوان راندال إلى المساكن. عاجلاً أم آجلاً. شيء جديد قادم لا يمكنك التنبؤ به.

ترك جيمس المهام اليومية تحت تصرف رجله كونيلى، ونادرًا ما كان يأتي إلى المزرعة. كان أحيانًا يمنح جولة لزائر أو جارة بارزة أو مزارع غريب من مكان آخر في الغابة، لكن ذلك كان نادرًا. ونادرًا ما كان جيمس يخاطب عبيده، الذين تم تدريبهم بواسطة السوط للقيام بالعمل وتجاهل وجوده. عندما يظهر تيرانس في مزرعة أخيه، كان عادة يُقِيم كل عبد ويكتب ملاحظات حول الرجال الأكثر قوة والنساء الأكثر جاذبية. كان راضيًا بأن ينظر بشغف إلى نسوة أخيه، وكان يرعى بشدة النساء من نصفه. «أحب أن أتذوق برقوقي»، يقول تيرانس وهو يفتح أبواب الأكواخ ليجد من توافق خياله. كان ينتهك أوامر المودّة، فيزور أحيانًا العبيد في ليلة زفافهم ليظهر للزوج السبيل الصحيح للاضطلاع بواجباته الزوجية. لقد ذاق برقوقه، ومزّق الجلد، وترك بصمته.

كان من المقبول أن لجيمس وجهة نظر مختلفة. على عكس والده وشقيقه، فهو لم يستخدم ممتلكاته لإرضاء نفسه. أحيانًا يدعو نساء من المحافظة لتناول الطعام، بينما تحرص أليس دائمًا على إعداد أفضل عشاء باذخ ومغري. توفيت السيدة راندال منذ سنوات عدّة، لكن لطلما اعتقدت أليس أن وجود تلك المرأة في المزرعة كان ليكون وجودًا حضاريًا. لعدة أشهر أحيانًا، يقوم جيمس بالترفيه عن تلك المخلوقات الشاحبة، بينما تعبر عرباتهن البيضاء المسارات الطينية التي تؤدي إلى المنزل الكبير. وتبدأ فتيات المطبخ بالقهقهة والتكهن. ومن ثم تظهر امرأة جديدة.

وبإمكانك أن تستمع لخادمه الفخور وهو يروي أن جيمس يقصر طاقاته الإيروتيكية على غرف متخصصة في مؤسسة في نيو أورليانز. كانت المدام صاحبة ذلك المكان واسعة الذهن وعصريّة، وبارعة في معرفة رغبات الإنسان. كان من الصعب تصديق قصص الخادم، على الرغم من التأكيدات بأنه تلقى تقاريره من موظفي المكان، والذين كانوا أصدقاء له منذ سنين خلت. لكن أي نوع من الرجال البيض سيوافق طوعًا على أن يتم جلده بالسوط؟

حك تيرانس عصاه بالتراب. كانت العصا لوالده، مقبضها على هيئة رأس ذئب فضي. يتذكر كثيرون لدغتها على لحمهم. يقول تيرانس: «بعد ذلك تذكرت أن جيمس أخبرني عن عبد كان موجودًا هنا، باستطاعته قراءة إعلان الاستقلال. لم أستطع تصديقه. وفكرت أنه قد يقرأه لي الليلة، بما أن الجميع منخرطون فيما يحدث هنا الآن كما يبدو».

"سنقوم بتسوية الأمر"، قال جيمس. "أين ذلك الولد؟ مايكل". لم يقل أحد شيئًا. لوح غودفري بالفانوس حوله بيأس. كان موسى هو من يقف بالقرب من الأخوين راندال. سعلَ بتردد وقال: «لقد مات مايكل يا سيد جيمس».

أمر موسى أحد الزنوج بجلب كونيلي، حتى لو كان ذلك يعني مقاطعة المشرف أثناء وجوده مع محظيته يوم الأحد. أنبأ التعبير على وجه جيمس أن على موسى البدء في شرح الأمر.

كان مايكل، العبد المعني، يمتلك بالفعل القدرة على قراءة مقاطع طويلة. وفقًا لكونيلي، الذي سمع القصة من تاجر العبيد، كان سيّد مايكل السابق مفتونًا بقدرات الببغاوات في أمريكا الجنوبية، وفكر أنه

إذا كان بالإمكان تعليم الطيور القصائد الفكاهية، فربما يمكن تعليم العبيد أيضًا. فبمجرد إلقاء نظرة على حجم الجماجم يمكنك أن تعرف أن العبد يمتلك دماغًا أكبر من الطيور.

كان مايكل ابن الحوذني الذي يعمل لدى السيد. كان يملك ذلك النوع من الذكاء الحيواني، النوع الذي قد تراه في الخنازير في بعض الأحيان. بدأ المعلم وتلميذه ببعض القوافي البسيطة والمقاطع القصيرة لبعض الشعراء البريطانيين المحبوبين. كانوا يمزون ببطء على الكلمات التي لم يفهمها العبد، والحق يقال، فالسيد لم يكن يفهم كثيرًا منها أيضًا، لأن معلمه كان شخصًا شرييرًا تم طرده من كل مؤسسة تعليمية لاثقة عُيّن فيها، وقرر أن يجعل منصبه الأخير السبيل للانتقامه السري. لقد صنعًا المعجزات، مُزارع التّبغ ونجل الحوذني. كان إعلان الاستقلال أعظم أعمالهما. "تاريخ من الإصابات المتكررة والتعنت".

لم تتطور قدرات مايكل أبدًا أكثر من حدود خُدع الصّالون، التي هدفها إبهاج الزوّار قبل أن تتحول المناقشة كما يحدث دائمًا إلى شرح للملكات العقلية الضئيلة التي يملكها العبيد. لكن مالكة ملّ الأمر وباع الصبي في الجنوب. بحلول الوقت الذي وصل فيه مايكل إلى مزرعة راندال، كان التعذيب أو العقاب قد أفسد حواسه. كان عاملاً متواضعًا. اشتكى من الضوضاء واللعنات السوداء التي تلتخ ذاكرته. وخلال نوبة غضبٍ دمّر كونيلى ما تبقى من عقله الصغير. كان تعذيبًا لم يكن بمقدور مايكل النجاة منه، وقد حقّق غرضه.

قال جيمس باستياء: «كان ينبغي أن يتمّ إخباري بالأمر». كانت خدعة مايكل تسلية جيّدة في كلا المرتين اللتين جلبه فيهما لتسلية الضيوف. أراد تيرانس أن يغيظ شقيقه. «جيمس»، قال، «تحتاج إلى الحفاظ

على ممتلكاتك بشكل أفضل».

"لا تتدخل".

"كنت أعلم أنك تسمح لعبيدك بالعريضة، لكن لم يكن لدي أي فكرة

بأنك تدعهم يفرطون لهذا الحد. هل تحاول جعلي أبدو سيئًا؟"

"لا تدعي أنك تهتم بما يفكر به العبد حيالك يا تيرانس". كان كأس

جيمس فارغًا. والتفت ليمضي إلى المنزل.

"أغنية أخرى يا جيمس ثم نمضي. لقد بدأت أعتاد هذه الأصوات».

كان جورج وويسلي بأئسين. بينما اختفى نوبل مع كمنجته. ضغط

جيمس على شفثيه. أوما برأسه وبدأ الرجال بالعزف.

طقطق تيرانس بعصاه. اختفى وجهه عندما اختلط بالحشد. «ألن

ترقصوا؟ أصرّ على أن ترقصوا. أنت وأنت وأنت...".

لم ينتظروا إشارة سيدهم. تجمع عبيد النصف الشمالي في الزقاق

بتردد، في محاولة لإعادة أنفسهم إلى إيقاعهم السابق وإتمام العرض.

لم تفقد أفا المتعاسة قدرتها على النفاق منذ أيام مضايقتها لكورا -

كانت تصيح وترقص كما لو كانت تلك ذروة احتفالات عيد الميلاد.

تنظيم عرض للسيد كان مهارة مألوفة، الزوايا الصغيرة ومزايا القناع،

وقد حاولوا التخلص من خوفهم بينما يباشرون الأداء. أوه، كم يثبون

ويصرخون، يصيحون ويتقافزون! بالتأكيد كانت هذه الأغنية الأكثر

حيوية التي سمعوها على الإطلاق، وكان الموسيقيون هم أفضل ما

يأمكن الملونين تقديمهم. سحبت كورا نفسها إلى الدائرة، متفحصة

ردود فعل الأخوين راندال في كل منعطف مثل بقية الأشخاص

الآخرين. وضع جوكي يديه في حضنه لمعرفة الوقت. وجدت كورا وجه

سيزر. كان يقف في ظل المطبخ، وتعايره صارمة. ثم انسحب.

"أنت!"

كان تيرانس . وقد وضع يده أمامه كما لو كان مغطى بوصمة عار أبدية بإمكانه هو فقط رؤيتها . ثم وقع بصر كورا عليها -قطرة واحدة من النبيذ تلتخ طرف كم قميصه الأبيض الجميل . لقد اصطدم به تشيستر . ابتسم تشيستر وانحنى أمام الرجل الأبيض . «عذراً، أيها السيد! آسف، أيها السيد! «تحطمت العصا على كتفه ورأسه، مرارًا وتكرارًا. صرخ الصبي وانكمش على الأرض بينما تنهال الضربات . ارتفع ذراع تيرانس مرارًا . بدا جيمس متعبًا .

انتاب كورا شعور مختلف . شعور لم تخبره منذ سنوات ، منذ أن جلبت الفأس وحطمت بيت الكلب الذي أقامه بليك وتطايرت شظاياها في الهواء . كانت قد رأت رجالًا معلقين في الأشجار ومتروكين للصقور والغربان . نساءً جروحهن مفتوحة حتى العظم بواسطة السوط . أجسادًا حية وميتة تشوى في المحارق . أقدامًا تم تقطيعها لمنعها من الهروب وأيدي قطع لمنعها من السرقة . لقد رأت فتياتًا وفتيات أصغر سنًا من هذا الصبي يتم ضربهم دون سبب . وفي هذه الليلة استقر ذلك الشعور في قلبها مرة أخرى . تمكن منها ذلك الشعور ، واختلط الجزء العبيدي من روحها بالجزء البشري منها ، انحنى فوق جسد الصبي كدرع . أمسكت العصا في يدها مثل رجل مستنقع يتقاتل مع ثعبان ، ورأت الزخرفة على طرفها . أظهر الذئب الفضي أسنانه الفضية . ثم جُذبت العصا من يدها . ونزلت على رأسها . توالى ضربات العصا مرة أخرى ، وفي هذه المرة تمزقت الأسنان الفضية عبر عينيها وانتشر دمها على الأرض .

كانت هناك سبع نساء في الفرن خلال ذلك العام. أقدمهن ماري. جاءت إلى الفرن بسبب النوبات المتكررة التي تتعرض لها. فأحياناً تُخرج رغبة من فمها مثل كلب مسعور، وتتلوى في التراب بعيون مُحملقة. استمرت تتشاجر سنواتٍ طويلة مع امرأة تُدعى بيرثا، أَلقت عليها لعنة. قال أبراهام الكبير أن محنة ماري تعود لأيام صغرها، دون أن يستمع إليه أحد. على كلِّ، لم تشبه النوبات الحالية تلك التي عانت منها في شبابه. فقد كانت تستفيق مضطربة وخاملة، الشيء الذي يقود إلى عقوبات على العمل المنقوص، لتتسبب فترة التعافي من العقوبات إلى المزيد من العمل المنقوص. حالما يصير مزاج أرباب العمل ضدك، قد يتحول الباقون ضدك أيضاً. ولذلك نقلت ماري أغراضها إلى الفرن لتجنُّب ازدراء زملائها في الأكواخ. جَرَّت قدميها على طول الطريق كما لو أنها تنتظر من شخص ما أن يوقفها.

عملت ماري في بيت الحليب مع مارغريت وريدا. قبل أن يتاعهما جيمس راندال كانتا تعانيان من فكرة أنهما لن تتمكننا من دمج نفسيهما في نسيج المزرعة. كانت مارغريت تطلق أصواتاً فظيعة من حلقها في لحظات غير مناسبة، أصوات حيوانية، وتستمر في قول الكلمات المبتذلة. وعندما كان السيد يقوم بجولاته، كانت تبقي يدها

على فمها، لئلا تسترعي الانتباه إلى مصيبتها. كانت ريدا غير مبالية بالنظافة ولم يكن هناك أي تحريض أو تهديد يمكن أن يؤثر عليها. رائحتها كريهة دوماً.

لوسي وتيتانيا لم تتحدثا أبداً، الأولى بسبب أنها اختارت عدم الكلام والأخيرة لأن لسانها قطعه مالك سابق. كانتا تعملان في المطبخ تحت إشراف أليس التي فضلت المساعدين الذين لا يميلون إلى الثثرة طوال اليوم، وذلك كي تسمع صوتها الخاص بشكل أفضل.

انتحرت امرأتان من بقيتهن خلال ذلك الربيع، كان الأمر يفوق المعتاد لكنه لم يكن شيئاً ملحوظاً. لا أحد يسكن في الفرن ويتم تذكره، لأنهم لا يتركون بصمات. تبقت ناغ وكورا اللتان كانتا تميلان إلى العمل على محاصيل القطن في جميع المراحل.

في نهاية يوم العمل ترنحت كورا وهرعت ناغ لمساعدتها. قامت بأخذ كورا إلى الفرن. حملق المدير في مشيتهما البطيئة خارج الحقل لكنه لم يقل شيئاً. جنون كورا الواضح أراحها من التوبيخ العارض. عبرتا إلى جانب سيزر، كان يتسكع بجانب واحدة من حظائر العمل مع مجموعة من الشباب، ينحت قطعة من الخشب بسكينه. تجنبت كورا عينيه وأدارت وجهها، كما كانت تفعل دائماً منذ أن أخبرها باقتراحه.

بعد مرور أسبوعين من عيد ميلاد جوكي كانت كورا ما تزال تتعافى. الضربات على وجهها تركت إحدى عينها متورمة وأدت إلى إصابة جسيمة في صدغها. اختفى التورم، لكن القيلة التي طبعها الذئب الفضي صارت الآن ندبة محزنة على شكل (X). ظلت تنزف عدة أيام. كان هذا نصيبها من ليلة عيد الميلاد. الأسوأ من ذلك بكثير كان جلد كونيلي لها في صباح اليوم التالي تحت الأغصان القاسية للشجرة

المخصّصة لعِقاب الجَلْد.

كونيلي كان واحدًا من أوائل الذين عملوا لدى راندال الأب. حافظ جيمس على الرّجل تحت قيادته. عندما كانت كورا صغيرة، كان شعر المشرف الأحمر الأيرلندي يتلوّى تحت قُبُعته القشّيّة مثل أجنحة طائر الكاردينال. في تلك الأيام كان يقوم بدوريات وهو يحمل مظلة سوداء، لكن في نهاية المطاف استسلم، ولأنّ فإن بلوزاته البيضاء تلتصق دومًا على جلده المسفوع. مع الوقت تحول شعره إلى اللون الأبيض وامتدت كرشه فوق حزامه، لكن وبصرف النظر عن ذلك كان هو الرجل نفسه الذي جلد جدّتها ووالدتها. كان يتجول في القرية بمشية غير متوازنة تذكّرها بالثور العجوز. لم يكن بالإمكان استعجاله إذا لم يختر هو ذلك. الوقت الوحيد الذي يستعجل فيه كان عندما يمسك بسوطه.

حينها يُظهر طاقة ومشاعبة الطفل عندما يتعلم لعبةً جديدة.

لم يُسرّ المشرف لما حدث خلال زيارة الأخوة راندال المفاجئة. أولاً، تمت مقاطعة كونيلي وهو يقضي لحظات سعادته مع غلوريا، بغيّته الحالية. نهض من السرير وجلد الرسول. ثانيًا، كانت هناك مسألة مايكل. لم يُخطر كونيلي جيمس بخسارة مايكل لأن صاحب عمله لم يزرع قط من التقلبات الروتينية في الأيدي العاملة، لكن فضول تيرانس جعل الأمر مشكلة.

ثم كانت هناك مسألة حماقة تشيستر وتصرف كورا غير المفهوم. قام كونيلي بتجريدتهما من ملابسهما وجلدهما في الصباح التالي. بدأ بتشيستر، لتتبع الترتيب الذي وقعت به التجاوزات، وأمر بأن تغسل ظهورهم المدماة بماء الفلفل بعد ذلك. كان أول جلد حقيقيّ يتلقاه تشيستر، وأول جلد تتلقاه كورا خلال نصف عام. واصل كونيلي

جلدهما في الصباحين المقبلين. وفقًا للعبيد الذين يعملون في المنزل، فقد كان السيد جيمس مستاءً أكثر من أن شقيقه قد لمس ممتلكاته أمام كثير من الشهود، لكنه كان غاضبًا أيضًا من تشيستر وكورا. وهكذا كان العبد الأكبر من غضب شقيق تجاه شقيقه تتحمّله الممتلكات. لم يتحدث تشيستر مع كورا مرة أخرى.

ساعتدت ناغ كورا على صعود درجات الفرن. وما إن دخلت الكوخ حتى انهارت كورا بعد أن صارت بعيدة عن أنظار بقية القرية. «دعيني أعدّ لك عشاءً»، قالت ناغ. مثل كورا، كانت ناغ قد نُقلت إلى الفرن بسبب سياسات معينة. لسنوات كانت المفضلة لدى كونيلي، كانت تقضي معظم الليالي في سريره. كانت ناغ متغطرة بالنسبة لفتاة زنجية حتى قبل أن تصبح المفضلة لدى المشرف، بعينها الرماديتين الشاحبتين ووركها الملتقيين، فأصبحت لا تطاق. كانت والدتها تعاشر دائمًا الرجال البيض وتعلّم ناغ الممارسات الفاسقة. وظلّت عازمة على التفاني في هذه المهمة حتى عندما كانوا يُبادلون أطفالها بالعمّال. كان النصفين الشمالي والجنوبي من مزرعة راندال يتبادلان العبيد طوال الوقت، يتبادلان فيما بينهم العبيد المقهورين، والعمّال الكسالي، والأنذال، في لعبة غير منهجية.

كان أطفال ناغ مميزين. ولم يحتمل كونيلي رؤية أطفاله الخلاسين غير الشرعيين وشعرهم المجعد يتوهج باللون الأحمر الإيرلندي في ضوء الشمس. وذات صباح أعلن كونيلي بوضوح أنه لم يعد يريد ناغ في سريره. كان ذلك اليوم الذي انتظره أعداؤها. كان الجميع باستثناءها يعلم أن هذا اليوم سيأتي. عادت من الحقول لتجد ممتلكاتها نُقلت إلى الفرن، ما يعني فقدان وضعها المختلف في القرية. أشبعهم عارها شبعًا

ليس بمقدور أيّ طعام أن يفعله. لقد زادها الفرن صلابة، لأن ذلك ما كان يفعله بنزلائه. كان الفرن يقوم بتحديد شخصيتك.

لم تكن ناغ مقرّبة من والدة كورا لكن ذلك لم يمنعها من مصادقة الفتاة عندما أبعدت. بعد ليلة عيد الميلاد وفي الأيام الدموية التالية كانت هي وماري تقومان برعاية كورا، ووضع المحلول الملحي على جلدها الممزق والتأكد من تناولها الطعام. كانوا يهددهونها ويغنون تهويدات لأطفالهن المفقودين من خلالها. لوفي أيضًا زارت صديقتها، لكنها سمعت عن شُمة الفرن وكانت فزعة في وجود ناغ وماري والأخريات. ومع ذلك ظلّت هناك حتى خانتها أعصابها.

استلقت كورا على الأرض وهي تننّ. بعد أسبوعين من ضربها، تحمّلت نوبات الدوار والصداع في جمجمتها. في معظم الأحيان كانت قادرة على التحكم بالألام ووضعها جانبًا وهي تعمل بين صفوف المزارعين، لكن في أحيانٍ أخرى كان كل ما تستطيع القيام به هو البقاء مستقيمة حتى تغرب الشمس. كلّ ساعة عندما تجلب فتاة المياه المغرّفة كانت تشرب حصّتها وتشعر بالمعدن على أسنانها. الآن لم يتبق لها شيء.

ظهرت ماري. سألتها، «أتشعرين بالمرض مجددًا». كانت تمسك بقطعة قماش مبلولة ووضعها على صدغ كورا. كانت ما تزال تحتفظ بذخيرة من الشعور الأمومي بعد فقدان أطفالها الخمسة - ثلاثة ماتوا قبل أن يتمكنوا من المشي، والآخرين بيعا عندما صارا في عمر يسمح لهما بنقل المياه واقتلاع الأعشاب الضارة حول البيت العظيم. تنحدر ماري من قبيلة الآشانتي، وكذلك زوجها الاثنين. الجراء كتلك التي أنجبتها لا تأخذ كثيرًا من الوقت لبيعها. حرّكت كورا فمها بشُكرٍ صامت. انضغطت جدران الفرن عليها. في الدور العلوي إحدى النساء

الأخريات -ريدا ذات الرائحة الكريهة - كانت تخبط بعنف. قامت ناغ بنزع الأربطة عن يد كورا.

"لا اعرف ما هو اسوأ" قالت. «أن تكوني مريضة وبعيدة عن الأنظار أو أن تكوني في الخارج عندما يأتي السيّد تيرانس غدًا».

أرقت احتمالية زيارته كورا. كان جيمس راندال طريح الفراش. فقد مرض بعد رحلة إلى نيو أورليانز للتفاوض مع وفد من وكلاء التجارة من ليفربول ولزيارة ملاذه المشين. أغمى عليه في عربته عند عودته، وظل بعيدًا عن الأنظار منذ ذلك الحين. الآن جاءت الأخبار من العاملين في المنزل أن تيرانس سيتولى إدارة الأمور بينما يتماثل شقيقه للشفاء. وفي الصباح، سيقوم بتفقد النصف الشمالي لجعل الأمور تتم بالكيفية نفسها التي تحدّث في النصف الجنوبي.

لم يشك أحد في أن ذلك الأمر سيكون دمويًا. انسحبت يدا صديقتها بعيدًا وتخلت الجدران عن ضغطها وأغمى عليها. استيقظت كورا في منتصف الليل لتجد رأسها موضوعًا على بطانية. بينما الجميع نائم في الأعلى. فركت التّدة على صدغها. بدا وكأنها تنزف. كانت تعرف لماذا هرعت لحماية تشيستر. لكنها كانت محبطة عندما حاولت تذكر الحاجة الملحة في تلك اللحظة، وبذرة الشعور الذي تملكها. والذي تراجع إلى زاوية غامضة من حيث نبت في روحها وليس بإمكانها إرجاعه. لتخفيف قلقها خرجت إلى أرضها وجلست على كتلة القيقب السكري تشم رائحة الهواء وتنصت للنسيم. كانت الأشياء في الأراضي السبخة تصفر وتتناثر، تصطاد في الظلام الحيّ. فكرت في أن تهرب إلى هناك ليلاً، وتتجه شمالًا إلى الولايات الحرة. يجب أن تأخذ إجازة من حواسها لتقوم بذلك.

غير أن والدتها قامت به فعلاً.

كما لو أنها أرادت أن تُعارض أجاري التي لم تغادر أراضي راندال منذ أول مرة وصلتها، لم تكن مابل قد تركت المزارع من قبل إلا في يوم هروبها. لم تقدّم أي إشارة لنواياها، على الأقل لأي شخص قد يعترف بهذا الأمر في إطار الاستجوابات اللاحقة. لم يكن ذلك عملاً بطوليًا في قرية تعجّ بالغادرين والمُخبرين الذين يبيعون أعزّ الناس للانفلات من لدغة السوط.

كانت تلك آخر مرة تنام فيها كورا في حجر والدتها ولم ترها مرة أخرى. أطلق راندال الكبير ناقوس الخطر واستدعى الدوريات. وفي غضون ساعة، نزل فريق الصيد إلى الأراضي السبخة، خلف كلاب نيت كيتشوم. كان الأخير ينحدر من خط طويل من المتخصصين، كانت ملكة اصطيد العبيد تجري في دم كيتشوم. وكانت كلاب صيده تنحدر من سلالة طويلة تصطاد العبيد في جميع أنحاء المقاطعات، تمضغ وتشوه عديدًا من الأيدي الضالة. وعندما تبدأ تلك المخلوقات المتوحشة تثور داخل أطواقها الجلدية وتنش حوافرها في الهواء، يجعل نباحها كل روح في المزرعة ترغب في الهرب إلى كوخها. لكن يوم العمل كان ما يزال ماثلاً أمام أولئك العبيد، فعكفوا على أعمالهم، وتحملوا ضجيج الكلاب الرهيب ورؤى الدم القادم.

تم تعميم المنشورات لمئات الأميال عن زوج هاربين خلال الغابة وتطرقت المعلومات إلى شركاء محتملين. قامت الدوريات بمضايقة وتخويف الجميع. وقد تم تفتيش جميع أكواخ المزارع المجاورة خلال عملية بحث دقيقة تعرّض خلالها عددٌ كبير من العبيد للضرب. لكن

الكلاب لم تعثر على شيء، وكذلك أسيادها.

احتفظ راندال بخدمات ساحرة ضربت جِرْزًا على ممتلكاته بحيث لا يمكن لأحد يتبع للدم الأفريقي الهرب دون أن يُصاب بالشلل البغيض. دفنت الساحرة الوثن في أماكن سرية، أخذت مالها، وغادرت في عربة يجرها بغل. كان هناك نقاش جدي في القرية حول اللعنة. هل تعمل اللعنة على أولئك الذين لديهم نية للهرب أم على كل الأشخاص الملونين الذين يتجاوزون الخط؟ مر أسبوع قبل أن يعاود العبيد الاصطياد في الأراضي السبخة مرة أخرى. كان ذلك هو المكان الذي يوجد فيه الطعام.

لم تكن هناك أي علامة على وجود مابل. لم يهرب أحد من مزرعة راندال من قبل. دائمًا ما أعيد الهاربون مجددًا، بسبب خيانة من قبل الأصدقاء، أو إساءة قراءة النجوم والركض أعمق في متاهة العبودية. وعند عودتهم، كانوا يتعرضون للاعتداء الوحشي قبل أن يُسمح لهم بالموت، وأولئك الذين يتركون كانوا يجبرون على مراقبة المزايا الرهيبة لزوالهم. تم طلب صائد العبيد سيئ السمعة ريدجواي للمزرعة بعد أسبوع. وقد امتطى الخيل مع شركائه، خمسة رجال ذوي سحن قدرة، يقودهم كشاف هندي مخيف يرتدي قلادة مصنوعة من آذان مجعّدة. كان طول ريدجواي يبلغ ستة أقدام ونصف، وجهه مربع ورقبته سميقة كالمطرقة. كان يحافظ على تعبير هادئ في الأوقات جميعها لكنه يخلق جوًا تهديديًا، مثل الرعد الذي يبدو بعيدًا ويقترّب فجأة بعنف كبير.

استمرّ استجواب ريدجواي نصف ساعة. دوّن الملاحظات في مذكرة صغيرة، وكان جميع من في المنزل يتحدث حول إته رجل ذا تركيز عالٍ

وطريقة منمّقة في الكلام. لم يعد مُدّة عامين، قبل فترة قليلة من وفاة راندال الأب، للاعتذار شخصيًا عن فشله. كان الهنديّ قد توفي، لكن حل محله مستكشف شاب شعره أسود طويل ويرتدي حلقة مماثلة من الجوائز فوق سترته. كان ريدجواي في المنطقة لزيارة مزرعة مجاورة، ليقدم الدليل على إمساكه اثنين من الفازين، والَّذين كانا عبارة عن رأسين موضوعين في كيس من الجلد. عبور حدود الولاية كان جريمة كبيرة في جورجيا؛ وأحيانًا يفضّل السيّد دليلاً على عودة ممتلكاته. أطلقه صياد العبيد على شائعات عن فرع جديد من خَط السّكك الحديدية السريّة، تحت الأرض، يعمل في الجزء الجنوبي من الولاية. وقد بدا الأمر مستحيلًا بحيث أن العجوز راندال سخر من الأمر. سوف يتم معاقبة المتعاطفين وتغطيتهم بالغار والريش، أكد ريدجواي لمضيفه. أو أيّا كان العُرف المحلّي الذي يُرضيه. اعتذر ريدجواي مرة أخرى وغادر المكان، وسرعان ما تحرّكت عصابته إلى طريق المقاطعة نحو مهمّتهم المُقبلة. لم تكن هناك نهاية لعملهم، كان نهر العبيد يحتاج إلى أن يتم دفعه من مخابئه وتقديمه إلى الرجل الأبيض.

كانت مابل جاهزة لمغامرتها بمنجل، حجر قداحة، ومادة سريعة الاشتعال. سرقت حذاء رفيقتها في السكن، والذي كان أفضل من حذاءها. لأسابيع، كانت أرضها الفارغة شاهدة على معجزتها. قبل أن تهرب قطفت كل البطاطا في أرضها، حمولة مرهقة لرحلة تتطلب معدة مليئة. كانت الحفر على التراب تذكريًا لجميع الذين مروا من خلال أرضها. ثم ذات صباح تم ردم الأرض وتسويتها. فقد قررت كورا أن تزرعها مجددًا. كان ذلك ميراثها.

الآن في ضوء القمر الخافت، وبينما رأسها يئن، وهي تجلس هناك، قامت كورا بتقييم حديقتها الصغيرة: الأعشاب الضارة، السوسن، آثار أقدام المخلوقات. كانت قد أهملت أرضها منذ يوم عيد الميلاد. وقد حان الوقت للعودة إليها.

جاءت زيارة تيرانس في اليوم التالي خالية من الأحداث عدا لحظة مزعجة واحدة. أخذه كونيلى في جولة خلال أرض شقيقه، لأن عدة سنوات كانت قد مضت منذ آخر مرّة قام فيها تيرانس بجولة كاملة. كان أسلوبه متحضراً بشكل غير متوقع بالكامل، ولم يطلق تصريحاته التهمكية المعتادة. ناقشوا أرقام العام الماضي، ودرسوا دفاتر الحسابات التي تحتوي حسابات سبتمبر الماضي. أعرب تيرانس عن انزعاجه من خطّ المُشرف غير المقروء، لكن وبصرف النظر عن هذا الأمر فقد اتفق الرجلان بشكل ودي. لم يقوما بتفتيش مساكن العبيد أو التجوال في القرية.

تجوّلا عبر المزرعة وهما يمتطيان الخيول، لمقارنة التقدم المحرز في الحصاد على كلا النصفين. عندما مر تيرانس وكونيلى خلال صفوف القطن، ضاعف العبيد جهودهم في موجة شرسة. كانت أيديهم تنتزع الأعشاب، تخفض المعاول في الأخاديد. كانت سيقان النباتات قد بلغت أكتاف كورا، تنثني وتتمايل، والأوراق النامية تكبر كل صباح. في الشهر المقبل سوف تنفجر البذور إلى البياض. صلّت كي تكون النباتات طويلة بما يكفي لإخفائها عندما يمر الرجال البيض. رأت ظهورهم بينما مروا إلى جانبها. ثم التفت تيرانس. هزّ رأسه، لمسها برّفيّ بعصاه، وأكمل طريقه. توفيّ جيمس بعد يومين. وقال الطبيب أنه عانى مشكلة في الكلى.

لم يستطع سكان مزرعة راندال القدامى منع أنفسهم من المقارنة بين جنازِو الأب والابن. كان راندال الأب عضوًا بارزًا في مجتمع المزارع. أما الآن فقد استرعى المزارعون في الغرب كل الاهتمام، لكن راندال الأب وإخوته كانوا الرؤاد الحقيقيين، وقد صنع لنفسه حياة في رطوبة جورجيا الجحيمية عبر تلك السنوات. اعتبره زملاؤه المزارعين ذا بصرية ثاقبة لكونه الأول في المنطقة الذي استبدل محصوله بزراعة القطن، ما أدى إلى نتائج مُربحة. كان عديد من المزارعين الشباب المثقلين بالديون البنكيّة يأتون إلى راندال الأب للحصول على المشورة - المشورة التي يقدمها بحريّة وسخاء - والتي حققت انتشارًا لا مثيل له في وقتها. حصل العبيد على وقت لحضور جنازة راندال العجوز. كانوا يقفون في هدوء بينما يقدم جميع الرجال والنساء البيض احترامهم للأب الحبيب. كان عبيد المنزل هم حاملِي التّعش، ما اعتبره الجميع فضيحة في البداية، لكن وبمزيد من التفحص أخذَ كمؤشّر على المودة الحقيقيّة، مودّة لا بدّ اختباروها بالفعل مع عبيدهم، مع الأمّهات اللواتي رضعوا أثناءهن خلال طفولتهم والخادمات اللاتي كانت أيديهن تنزلق تحت الماء والصابون في وقت الاستحمام. في نهاية المراسم بدأ المطر. وضع هذا الأمر نهاية لما تبقى من اليوم، لكن الجميع كانوا يحسون بالراحة لأن الجفاف قد طال أمدّه. وكان القطن عطشًا.

بحلول الوقت الذي توفي فيه جيمس كان أبناء راندال قد قطعوا علاقاتهم الاجتماعية مع أقران والدهم وأبناءهم. كان لجيمس عديد من الشركاء التجاريين على الورق، بعضهم كان قد التقى بهم شخصيًا، لكن كان لديه عدد قليل من الأصدقاء. إلى حد ما، شقيق تيرانس لم يتلقَ قط الجزء البشريّ من المشاعر. لذلك فقد كان ضيوف جنازته

قليلين. عمل العبيد في الحقول يومها - مع اقتراب الحصاد لم يكن هناك وقت لحضور الجنازة. قال تيرانس أنه تم توضيح ذلك في وصيته. دُفن جيمس بالقرب من والديه في زاوية هادئة اقتطعت من مساحات أراضيهم الوفيرة، بجانب كليي والده الدرواس والديموستينس، الذين كانا محبوبين من قبل الجميع، من قِبَل الرّجل والعبد على حد سواء، حتى لو كانوا لا يستطيعون الابتعاد عن الدجاج.

سافر تيرانس إلى نيو أورليانز لمتابعة شؤون شقيقه في تجارة القطن. على الرغم من أنه لم يكن هناك وقت مناسب للهرب، إلا أن تويي تيرانس إدارة كلا نصفي المزرعة خلق نقاشات جيدة. كان المقيمون في النصف الشمالي دائماً ما يستمتعون بمناخهم الأسهل. كان جيمس قاسياً ومتوحشاً مثل أيّ رجل أبيض لكنه كان الصورة الأكثر اعتدالاً مقارنة بشقيقه الأصغر.

كانت قصص النصف الجنوبي تقشعر لها الأبدان، في حجمها إن لم يكن في تفاصيلها. اغتنم بيغ أنتوني الفرصة. لم يكن بيغ أنتوني الرجل الأكثر ذكاء في القرية، لكن لا أحد يستطيع أن يقول إنه يفتقر إلى الشعور بالفرصة. كانت تلك أوّل محاولة للهرب بعد التي قامت بها مابل.

تحدّى لعنة الساحرة دون وقوع أي حادث، وقطع ستة وعشرين ميلاً قبل أن يتم اكتشافه حين أخذ غفوة في هايلوفت. أعاده مجتدان في قفص حديديّ صنعه أحد أبناء عمومته. «حاول أن تطير مثل طائر، أنت تستحق قفص العصافير!» كان هناك مكان لكتابة اسم المقبوض عليه في الجزء الأمامي من القفص، لكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء استخدامه. وأخذوا القفص معهم عندما غادروا.

عشيّة ليلة عقاب بيغ أنتوني - كان يتم إدماج بعض الأداء المسرحي كلما

أوقف الرجال البيض العقاب - زار سيزر الفرن. وأدخلته ماري. كانت محتارة. زوّار قليلون جدًا يأتون إلى هذا المكان، والرجال الذين يأتون إلى هناك هم فقط من أرباب العمل حينما يحملون الأخبار السيئة. لم تخبر كورا أحدًا عن اقتراح الشاب. كان الدور العلويّ مليئًا بنسوة نائمات وأخريات يسترقن السمع. وضعت كورا ما كانت تُصلحه على الأرض وأخذت الفتى خارجًا.

بني راندال العجوز مبنيّ عبارة عن مدرسة لأبنائه وأحفاده الذين كان يأمل في الحصول عليهم ذات يوم. كان من غير المرجّح أن تحقّق تلك المدرسة هدفها في وقت قريب. فمنذ أن أنهى أبناء راندال تعليمهم، كان ذلك المبني يُستخدم فقط للمهام وتلقّي الدروس المختلفة. رأت لوفي سيزر وكورا يسيران نحو ذلك المبني، وكانت كورا تهز رأسها لصديقها. بدت رائحة مبني المدرسة المتهالكة غريبة. فقد جعلت الحيوانات الصغيرة من المكان مسكنًا لها. تمت إزالة الكراسي والطاولات قبل وقت طويل، ما أفسح المجال لأوراق الأشجار الميتة والعناكب. تساءلت عمّا إذا كان قد أحضر فرانسيس إلى هنا عندما كانا معًا، وعمّا فعلاه. كان سيزر قد رأى كورا تتجرّد من ملابسها يوم جلدها، والدم ينسكب على جلدها.

قام سيزر بفحص النافذة وقال: «أنا آسف لما حدث لك».

"هذا ما يفعلونه"، قالت كورا.

قبل أسبوعين كانت قد حكمت عليه بأنه أحمق. في هذه الليلة أكد على أنه أكثر حكمة من سنوات عمره، مثل واحد من أولئك الحكماء القدامى الذين يروون لك قصة لا تفهم مغزاها الحقيقي إلا بعد مرور

أيام أو أسابيع، عندما يصبح تجنّب الوقائع مستحيلًا.
"هل ستأتين معي الآن؟" قال سيزر. "كنت أفكر أن وقت الرحيل قد
حان".

لم تتمكن من فهمه. خلال صباحات جلدها الثلاث، كان سيزر يقف في
مقدّمة الحشد. كان من المعتاد أن يشهد العبيد إساءة معاملة إخوتهم
كتدبير أخلاقي. لكن في مرحلة ما خلال العرض كان على الجميع أن
يهربوا، ولو لفترة من الوقت فقط، لأنهم يحسّون بالآلام أولئك العبيد
 ويفكرون أنه عاجلاً أو آجلاً سيأتي دورهم لتلقي العقاب. كان العبد
يفكر أنه هو من يتلقى العقاب هناك حتى وإن لم يكن. لكن سيزر لم
يتراجع. لم يحاول النظر إلى عينيها لكنه كان ينظر إلى شيء وراءها،
شيء عظيم يصعب فعله.

قالت: «أنت تعتقد أنني تميمة حظ لأن ما بل تمكنت من الفرار. لكّتي
لست كذلك. لقد رأيتني وأنا أجلّد. ولقد رأيت ما يحدث عندما تضع
فكرةً مثل تلك في رأسك».

لم يتأثر سيزر. «سوف تصبح الأمور سيئة عندما يعود».

"إنها سيئة الآن"، قالت كورا. «ولطالما كانت كذلك». تركته هناك.

الدعامات الجديدة التي طلبها تيرانس أوضحت أسباب تأخر عقاب
بيغ أنتوني. قام عمّال الأخشاب بتصنيعها طوال الليل لتركيب القيود،
وتزيينها بتؤدة بالنقوش. المينوتور، وحوريات البحر، وغيرها من
المخلوقات الرائعة الأخرى نُحِتت على الخشب. تم تركيب الدعائم
على المرج الأمامي في العشب الخصب. كانت يدا بيغ أنتوني مربوطين
بقيود كبيرة وظل معلقًا هناك طوال اليوم الأول.

في اليوم الثاني وصلت مجموعة من الزوار في عربة، شخصيات مهمة

من أتلانتا وسافانا. سيدات وسادة متفاخرون التقى بهم تيرانس خلال رحلاته، وكذلك صحفيّ بريطاني جاء لتقديم تقرير عن المشهد الأمريكي. أكلوا على طاولة وضعت على العشب، وتذوّقوا حساء السلاحف الذي تعدّه أليس وتناولوا لحم الضأن، وأثنوا على الطاهية التي لن تعرف ذلك أبدًا. كان بيغ أنتوني يجلد خلال تناول وجبتهم، وكانوا يأكلون ببطء. كان الصحفي البريطاني يخربش على الورق بين لُقمةٍ وأخرى. حلّ موعد تقديم الحلويات وانتقل الضيوف إلى الداخل لبيتعدوا عن الباعوض بينما استمرّ عقاب بيغ أنتوني.

في اليوم الثالث، وبعد الغداء مباشرة، تمّ استدعاء العمّال من الحقول، وعاملات الغسيل والطباخين وعاملي الإسطبل، وأوقفت أعمال موظفي المنزل. جُمع الكُل في الحديقة الأمامية. كان زوّار راندال يرشفون شراب الرّم المتبل بينما يغلي بيغ أنتوني في الزيت المحمص. كان الشهود قد سمعوا صراخه في اليوم الأوّل حين قُطعت رجولتيته وحُشرت في فمه، وخيطة داخله. كانت الدعامات تصدر دخانًا، تتفحم، تحترق، والأشكال التي تم نحتها على الخشب تشتعل كما لو أنها على قيد الحياة.

خاطب تيرانس عبّيد النصفين، الشمالي والجنوبي. هناك مزرعة واحدة الآن متّحدة في الغرض والمنهج. وأعرب عن حزنه لوفاة شقيقه وأن عزاءه يكمن في معرفته أن جيمس في السماء رفقة أمهما وأبيهما. كان يسير بين عبّيده بينما يتحدّث، ويقرّع بعضاه، يفرك رؤوس الأطفال ويربت على بعض كبار السن من النصف الجنوبي. فحص أسنان شابّ لم يسبق له أن رآه من قبل، ووسّع فكّ الصبيّ للحصول على نظرة أفضل، ثم أوماً بموافقة. وقال إنه من أجل تغذية الطلب العالميّ

على السلع القطنية، ستزداد الحصّة اليومية لكل عامل بنسبة مئوية تحددها أرقامهم من الحصاد السابق. سيتم إعادة تنظيم الحقول لاستيعاب عدد أكثر من الأكواخ. ثمّ سار. وصفع رجلاً على وجهه لبكاءه على ما يحدث لصديقه المعلق على الدعامات.

عندما وصل تيرانس إلى كورا، أدخل يده في قميصها وأمسك ثديها. ضغط عليه. لكنها لم تتحرّك. لم يتحرّك أحد منذ بداية خطبته، ولا حتى أقفلوا أنوفهم لإبعاد رائحة تحمّص لحم بيغ أنتوني.

أخبرهم أنّه لا مزيد من الأعياد عدا عيدَي الميلاد والفصح. وأنه سوف يرتّب ويوافق على جميع الزيجات شخصياً لضمان الملاءمة وجودة النسل. وأضاف ضريبةً جديدةً على العمل خارج المزارع يوم الأحد. أوماً لكورا بينما استمرّ في نزهته بين أفارقتة وهو يكشف لهم عن التحسينات التي سيقوم بها.

أنهى تيرانس خطبته. كان من المفهوم أن العبيد سيقون هناك حتى يأمرهم كونيلى بالانصراف. جدّدت السيّدات المدعوات كؤوس شراهن. فتح الصحفي البريطاني مذكرات جديدة واستأنف تدوينه. انضمّ السيد تيرانس إلى ضيوفه وذهبوا جميعاً للقيام بجولة في حقول القطن.

لم تكن ملكه، والآن صارت كذلك. أو أنها كانت على الدوام ملكه، وعُرف الأمر الآن فقط. انتباه كورا حرّز ذاتها. وأبحرت نحو مكان يتجاوز العبد المحترق، البيت العظيم، والحدود الفاصلة لأملاك راندال. كانت تحاول أن تملأ تفاصيل ذلك المكان من القصص التي تناقلها العبيد الذين رأوه. في كل مرة تتمكن فيها من الإمساك بشيء – المياني ذات الحجر الأبيض المصقول، المحيط الشاسع جدّاً بحيث لا

ترى أي شجرة في الأفق، متجر الحداد الملون الذي لا يخدم أي سيّد
سوى سيّده - يتحرّر من يديها مثل الأسماك ويسبح بعيدًا. كان عليها
أن ترى كل تلك الأشياء بنفسها إذا كانت تريد الاحتفاظ بذكريات ما.

من الذي بإمكانها أن تخبره بالأمر؟ لوفي وناغ كانتا موضع ثقتهما، لكنها تخشى من انتقام تيرانس منهما. من الأفضل أن يجهلا الأمر بحق كي يتم تصديقهن. لا، الشخص الوحيد الذي يمكن أن تناقش الخطة معه كان هو نفسه من اقترحها.

أخبرته بالأمر في اليوم نفسه الذي ألقى فيه تيرانس خطبته، فتصرف كما لو كانت قد وافقت على اقتراحه منذ وقت طويل. كان سيزر يختلف عن أي رجل ملون عرفته من قبل. وُلد في مزرعة صغيرة في فرجينيا تملكها أرملة عجوز. كانت السيدة غارنر، الأرملة، تستمتع بالخبز، والتعقيدات اليومية لأحواض زهورها، وتشغل نفسها ببعض الأمور الصغيرة الأخرى. أما سيزر ووالده فيهتمان بالزراعة والاسطبلات، ووالدته بالشؤون الداخلية. كانوا يزرعون محصولاً متواضعاً من الخضروات لبيعها في المدينة. عاشت عائلته في كوخ خاص يتكوّن من غرفتين يقع في الجزء الخلفي من ملكية الأرملة. قاموا بطلاء الكوخ باللون الأبيض وزينوه بالشراشف، تماماً مثل منزل شخص أبيض رآته والدته ذات مرة.

لم ترغب السيدة غارنر في شيء أكثر من قضاء سنواتها الأخيرة في راحة. ولم تتفق مع الحجج الشعبية المتداولة حول الرق، لكنها رأت

أنه شر لا بد منه نظرًا للعيوب الفكرية الواضحة للقبائل الأفريقية. بحيث سيكون تحريرهم من العبودية بشكل كامل كارثيًا. كيف سيتمكنون من إدارة شؤونهم دون عين حريصة وصبورة لتوجيههم؟ ساعدت السيدة غارنر بطريقتها الخاصة، وعلمت عبيدها الحروف حتى يتمكنوا من قراءة كلمة الرب بأعينهم. كانت ليبرالية فيما يتعلق بأذونات الخروج، فهي تسمح لسيزر وعائلته بالتجول بحرية في جميع أنحاء المقاطعة. في نظرها، كانت تُعدهم للتحرر الذي ينتظرهم، لأنها تعهدت بإعتاقهم مجانًا عند وفاتها.

عندما توقّيت السيدة غارنر حزن سيزر وعائلته وذهبوا إلى المزرعة، في انتظار كلمة رسمية حول إعتاقهم. لكنها لم تترك وصية. قريبتها الوحيدة كانت ابنة أخيها في بوسطن، والتي رتبت مع محامٍ محليّ لتصفية ممتلكات السيدة غارنر. كان يومًا فظيعةً عندما أتى المحامي مع المجندين وأبلغ سيزر ووالديه أنهم سيباعون. والأسوأ أنه كان سيتم بيعهم في الجنوب، بكل الأساطير المخيفة حول قسوة ورجس الجنوب. انضمّ سيزر وعائلته إلى مسيرة العبيد، ذهب والده في اتجاهه، ووالدته في اتجاه آخر، وسيزر نحو مصيره. كان هناك وداع مثير للشفقة، قُطِع بسرعة بسوط التاجر. أحس التاجر بالملل من ذلك العرض الذي شهده مرات كثيرة من قبل، ولذلك ضرب بفتور العائلة المذهولة. سيزر، بدوره، تلقى هذه الضربات الفاترة كعلامة لوجود ضربات قادمة. مزادّ في سافانا قاده إلى مزرعة راندال وإلى صحوته البشعة.

"يُمكنك أن تقرأ؟" سألت كورا.

"نعم". إثبات ذلك كان من مستحيلًا بالطبع، لكن إذا تمكنا من الهرب من المزرعة فإن هذه النعمة النادرة قد تساعدنا. وفي مبنى المدرسة

الذي كان قريبًا من مصنع الحليب حيث يعمل، كانا يلتقيان بعد أن ينهي العمل قدر ما استطاعا. الآن بعد أن شرح لها مخططاته امتلأ عقلها بالأفكار الكبيرة. اقترحت كورا أن ينتظرا اكتمال القمر. قال سيزر إنه بعد هروب بيغ أنتوني قام المشرفون والمدراء بزيادة تداييرهم، وسوف يكونون يقظين أكثر ليلة اكتمال القمر: تلك المنارة البيضاء التي غالبًا ما تحرّض عقل العبد على الهرب! لا، قال. أراد أن يذهب في أقرب وقت ممكن. في الليلة التالية.

يجب أن يكتفيا بالهلال. عملاء السكك الحديدية السرية تحت الأرض سيكونون بانتظارهم. كان سيزر مشغولًا جدًا. هل وصلت السكك الحديدية السرية عميقًا في جورجيا لهذه الدرجة؟ فكرة الهروب طغت عليها. وبصرف النظر عن استعداداتها الخاصة، كيف سيتمكنان من تنبيه عمّال السكك الحديدية في الوقت المناسب؟ لم يكن لدى سيزر أي ذريعة لمغادرة الأرض حتى يوم الأحد. أخبرها أن هروبها من شأنه أن يسبب ضجة كبيرة ولن تكون هناك حاجة لتنبيه الرّجل. كانت السيدة غارنر قد زرعت بذور رحلة سيزر بطرق عديدة، لكن إحدى الأشياء التي علمتها له على وجه الخصوص هي ما أوصلته إلى السكك الحديدية السرية. كان ذلك خلال ظهيرة يوم السبت، كانا يجلسان على الشرفة الأمامية. في الطريق الرئيسي بينما مظاهر عطلة نهاية الأسبوع بادية. التجار في عرباتهم، والأسر تمشي إلى السوق. العبيد البائسون مربوطين من أعناقهم ويجرجرون أقدامهم. بينما كان سيزر يفرك قدمها، شجعتة الأرملة على تنمية مهارة، ومن الأفضل أن تكون مهارة استخدمه بشكل جيد عندما يصير رجلًا حرًا. أصبح نجازًا، وتدرّب في متجر قريب يملكه رجل مُوحّد متفتح الذهن. في نهاية المطاف باع

أطباقه المصنوعة يدويًا في الساحة. وقد لاحظت السيدة غارنر أنه كان يجيد استخدام يديه.

في مزرعة راندال واصل مشروعه، وانضم إلى قافلة الأحد التي تذهب إلى المدينة مع باعة الطحالب، الخياطين، والعمال الذين يعملون بالأجرة اليومية. باع القليل، لكن الرحلة الأسبوعية كانت تذكرة صغيرة، وإن كانت مريرة، لحياته في الشمال. ما كان يعذبه في غروب الشمس هو ابتعاده عن الموكب أمامه، الرقص الساحر بين التجارة والرغبة.

اقترب رجل أبيض عجوز منه خلال يوم الأحد ودعاه للحضور إلى متجره. وأخبره أنه ربما يستطيع أن يبيع مصنوعاته اليدوية خلال الأسبوع، وبذلك يكسب كلاما. كان سيزر قد رأى الرجل من قبل، يتنقل بين الملونين ويتأمل مصنوعاته بفضول كبير. لم يكن يعيره أي انتباه، لكن طلبه الحالي جعله متشككًا. فكرة أنه بيع في الجنوب جعلته حذرًا جدًا في تعامله مع البيض. ولذلك فقد أخذ حذره.

كان الرجل يبيع مؤثًا، سلعًا جافة، وأدوات زراعية. كان المحل خاليًا من العملاء. وخفض صوته وسأل: «يمكنك أن تقرأ، أليس كذلك؟ سيدي؟» قالها بالطريقة التي يتحدث بها فتیان جورجيا.

"لقد رأيتك في الساحة تقرأ الإشارات والصحف. يجب عليك أن تحمي نفسك. فلسئت الوحيد الذي يلاحظ مثل تلك الأمور".

كان السيد فليتيشر من بنسلفانيا. وقد انتقل إلى جورجيا لأنه اكتشف في وقت متأخر أن زوجته ترفض العيش في أي مكان آخر. كان لديها فكرة عن الهواء هنا وآثاره في تحسين الدورة الدموية. كانت زوجته محقة حول نقطة تأثير الهواء، اعترف، لكن المكان كان بئسًا بكل الطرق.

رأى السيد فليتشير العبودية باعتبارها إهانة للرب. لم يكن أبدًا نشطًا في دوائر إلغاء العبودية في الشمال لكن مراقبة النظام الوحشي مدته مباشرة بأفكار لم يعرفها من قبل.

أفكار قد تجعله يفر من المدينة أو يفعل ما هو أسوأ. لقد وثق في سيزر وخاطر دون أن يفكر ما إذا كان سيزر سيثي به للحصول على مكافأة. سيزر كذلك وثق به. كان قد التقى بهذا النوع من الرجال البيض مسبقًا، وكان يصدق ويثق فيما يخرج من أفواههم. أما صحة كلماتهم فقد كانت مسألة أخرى، لكن على الأقل كانوا يعتقدون فيها. كان الرجل الأبيض الجنوبي مثل قطعة من عورة الشيطان، لا توجد طريقة للتنبؤ بعمله الشرير المقبل.

في ختام ذلك الاجتماع الأول أخذ فليتشير ثلاثة زبديات من سيزر وأخبره بالعودة الأسبوع المقبل. لم يشتر أحد الزبديات، لكن مغامرات الثنائي كانت تزدهر كلما زادت نقاشاتهما. الفكرة تشبه قطعة من الخشب. وفكرة سيزر كانت تتطلب الحرفية البشرية والإبداع للكشف عن الشكل الجديد الذي تتضمنه. كانت أيام الأحد هي الأفضل بالنسبة لفليتشير لأن زوجته تزور أبناء عمومتها. لم يتقرب فليتشير أبدًا من ذلك الفرع من العائلة، ولم يتقربوا هم منه أيضًا، وهذا يعود لمزاجه الغريب. أخبره فليتشير أن من المعروف أن خط السكك الحديدية السرية لا يعمل في الجنوب. كان سيزر يعرف ذلك بالفعل. ففي فرجينيا، يمكنك الهرب إلى ديلاوير أو حتى تشيزابيك على البارجة، وتتجنب الدوريات وصائدي المكافآت بذكاءك واليد الخفية للعناية الإلهية. أو بإمكان السكك الحديدية السرية مساعدتك، بقنواتها السرية وطرقها الغامضة.

كانت أفكار محاربة العبودية غير قانونية في هذا الجزء من الأمة. وقد تمّ إبعاد مناصري إلغاء العبودية والمتعاطفين الذين جاؤوا إلى جورجيا وفلوريدا، وتم جلدتهم والإساءة إليهم من قبل الغوغاء، كما تمّت تغطيتهم بالقطران والريش. لم يكن هناك مكان للميثوديين وتفاهتهم في حوض مَلَاك القطن. لم يستسلم المزارعون لتلك العدوى. ومع ذلك، فقد فُتحت المحطّة. إذا تمكن سيزر من قطع الثلاثين ميلاً إلى منزل فليتشر، فقد تعهّد صاحب المتجر بنقله إلى السكك الحديدية السرية.

"كم عدد العبيد الذين ساعدتهم؟" سألت كورا.

"لا أحد"، قال سيزر. صوته لم يحمل أيّ رعشة، كي يطمئن كورا بقدر طمأنينته هو. وأخبرها أن فليتشر حاول مساعدة عبد في السابق، لكن الرجل لم يتمكن من الوصول إلى مكان اللقاء. وفي الأسبوع التالي ذكرت الصحيفة اعتقال الرجل وتحدّثت عن العقوبة التي سينالها.

"وكيف لنا أن نعلم أنه لا يخدعنا؟"

"إنه لا يخدعنا". كان سيزر قد فكر في ذلك بالفعل. وقد منحه التحدث إلى فليتشر في متجره ما يكفي من الأسباب ليثق به.

لا حاجة لخطط تفصيلية. استمع سيزر وكورا إلى الحشرات بينما ضخامة خطتهما تحوم حولهما.

"سوف يساعدنا"، قالت كورا. "عليه أن يفعل ذلك".

كان سيزر قد أخذ يديها بين يديه لكن التلميح أزعجه، فترك يديها. «ليلة الغد»، قال.

كانت ليلتها الأخيرة في المساكن أرقّة، على الرغم من أنها كانت بحاجة إلى قوّتها. النسوة الأخريات في الفرن كن نائمات بجانبها في الدور العلوي.

استمعت إلى أنفاسهن: تلك ناغ؛ وتلك ريذا التي تُصدر زفيرها الخشن كل دقيقة. في هذا الوقت غدًا سوف تكون هائمة في الظلام. هل هذا ما شعرت به والدتها عندما قرّرت الهرب؟ صورتها لدى كورا كانت بعيدة. ما تذكّرت أكثر من غيره هو حزنها. كانت والدتها امرأة تنتهي إلى الفرن قبل أن يكون هناك فرن حتى. التردّد نفسه الذي يساورهن، الأعباء التي كانت تثقلها طوال الوقت وتجعلها بعيدة. لم يتمكن عقل كورا من تذكرها بشكل تفصيلي. من كانت؟ أين هي الآن؟

لماذا تركتها؟ دون قبلة حتى، كي يكون لها عندما تتذكر تلك اللحظة في وقت لاحق بمثابة توديع حتى لو لم تفهم معناها وقتها. كانت كورا تحفر الأرض بشراسة خلال يومها الأخير كما لو كانت تحفر نفقًا. من خلاله وعقب عبوره يكمن خلاصها.

قالت وداغًا دون أن تقول وداغًا. في اليوم التالي جلست مع لوفي بعد العشاء وتحدثا بطريقة لم يتحدثا بها منذ عيد ميلاد جوكي. حاولت كورا قول كلمات لطيفة عن صديقتها، هدية يمكنها أن تتذكرها في وقت لاحق. «بالطبع فقد فعلت ذلك لأجلها، أنت إنسانة مميزة. بالطبع مييجور يحبك، بإمكانه أن يرى ما أراه فيك».

احتفظت كورا بآخر وجبة لها لتناولها مع نساء الفرن. كان من النادر أن يقضين ساعاتهن الحرّة معًا لكنّها جمعتهن. ما الذي سيحدث لهن؟ كنّ منفيّات، لكن الفرن يقدّم الحماية بمجرد أن تستقرّ فيه. من خلال إظهار غرابتهن، والطريقة الطفولية التي يتصرفن بها هربًا من الضرب، تجنبن الاختلاط مع باقي عبيد المساكن. فقد شكلت جدران الفرن قلعة حصينة، وأنقذتهن من الخلافات والمؤامرات. الرجال البيض يأكلونك، لكن في بعض الأحيان يأكلك الملونون أيضًا.

تركت كومة من أشياءها عند الباب: مشط، ومربع من الفضة المصقولة كسبته آجاري منذ سنوات، وكومة من الحجارة الزرقاء التي تسميها ناغ «الصخور الهندية». كان ذلك هو وداعها.

أخذت الفأس. وأخذت مشعلًا ومادة سريعة الاشتعال. ومثل والدتها قطفت البطاطا خاصتها. فكّرت أنه في الليلة التالية سوف يطالب أحد بأرضها، ليقوم بزراعتها مجددًا. يضع سياجًا حولها للدجاج. يبني بيتًا لأجل كلبه. أو ربما سوف يجعلها حديقة. كانت أرضها بمثابة مرساة في المياه المفرغة للمزرعة منعتهما من الانجراف بعيدًا. حتى اختارت هي أن تنجرف بعيدًا.

وبعد أن هدأت القرية التقيًا بجانب حقول القطن. أبدى سيزر تعبيرات هزلية حول حقيبتها المنتفخة بالبطاطا دون أن تنبس شفتاه بكلمة. انتقلا خلال النباتات الطويلة، كانا مستغرقين في الأمر لدرجة أنهما نسيا أن يركضا حتى وصلا إلى منتصف الطريق.

السُّرعة التي كانا يركضان بها أشعرتهما بالدوار. كان خوفهما يصبح بهما حتى لو لم يكن هناك من شخص يطاردهما ويصبح بهما. كانت لدهما ست ساعات قبل أن يتم اكتشاف اختفائهما وساعة أو اثنتين قبل أن يصل مدراؤهم إلى المكان الذي كانوا فيه الآن. لكن الخوف كان يصبح بهما بالفعل، كما كان يفعل كل يوم في المزرعة، وقد كان يتبعهما بوتيرتهما ذاتها.

عبرا المرج ذا التربة الرقيقة جدًا للزراعة ودخلا المستنقع. لقد مرت سنوات منذ آخر مرة لعبت فيها كورا في المياه السوداء مع الأطفال الآخرين، كانوا يخيفون بعضهم بعضًا بحكايات الدببة والتماسيح الخفية والسباحة السريعة لأفعى الماء. وكان الرجال يصطادون ثعلب

السمندر والقندس من المستنقع ويقوم باعة الطحلب بكسحه من الأشجار، يتبعونه بعيدًا لكن ليس لمسافة كبيرة أبدًا، ويزحفون نحو المزرعة بقوة قيود غير مرئية. كان سيزر قد رافق بعض الصيادين في رحلات الصيد منذ شهور، وتعلم كيفية الدخول في الجفت والظمي، والبقاء دائمًا على مقربة من القصب، وكيفية العثور على أرض ثابتة تحت الماء. استخدم عصا المُضَيِّ للتحقق من مياه المستنقع أمامهما. كانت الخطة أن ينطلقا غربًا حتى يصطدما بسلسلة من الجُزُر التي أراها لها أحد الصيادين، ثم الاتجاه إلى الشمال الشرقي حتى يجفّ المستنقع. وكلما كانت أقدامها ثابتة أكثر سيصلون بشكل أسرع إلى الشمال. كانا قد قطعا مسافة صغيرة فقط قبل أن يرهف صوت ما أذنيهما فيتوقفان. نظرت كورا إلى سيزر ليعطيها إشارة. رفع يديه وبدأ يستمع. لم يكن صوتًا غاضبًا. أو صوت رجل.

هز سيزر رأسه عندما أدرك هوية متابعهما. «لوفي!». تمتعت بجدس كافٍ لتبقى صامته حتى بَلَّغَتْهُمَا. «كنت أعرف أنك تخططين لفعل أمرٍ ما»، همست عندما اقتربت منهما. "تتسللين للقائه لكن لا تتحدثين عنه. وقد قطفت اليوم ثمرات البطاطا التي لم تنضج بعد!». كانت قد خاطبت بعض النسيج القديم لتصنع حقيبة معلقة على كتفها الآن. قال سيزر، «عودي قبل أن تكشفني أمرنا».

"سوف أذهب إلى حيث تذهبان"، قالت لوفي.

عبست كورا. إذا أعادوا لوفي فربما يُقبض عليها وهي تحاول التسلّل إلى كوخها. لم تكن لوفي من أولئك الذين يستطيعون إمساك ألسنتهم. لا مزيد من الرجوع إلى الوراء. لم تكن تريد أن تكون مسؤولة عن الفتاة، لكن لم يكن هناك مفرّ.

قال سيزر، «إنه لن يأخذ ثلاثتنا».

سألت كورا، «هل يعلم أنني قادمة؟»

هز رأسه بالنفي.

"إذن لا فرق لو كانت المفاجئة واحدة أو اثنتين"، قالت. رفعت حقيبتها.
"لدينا ما يكفي من الغذاء على أي حال".

أمام سيزر الليلة بأكملها ليعتاد على الفكرة. سيمر وقت طويل قبل أن يتمكنوا من النوم مجددًا. في نهاية المطاف أخذت لوفي تصرخ بسبب كل ضجيج مفاجئ يأتي من مخلوقات الليل، أو عندما تغطس عميقًا جدًا وترتفع المياه إلى خصرها. كانت كورا على دراية بهذه الطبيعة الحساسة للوفي، لكنها لم تميّز ذلك الجانب الآخر لصديقتها، الجانب الذي تمكّن من هذه الفتاة وجعلها تفكر في الهرب. لكن ألا يفكر كل العبيد في ذلك؟ في الصباح وبعد الظهر وأثناء الليل. يحلمون بالأمر. كل حلم هو حلم بالهروب حتى لو لم يبدو مثل ذلك. خاصة عندما يكون حلمًا عن الأحذية الجديدة. وقد ظهرت الفرصة أمام لوفي وقررت الاستفادة منها، غير عابئة بأمر السوط.

تحرك ثلاثتهم صوب الغرب، يتخبطون خلال المياه السوداء. لم تكن كورا لتتمكن من قيادتهم. ولم تعرف كيف تمكن سيزر من فعل ذلك. لكنه كان يفاجئها دائمًا. بالطبع كانت لديه خريطة في رأسه ويمكنه قراءة النجوم والحروف أيضًا.

تهنّدت لوفي ولعناتها عندما تشعر بأنها تحتاج إلى الراحة أعفت كورا من الأسئلة. طلبوا منها تفتيش حقيبتها، لم تكن تحتوي على شيء عملي، فقط بعض الأغراض الغريبة التي جمعتها، مثل بطاقة خشبية صغيرة وزجاجة زرقاء. بالنسبة لجانبه العملي، كان سيزر ملاحًا جيدًا

عندما يتعلق الأمر بالعثور على الجُزُر. لم يكن لكورا أن تعرف ما إذا كان ملتزمًا بطريقٍ معيَّنة أم لا. بدأوا في تتبُّع الشَّمال الشرقي وبحلول الصباح التالي كانوا قد خرجوا من الأراضي السَّبخة. قالت لوفي عندما برزت الشمس البرتقالية في الغرب "إنهم يعرفون". أخذ الثلاثي راحة أخرى وقطعوا البطاطا إلى شرائح. أحاط بهم البعوض والذباب. وعندما حل النهار كانوا في حالة مزرية، يغطيهم الطين، والنبات الشائك والأغصان. لم يُزعج الأمر كورا. كل ما فكرت فيها أن هذه هي أول مرة تبتعد فيها عن المنزل هذه المسافة كلها. حتى لو تمَّ سَخِّها في هذه اللحظة وقاموا بتقييدها، فستعزِّبها ما قطعته من أميال مبتعدة عن المنزل.

قذف سيزر عصا المشي على الأرض وبدأوا بالتحرك من جديد. في المرة التالية التي توقفوا فيها أخبرهم أن عليه الذهاب للعثور على طريق المقاطعة. ووعد بالعودة قريبًا، لكنه كان بحاجة إلى معرفة مدى التقدُّم الذي سوف يحرزونه. كان لدى لوفي إحساس بأنها لا يجب عليها السؤال عمَّا سيحدث في حال لم يرجع سيزر. ولكي يطمئنهما، ترك حقيبته وقارورة مياهه بجوار شجرة السرو. أوروبما كي تساعدهم هذه الأشياء إن لم يُعد.

"لقد كنت أعرف"، قالت لوفي، محاولةً التعبير عن شعورها على الرغم من إجهادها. جلست الفتاتان تحت الأشجار، وهما تشعران بالامتنان للأرض الجافة والثابتة.

أخبرتها كورا بما تبقى لمعرفته، وهي تعود بذاكرتها إلى يوم عيد ميلاد جوي.

"لقد كنت أعرف"، كررت لوفي ما قالته.

"إنه يظن أنني أجلب الحظ الجيد، لأن أُمي هي الوحيدة التي تمكنت من الفرار".

"لو كان يرغب في حظ جيد فليقطع قدم أرنب إذا"، قالت لوفي.
"ما الذي ستفعله والدتك؟" سألت كورا.

أتت لوفي ووالدتها إلى مرزعة راندال عندما كانت في الخامسة من عمرها. لم يؤمن سيدها السابق بالباس العبيد الصغار، لذا عندما أتت إلى هناك كانت تلك هي المرة الأولى التي ترتدي فيها الملابس.

وُلدت والدتها غيري في أفريقييا وكانت تحب أن تخبر ابنتها وكل أصدقائها عن حياتها في القرية الصغيرة بجانب النهر والحيوانات التي تعيش على مقربة من ذلك المكان. لكن قطف القطن حطم جسدها. كانت مفاصلها قاسية ومتورمة، وصارت ملتوية، ما منعها من السير. عندما لم يعد بوسع غيري العمل كانت ترعى الأطفال عندما تكون أمهاتهم في الحقل. وعلى الرغم من عذابها فقد كانت دائمًا حنونًا مع فتاتها، حتى وإن بدت ابتسامتها الكبيرة قلقة عندما غادرت لوفي.

"سوف تكون فخورة بي"، أجابت لوفي. واستلقت وأدارت ظهرها.

عاد سيزر أسرع مما توقعتا. أخبرهما إنهم قريبون جدًا من الطريق، وأنه قد حسب المسافة بشكل جيد. الآن، كان على حفلةهم الاستمرار، حتى يتمكنوا من التقدّم إلى أقصى حدّ ممكن قبل أن يتم إرسال متقّي الأثر للبحث عنهم. سيتعقب الخيالون آثارهم خلال وقت قصير.
"متى سننام؟" سألت كورا.

"دعينا نبتعد عن الطريق وبعدها نرى ما سيحدث". قال سيزر. وبدا من سلوكه أنه مُنْهَك القوى أيضًا.

تمكنوا من التوقف للاستراحة بعد وقت قصير فأنزلوا أغراضهم

عن ظهورهم. وعندما أيقظ سيزر كورا كانت الشمس قد غربت. لم تتحرك أبدًا أثناء نومها رغم أن جسدها كان مُلقى فوق جذور شجرة بلّوط قديمة.

كانت لوفي مستيقظة. اقتربوا من مقصدهم عندما حلّ الظلام تقريبًا، حقل ذرة يقع إلى الخلف من مزرعة خاصّة. كان أصحاب المنزل في الداخل يشغلون أنفسهم بأعمالهم، ويتنقلون داخل وخارج المنزل الصغير. توقف الهاربون وانتظروا حتى تُطْفِئ العائلة مصابيحها. من هنا حتى مزرعة فليتش كان الطريق الأكثر مباشرة يمرّ خلال أراضي الناس، لكنه كان خطيرًا جدًا. مكثوا في الغابة، وتجولوا في أنحاءها.

في نهاية المطاف كانت الخنازير هي السبب في الإمساك بهم. كانوا يتبعون درب الخنزير عندما هرع رجال بيض من بين الأشجار نحوهم. كان هناك أربعة منهم. فقد وُضع الطعم على الدرب، وانتظر صائدو الخنازير الطريدة، والتي يتحول نشاطها عند الطقس الحار إلى الفترة المسائية. كان الهاربون نوعًا مختلفًا من الوحوش ولكنهم مُريحون أكثر.

لم يكن هناك خطأ في هوية الثلاثي، نظرًا لوضوح النّشرات. أمسك اثنان من صيادي الخنازير الأصغر في المجموعة، وثبتاها على الأرض. وبعد أن كان جميعهم هادئين جدًا فترة طويلة - العبيد كي يهربوا من مخاطر اكتشاف الصيادين لهم، والصيادون لتفادي مخاطر الكشف عن أنفسهم لفرستهم - أخذ كلّ منهم يصرخ ويقاوم بكل مجهوداته. تصارع سيزر مع الرجل الأضخم ذو اللحية الداكنة الطويلة. كان الهارب أصغر سنًا وأقوى، لكن الرجل وبرياطة جأش أمسك سيزر من وسطه.

كان سيزر يقاوم وكأنه قام بضرب عديد من الرجال البيض من قبل،

وهو أمر مستحيل، وإلا لكان مصيره القبر منذ فترة طويلة. كان القبر هو ما يقاتل الهاربون لتجنبه، فذاك سيكون مصيرهم إذا انتصر عليهم هؤلاء الرجال وأعادوهم إلى سيدهم.

عوت لوفي بينما جرّها رجلان نحو الظلام. كان مهاجم كورا صبيًا ونحيلًا، ربما ابن أحد الصيادين الآخرين. أمسك بها دون أن تُدرك ذلك، لكن في اللحظة التي أحسّت بيده على شخصها تسارعت دماؤها. أعادها ذلك إلى الليلة خلف المدخنة عندما اغتصبها إدوارد وبوت والبقية بشكل وحشي. لكنها قاومت هذه المرة. تدفقت القوة في أطرافها، عضته وصفعته وضربته، قاتلت الآن لأنها لم تكن قادرة على القتال في ذلك الحين. أدركت أنها أسقطت فأسها. كانت تبحث عنه. كان إدوارد مدفونًا تحت التراب وسينضمّ إليه هذا الصبي أيضًا، قبل أن يفكر في إرجاعها.

ثبت الصبي كورا على الأرض. تدهرجت وضُربَ رأسها قبالة جذع. أسرع نحوها وأمسك بها. كان دمها ساخنًا - حاولت النهوض وضربت الصبي بصخرة وجّهتها إلى جمجمته. ترنح الفتى وكررت ضرباتها. فتوقف أنينه.

كان الوقت يمر سريعًا. نادها سيزر، واقترب ليسحبها. كان الرجل الملتحي قد هرب، بقدر ما سمح لها الظلام أن ترى. «من هنا!» نادت كورا على صديقتهما. لم يكن هناك أي إشارة لها، ليس بإمكانهم في أي حال من الأحوال معرفة أين ذهبوا. تردّدت كورا فجّرّها سيزر بحزم للتقدم. تابعت تعليماته.

توقفًا عن الركض عندما أدركا أنه ليس لديهما أدنى فكرة عن المكان الذي يتوجّهان نحوه. لم ترَ كورا شيئًا بسبب الظلام وغزارة دموعها.

كان سيزار قد تمكن من إنقاذ ماءهم لكن فقدوا بقية مقتنياتهم. كما فقدوا لوفي. اهتدى سيزر بالمجموعات النجمية في السماء وواصل طريقهما وهما يندفعان نحو الليل. ولساعات لم يتبادلا كلامًا. ومن جذع مخططاتهما برزت الخيارات والقرارات مثل الفروع والأغصان. ماذا لو أعادوا الفتاة إلى المستنقع. لو أنهما اتخذنا طريقًا أعمق حول المزارع. لو كانت كورا في المؤخرة وأمسك بها الرجلان. لو لم يغادروا قط.

اكتشف سيزر بقعة جيّدة، فتسلقا الأشجار، وناما مثل

الراكون.

عندما استيقظت كورا، كانت الشمس قد أشرقت وكان سيزر يخبّ بين شجرتيّ صنوبر، ويتحدث إلى نفسه. نزلت من مخبأها، والخدر ينتشر في ذراعها وساقها من النوم غير المستقر على الفروع القاسية. كان وجه سيزر جدّيًا. بحلول الوقت الحالي لا يبدّ أن الأخبار قد انتشرت حول ما حدث في الليلة الماضية. ولا يبدّ أن الدوريات تعرف الاتجاه الذي توجهوا نحوه. «هل أخبرتها عن السّكك الحديدية؟»
"لا أظن ذلك".

"لا أظن أنني فعلت أيضًا. إننا حمقى لأننا لم نتوقع حدوث مثل هذا الأمر".

كان الخور الذي خاضه عند الظهيرة نقطة استدلالية. كانا قد اقتريا، هذا ما قاله سيزر، بعد ميل. تركها ليستكشف المكان. عند عودته اعتمدا مسارا أكثر عمقا في الغابة سمح لهم برؤية المنازل عبر مسافة بعيدة. قال سيزر «ها نحن ذا». كانا ينظران إلى منزل مرتّب من طابق واحد يُطلّ على المراعي. تم تطهير الأرض لكنها لم تكن بورًا. الدوارة الحمراء هي العلامة التي دلت سيزر على أن هذا هو المنزل، بينما أشارت الستائر

الصفراء التي سحبت في النافذة الخلفية إلى أن فليتشر بالمنزل وحده دون زوجته.

"ماذا لو أخبرتهم لوفي"، قالت كورا. لم يريا أيّ منازل أخرى في الأنحاء ولا أي إنسان.

انطلق كورا وسيزار خلال العشب البري، كانت هذه أوّل مرة يخرجان فيها إلى العن منذ خروجهما من المستنقع. انزعجت من انكشافهما في العراء هكذا. شعرت وكأنها أُلقيت في واحدة من مقالي أليس السوداء الكبيرة، والنيران تشتعل أدناها. انتظرا عند الباب الخلفي كي يفتح لهما فليتشر. تخيلت كورا الحشود تبحث في الغابة، تعد أنفسها للانطلاق في هذا الحقل. أوربما ينتظرون في الداخل، إذا أخبرتهم لوفي بالخطأ. أدخلهما فليتشر أخيراً إلى المطبخ. كان المطبخ صغيراً لكنه مريح. عرضت الأواني كثيرة الاستخدام قيعانها الداكنة من خلال العلاقات، بينما تمايلت الأزهار الملونة في الأواني الزجاجية الرقيقة. وفي الركن قبع كلب عجوز أحمر الشعر ولم يحاول التحرك، غير مبال بالزوار. شربت كورا وسيزار بشراهة من الجرة التي قدّمها لهما فليتشر. كان المضيف غير راضٍ برؤية المُسافر الإضافي، لكن كثيراً من الأمور قد حدثت بشكل خاطئ منذ البداية.

فاجأهم صاحب المتجر. في البدء لاحظت غير والدّة لوفي غياب ابنتها وخرجت من الكوخ لتبحث عنها بهدوء. كان الفتيان يحبّون لوفي، ولوفي أحبّت الفتيان. واحد من أرباب العمل أوقف غير واستنطقها ليعرف ما حدث.

نظرت كورا وسيزر إلى بعضهما. كانت بداية رحلتها ذات الست ساعة مجرد خيال. وكانت الدوريات متعمقة في البحث طوال الوقت.

قال فليتش أنه بحلول منتصف النهار كانت كل يد في المحافظة وفي جميع الأنحاء تشارك في البحث. كانت مكافأة تيرانس غير مسبوقة. تم نشر الإعلانات في كل الأماكن العامة. وشارك أسوأ الأوغاد في المطاردة: مدمنو الخمر، الفاسدون، الفقراء البيض الذين لا يمتلكون حتى أحذية كانوا مسرورين بهذه الفرصة للقضاء على آفة السكان الملونيين أيضًا. عبرت الدوريات بمحاذاة قُرى العبيد ونهبت منازل الأحرار، وقامت باعتداءات كثيرة.

العناية الإلهية ابتسمت للهاربين: كان الصيادون يعتقدون أنهم يختبئون في مكان ما من الأراضي السبخة - فوجود فتاتين لا تعرفان شيئًا يقودهما رجل، في ذلك المكان الضحل، يجب تقليص طموحاتهم في الفرار. معظم العبيد يتبعون مسارات المياه السوداء، بما أنه لم يكن هناك بيض يُقدّمون المساعدة في أقصى الجنوب، ولا سكك حديدية سرية في الانتظار لانقاذ عبد ضال. هذه المعلومات الخاطئة هي التي سمحت للثلاثة بالوصول إلى أقصى الشمال الشرقي.

حتى وجدهم صائدو الخنازير. أُعيدت لوفي إلى مزرعة راندال. كانت القوآت قد جاءت إلى منزل فليتش مرتين بالفعل لتعميم الأخبار والتلصص قليلاً. لكن أسوأ الأخبار هي أن أصغر الصيادين - وهو صبي يبلغ اثني عشر عامًا - لم يستيقظ من إصاباته بعد. كان سيزر وكورا قتلةً في نظر المحافظة. الرجل الأبيض يُريد دماءهما.

غطى سيزر وجهه، فوضع فليتش يداً مُطمئنةً على كتفه. عدم استجابة كورا لهذه المعلومات كان بادياً للعيان. انتظر الرجال. تناولت قطعة من الخبز. كان خزي سيزر كافيًا لكليهما.

أدت قصة هروبهما والقتال الذي خاضوه في الغابة إلى تخفيف فزع

فليتشر. لأن عدم وجودهم ثلاثتهم في مطبخه يعني أن لوفي لم تكن تعرف بأمر السكك الحديدية، وأنهما لم يذكر اسم صاحب المتجر في أي لحظة. إذا سوف يمضون قُدماً.

بينما كان سيزار وكورا يلتهمان بقية الرغيف المحشو وشرائح لحم الخنزير، ناقش الرجلان مزايا البدء في المغامرة، الآن أو بعد حلول الليل. اعتقدت كورا أنه من الأفضل ألا تُسهم في المناقشة. كانا هذا وجودها الأول في العالم الخارجي، وهناك كثير ممّا لا تعرفه. رأيا الخاص هو أن يهربوا في أقرب وقت ممكن. حيث أن كلّ ميل يُبعدها عن المزرعة هو بمثابة انتصار. وسوف تضيف ذلك إلى الأميال السابقة.

قرر الرجلان أن يقوموا بذلك في وضح النهار ومباشرة تحت أنوف الجميع، سوف يختبئ العبيد تحت بطانية في الجزء الخلفي من عربة فليتشر، كان هذا هو الأمر الأكثر حكمة، حيث أبعده عنهم عناء الاختباء في القبو، وانتظار مجيء السيدة فليتشر أو ذهابها. قالت كورا «لنقم بذلك إذا كنت تعتقد أنه الأنسب». أطلق الكلب ربحاً.

قبع كل من سيزر وكورا بين صناديق فليتشر بينما يتقدمون على الطريق الصامت. توهجت أشعة الشمس خلال البطانية متسللة بين ظلال الأشجار المتدلّية بينما كان فليتشر يُجري محادثات مع خيوله! أغلقت كورا عينيها، لكن رؤية الصبي راقداً على السرير، ورأسه الملفوفة بضمادة بينما الرجل الكبير صاحب اللحية يقف فوقه، لم تساعد على النوم. كان أصغر ممّا ظنّت. لكن لم يكن ينبغي له وضع يديه عليها. وكان على الصبي أن يختار هوايةً مختلفة غير صيد الخنازير ليلاً.

قررت أنها لا تحفل إن استعاد الصبي عافيته أم لا. كانوا سيقتلونهما

سواء استيقظ أم لا .

أيقظها ضجيج المدينة. كان بإمكانها أن تتخيل ما يبدو عليه الأمر: الناس أثناء إنجاز أعمالهم، والمحلات التجارية المزدهمة، والعربات والناقلات بعضها توجّه بعضها. كانت الأصوات قريبة، وسمعت ثرثرة مجنونة لبعض الغوغاء. اعتصر سيزر يدها.

وجودهما بين الصناديق منعها من رؤية وجهه لكنها كانت تعرف التعبير الذي يعلوه الآن. ثم أوقف فليتشر عربته. توقّعت كورا أن تُسحب البطانية خلال لحظة أو أخرى، وأخذت تتخيل صورة الفوضى التي ستلي ذلك. وضوء الشمس المزعج.

تخيلت أنه سيتم جلد فليتشر واعتقاله، وعلى الأرجح سيتم إعدامه لأنه لم يحم بإيواء مجرد عبيد، بل قَتلة. سوف تضرب الحشود كورا وسيزر استعدادًا لتسليمهما مرة أخرى إلى تيرانس، وسيواجهان العقاب الذي جهزه سيدهما وسيتفوّق على العذاب الذي ناله بيغ أنتوني نفسه. والذي نالته لوفي الآن، إلا إن كان ينتظر لَم شمل الهاربين الثلاثة لتعذيبهم سوية. حبست أنفاسها.

كان فليتشر قد توقف لتحية صديق. أصدرت كورا ضوضاء عندما مال الرجل قبالة العربية لكنه لم يسمعها. استقبل الرجل فليتشر وقدم له معلومات محدثة عن رجال الدوريات وبحتمهم - تم القبض على القتلة! شكر فليتشر الرب. صوت آخر انضمّ لدحض هذه الشائعات. أن العبيد ما زالوا طلقاء وحاولوا سرقة دجاج أحد المزارعين في غارة صباح اليوم، لكن الكلاب اشتمت رائحتهم. كرر فليتشر امتنانه للرب الذي يرعى الرجل الأبيض ومصالحه. أما الصبي المصاب فلم تكن هناك أخبار عنه. وعبر فليتشر عن أسفه.

مباشرة، عادت العربية مرة أخرى إلى طريق المقاطعة الهادئ. قال فليتش: «لقد جعلتموهم يلتفون حول أنفسهم». لم يكن واضحًا ما إذا كان يتحدث إلى العبيد أو خيوله. نامت كورا مرة أخرى، قسوة رحلتهم ما زالت تضاعف خسائرهم. كان النوم يبعد تفكير كورا عن لوفي. وعندما فتحت عينها بعد ذلك، كان الظلام قد حل. ربت سيزر عليها ليطمئنها. كان هناك هدير وجلجلة وصوت ترياس. رفع فليتشر البطانية عنهما، فمدّ الهاربان أطرافهما المتألمة وقد أدخلت العربية إلى إسطنبول.

رأت الأغلال أولاً. الآلاف منها معلقة على الجدار بمسامير في مشهد مروع. الأغلال والقيود، أغلال الكاحلين والمعصمين والرقبة، بجميع الأصناف والتوليفات. أغلال لمنع شخص من الفرار، من تحريك يديه، أو لتعليق جسد في الهواء لضربه.

كان أحد الصفوف مخصصًا لأغلال الأطفال وقيودهم الصغيرة والأصفاد التي تربطهم. صَفَّ آخر كان يضمّ الأصفاد الحديدية السميكة التي ليس بإمكان أي منشار نشرها، وأصفاد رقيقة جدًا حالما يتذكر مرتدوها العقاب الذي ينتظرهم سيأبون خلعها. كانت الكمّات المزخرفة موضوعة في مكان مخصص لها، وثمة كومة من الكُرات والسلاسل عند الزاوية. رُتبت الكُرات بشكل هرمي، بينما السلاسل مرتبة قبالتها بأشكال محددة أيضًا.

بعض القيود صديئة، وبعضها مكسور، بينما يبدو البعض الآخر وكأنه صُنِع في ذلك الصباح تحديدًا. انتقلت كورا إلى جزء من المجموعة ولمست حلقة معدنية ذات مسامير موجهة نحو مركزها. وقررت أنها لاتبّد صنعت لتوضع حول الرقبة.

"عرضٌ مُخيفٌ"، قال رجل. «لقد التقطتهم من هنا وهناك».
لم يسمعه وهو يدخل. هل كان هناك طوال الوقت؟ كان يرتدي
سروالاً رمادياً وقميصاً من القماش المسامي الذي لا يُخفي نحافته.
كانت كورا قد رأت عبيداً جَوْعى يكسوا عظامهم لحمٌ أكثر ممّا عند هذا
الرّجل. قال الرجل الابيض «إنها بعض التذكارات من أسفاري". كانت
لديه طريقة غريبة في الكلام، بإيقاع غريب يذكر كورا بالطريقة التي
يتكلم بها بعضهم في المزرعة عندما يبدأون بفقدان عقولهم.
قدّمه فليتش على أنه يُدعى لومبلي. صافحهم بقبضة ضعيفة.
"هل أنت الموصل؟" سأله سيزر.

"لست جيداً فيما يتعلق بقيادة القطارات"، قال لومبلي. "أنا أقرب إلى
عامل محطة".

أخبرهم أنه في الأوقات التي لا يكون خلالها مُنشغلاً بمسائل السكك
الحديدية، فإنه يعيش حياة هادئة في مزرعته. كانت هذه أرضه.
وأوضح لكورا وسيزر أن عليهم إما البقاء تحت البطانية أو أن يقوم
بعضب أعينهم. فمن الأفضل ألا يعرفوا موقع مكانه. وقال «أتوقّع
ثلاثة رُكّاب اليوم وحسب". "سيكون بإمكانكم التمدّد بعض الوقت».
قبل أن يستوعبوا كلماته أخبرهم فليتش أن الوقت قد حان كي يعود
إلى زوجته: «الجزء المتصل بي من الخطة انتهى يا أصدقائي». احتضن
الهاربين بمودة يائسة.

لم يكن بوسع كورا سوى الانكماش بعيداً. اثنان من الرجال البيض
خلال اليومين الماضيين وضوعوا أيديهما حولها. هل كان ذلك شَرْطاً
لحريتها؟

شاهد سيزر بصمت صاحب المتجر وعربته وهي تبتعد. نادى فليتش

خيوله ثم اختفى صوته بعيدًا. بدا القلق على ملامح رفيق كورا. لقد واجه فليتشر خطرًا كبيرًا لأجلهم، حتى عندما ازداد الوضع تعقيدًا عمّا كان يعتقد. كانت الطريقة الوحيدة لردّ هذا الدين هي نجاتهم ومساعدتهم آخرين عندما تسمح الظروف. هكذا بدا الأمر بالنسبة لها على الأقل. كان سيزر مدينًا للرجل أكثر بكثير لأخذه إيّاه إلى متجره كل تلك الأشهر. هذا هو ما رأته في وجهه - لم ترَ قلقًا، بل مسؤولية ثقيلة. أغلق لومبلي باب الحظيرة، واهتزت السلاسل.

لم يكن لومبلي عاطفيًا لهذه الدرجة. أضواء فانوسًا وأعطاه لسيزر بينما يُبعد بعض القش ويسحب الباب السحريّ عن الأرض. وبسبب نظرات الخوف التي اعترتهم قال: «سأذهب أولاً، إذا كنتما ترغبان». كان الدرج مبطنًا بالحجارة ورائحة كريهة تنبعث من الأسفل. لم يفتح الدّرج على قبّو، بل استمر في الانخفاض.

قدّرت كورا الجهد الذي استغرقه عملٌ مثل ذلك. كانت عتبات الدرج منحدرّة، لكن الحجارة كانت منحدرّة بشكل متماثل ما يؤمّن نزولًا سهلاً. ثم بلغوا النفق، وأصبح تقديرها مضاعفًا بسبب ما رأته من حولها.

قادهم الدرج إلى منصة صغيرة. امتدت خلالها الأفواه السوداء للنفق العملاق على كلا الطرفين. لا بدّ أن طوله يقارب العشرين قدمًا، مع جدران مبطنّة بأحجار داكنة وفاتحة بشكل متوالٍ. المثابرة المحضّة هي التي جعلت مثل هذا المشروع ممكنًا. لاحظت كورا وسيزر القضبان. قضبان فولاذيان يمتدان على طول الجزء المرئي من النفق، مثبتان على الأرض بواسطة قطع خشبية. يمتد الخط الحديدي في اتجاه الجنوب والشمال، وينبت من مكان لا يمكن تصوره لينطلق نحو

محطة أعجوبة. شخصٌ ما كان لطيفًا بما فيه الكفاية ليضع مقعدًا صغيرًا على المنصة. شعرت كورا بالدوار وجلست. كان سيزر بالكاد يتكلم. «إلى أي مدى يمتد النفق؟» "بعيدًا بما فيه الكفاية بالنسبة لك"، قال الرجل. "لابد أن بناءه استغرق عدة سنوات".

"أكثر مما يمكنك تخيُّله. حلّ مشكلة التهوية استغرق وقتًا طويلًا." "من الذي بناه؟"

"من الذي يبني أي شيء في هذا البلد؟" رأت كورا أن لومبلي لم يستغرب اندهاشهما. لم يكن هذا أوّل أداء له. "لكن كيف؟" قال سيزر.

"بأيديهم. أهنالك طريقة أخرى؟ نحن بحاجة إلى مُناقشة رحيلكم الآن." «سحب لومبلي ورقة صفراء من جيبه.

"أمامكما خياران. ثمّة قطار سيغادر بعد ساعة وآخر سيغادر بعد ست ساعات. ليس بجدول مواعيد جيّد، وربما لن يساعد ذلك المسافرين كي يصلوا في أوقات مناسبة إلى مقاصدهم، لكننا نعمل تحت ضوابط معيّنة».

"القطار القادم"، قالت كورا. فالوقوف هناك لم يكن أمرًا جيدًا.

"لكن الاثنان لا يذهبان إلى المكان نفسه"، قال لومبلي. "أحدهما ذاهب في اتجاه والآخر..."

"إلى أين؟" سألت كورا.

"إلى مكان بعيد عن هنا، هذا كلّ ما بإمكانني إخبارك به. أنتِ تفهمين الصعوبات التي تحدث في شرح جميع التغييرات التي تحدث على الطرق. السكان المحليون، والقطارات السريعة، وكل المحطات مغلقة

الآن، وكل اتجاه يشهد توسّعات. المشكلة أنه قد ترضيك وجهة أكثر من أخرى. وقد يتمّ فتح إحدى المحطات، وقد تُغلق مسارات أخرى. لن تعرف ما ينتظرك في الأعلى حتى تخرج من النفق". لم يفهم الهاربون الأمر. ربما ما قاله عامل المحطة هو أن أحد الطريقتين قد يكون مباشرًا لكن أكثر خطورة. أم يا ترى كان يقول إن أحد الطريقتين أطول؟ لم يوضح لومبلي أكثر.

أصرّ على أنه أخبرهم بكل ما يعرفه. وفي النهاية ظل خيار العبيد رابضًا أمامهم: أي مكان عدا المكان الذي هربوا منه. وبعد أن تشاور مع شريكته قال سيزر، «سوف نستقل القطار القادم».

"الأمر يعود إليكما"، قال لومبلي. وأشار نحو المقعد. انتظرا. بناء على طلب من سيزر، أخبرهم عامل المحطة عن كيفية بذئه العمل لصالح السكك الحديدية السرية. لم تكن كورا تُلقى بالألما بقولانه. سحبا النفق. كم عدد الأيدي التي عملت لتبني هذا المكان؟ وكم عدد الأنفاق بعده، وإلى أي مكان تذهب وما مدى امتدادها؟ فكّرت في وقت الحصاد، وكيف تعمل الأجساد الأفريقية بتزامن وكأنها جسد واحد، وبأسرع ما تسمح به قوتها. كيف تنفجر الحقول الشاسعة بمئات الآلاف من البذور البيضاء، المزخرفة مثل نجوم السماء في الليالي الصافية. وعندما ينتهي العبيد، يكونوا قد جردوا الحقول من لونها. كانت عملية رائعة، من البذور إلى صُرة القطن، لكن لا أحد منهم يكون فخورًا بعمله. فقد سُرقت مجهودهم. نُزع منهم. النفق، والمسارات، والنفوس اليائسة التي وجدت الخلاص في بناء تلك المحطات ووضع الجداول الزمنية - كانت هذه أعجوبة يجب أن نفخر بها. وتساءلت عما إذا كان أولئك الذين بنوا هذا الشيء قد تلقوا مكافأتهم المستحقة.

يقول لومبلي: «كل ولاية تختلف عن الأخرى». «كل واحدة منها مليئة بالاحتمالات، وبعاداتها الخاصة وطريقتها للقيام بالأشياء. ومن خلال الانتقال خلالها، سترى اتساع البلاد قبل أن تبلغ محطتك النهائية».

حينها، اهتز المقعد. صمتوا، ومن ثم تحول الاهتزاز إلى صوت. قادهم لومبلي إلى حافة المنصة. ثم وصل الشيء بغرابته الثقيلة. كان سيزر قد رأى القطارات في فرجينيا؛ وكانت كورا قد سمعت فقط بحكايا حول تلك الآلات. ولم يكن ما رآته كما تصوّرتَه. كانت القاطرة مطلية باللون الأسود، وهي عبارة عن آلة غريبة الشكل بِشِعة المنظر، في مقدّمها وجهٌ ثلاثي الشكل لظرد كل ما يقف عقبه أمامها، حيث يمكن أن تتواجد أعداد قليلة من الحيوانات في المسار الذي تمضي فيه هذه الآلة. يأتي بعدها أنبوب منتفخ يمثل المدخنة، وهي عبارة عن ساق مُغطّاة بالسّخام. يتكون الجسم الرئيسي من صندوق أسود كبير تنصدره مقصورة المهندس. وتلها المكابس واسطوانات كبيرة ترقص دون هواده مع العجلات العشر، تتكون من مجموعتين صغيرتين في المقدمة وثلاث في الخلف.

كانت القاطرة تسحب عربة واحدة، عربة مهلهلة تفتقد عديداً من الألواح في جدرانها.

لوح لهم المهندس الملون من مقصورته. وابتسم بوهن، «ليصعد الجميع» قال.

للحد من استجواب سيزر المزعج، سحب لومبلي بسرعة باب العربة وفتحته على اتساعه. «يجب عليكم إكمال طريقكم».

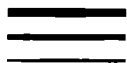
صعدت كورا وسيزر إلى العربة وأغلق لومبلي الباب بشكل مفاجئ. كانت هناك ثغرات في الخشب. «أقول دائماً إنك إذا أردت رؤية حال

هذه الأمة فعلاً، فعليك السفر بين القضبان، والنظر إلى الخارج بينما تُسرع، وسوف ترى الوجه الحقيقي لأمريكا». خبط جدار العربة كإشارة. فتابع القطار تقدّمه.

اختلّ توازن الهارين وتعثّرا بكومة قش موضوعة ليجلسا عليها. اهتزت العربة وارتجفت. لم تكن حديثة الطراز، وفي مناسبات عدّة خلال رحلتهم خشيت كورا من أنها على وشك الانهيار. كانت العربة فارغة باستثناء صُهر القشّ، والفئران الميتة، والمسامير المثنيّة.

اكتشفت في وقت لاحق رُقعة متفحّمة حيث بدأ شخص ما بإشعال النار. كان سيزر خدرًا بسبب كل تلك الأحداث الغريبة فتكوّر على الأرض. نظرت كورا من خلال شقوق العربة لتتبع تعليمات لومبلي النهائية، لم يكن هناك سوى الظلام، ميلاً بعد ميل. وعندما عبرا نحو ضوء الشمس، كانا في كارولينا الجنوبية. نظرت إلى المباني الضخمة، وتساءلت إلى أي مدى كانت قد ابتعدت عن منزلها.

ريڊجواي



كان والد أرنولد ريدجواي يعمل حدّادًا. يُحيط به لونٌ توهّج الحديد المنصهر، لونٌ يُشبه الشّمس الغاربة. الطريقة السّحرية التي يتوهّج بها المعدن المصهور ببطء ثم يبرّق، مثل عاطفةٍ ما، وتلك الليونة المفاجئة والتلوّي المضطرب لذلك الشيء وهو ينتظر شكله النهائي، باتت من خصائص الرّجل أيضًا. كان كبير الحدّاد هو نافذته نحو الطاقات الخام في الكون.

لَهُ شَرِيكٌ يُدعى توم بيرد، وهو هَجِين بين العِرْق الأمريكي والإنجليزي؛ يتحوّل إلى شخص عاطفي عندما يشرب الويسكي. عندما يشعر توم بيرد بالانفصال عن أسلوبه في الحياة، خلال الليل، يجلس ليحكي قصصًا عن الروح العظيمة. الروح العظيمة عاشت في كل شيء - الأرض والسماء والحيوانات والغابات - تتدفق خلالهم وتربطهم بالذات الإلهية. ورغم ازدياد والد ريدجواي الحديث عن الأمور الدينية، فإن شهادة توم بيرد عن الروح العظيمة ذكّرت به بشعوره نحو معدن الحديد نفسه. فقد كان دائم العزم على حفظ الحديد المتوهّج الذي يعمل عليه بكبره. كان يقرأ عن البراكين العظيمة، ومدينة بومبي المفقودة التي دمرها الحريق الذي انسكب من الجبال العميقة. النيران السائلة هي دماء الأرض. كانت مهمته تكمن في قلقة،

وهرس، واستخلاص المعدن لأجل الأشياء المفيدة التي تجعل المجتمع يعمل: المسامير، وحدوات الخيول، والمحاريث، والسكاكين، والبنادق. والسلاسل. العمل بروحانية، كان الاسم الذي يُطلقه على عمله.

اعتاد الصّغير، ريدجواي الابن، على الوقوف في الزاوية عندما يُسمح له بذلك، بينما والده يعمل على الحديد في بنسلفانيا: والده يذوب، ويدق، ويرقّص حول سندانه. قطرات العرق تنزّ من وجهه وتتساقط، بينما هو مُغطى بالسخام من قدمه حتى رأسه، أكثر سوادًا من الشيطان الأفريقي. «يجب عليك أن تعمل على تلك الروح خاصّتك، أيها الصبيّ». يومًا ما سوف يجدُ تلك الروح، لقد أخبره والده.

هذا التشجيع هو ما حمله ريدجواي، الابن، كعبء موحش. لم يكن أمامه من نموذج لنوع الرّجل الذي أراد أن يصبح عليه. لم يكن بوسعه العمل بالسندان إذ لن يستطيع التفوق على موهبة والده. في البلدة، كان يدقق في وجوه الرجال بالطريقة نفسها التي يدقق بها والده بحثًا عن الشوائب في المعادن. كان الرجال في كل مكان ينشغلون بمهن تافهة لا قيمة لها. ينتظر المزارع المطر مثل الأبله، ويرتّب صاحب المتجر الرفوف واحدًا تلو الآخر بالبضائع الضرورية والمملّة. يصنع الحرفيّون والصنّاع أشياء هشة مُقارنة بمنتجات والده الحديدية الصلبة. حتى أغنى الرجال، الذين كانوا يتأثرون بالتبادلات البعيدة مع لندن والتجارة المحلية، هم على حد سواء، لم يشكّلوا مصدر إلهام له. لقد اعترف بمكانتهم في النظام، وبمنازلهم الكبيرة من حيث مساحتها، لكنه لم يحترمهم هم. لن تكون رجلًا بما فيه الكفاية إذا لم تتّسخ ملابسك قليلًا في نهاية اليوم.

وفي كل صباح، كانت الأصوات التي تصدر من عمل والده على المعدن

بمثابة خطوات نحو مصير لا يقترب أبدًا.

في الرابعة عشرة من عمره انضم ريدجواي إلى الدوريات. كان ضخماً بالنظر إلى سنواته الأربع عشرة، إذ يبلغ طوله ستة أقدام ونصف. كان قوي البنية وذا حزم. لم يُعط جسده أي إشارة للارتباك داخله. وكان يضرب زملاءه عندما يتحسّس نقاط ضعفهم. كان ريدجواي صغيراً على الانضمام إلى الدوريات، لكن الأعمال التجارية آخذة في التغير. ملأ ملوك القطن الريف بالعبيد. وأقلقت ثورات جزر الهند الغربية والحوادث المزعجة القريبة المزارعين المحليين. كل رجل أبيض واضح التفكير كان ليقلق بسبب العبيد أو تلك الأمور الأخرى. زادت الدوريات من حيث الحجم والنفوذ. وعليه، قد يجد الصبيّ مكانة ما.

رئيس الدوريات في المقاطعة هو أشرس رجل عرفه ريدجواي قط. كان تشاندلر قوياً ومنتزماً. فخشي الناس عبور الشارع ومجرّد المرور بجانب ذلك الإرهائي المحلي، حتى عندما تتحوّل الجهة التي يمشون عليها إلى بركة وُخل بسبب المطر. وكان قد قضى في السّجن أيّاماً أكثر من الأيام التي قضاها الهاربون الذين أعادهم إلى السّجن إياه. كان شخيره يرتفع في زنزانة بجوار المخلوق الذي أعاده قبل ساعات. نموذج ناقص، لكنه قريب من الشكل الذي يسعى إليه ريدجواي. فقد كان جزءاً من القانون ومن طُرُق إنفاذه، لكنّه كان خارجاً عنه أيضاً. حقيقة أنّ والده يكره تشاندلر ساعدته أيضاً. أحبّ ريدجواي والده، لكن حديثه المستمر عن الأرواح اوعز له إلى أنّ والده يفتقر إلى الهدف. لم تكن الدوريات عملاً صعباً. يوقفون أيّ زنجي يرونه ويطالبونه بإذن مروره. لقد أوقفوا زنجياً كانوا يعرفون أنهم أحرار لمجرد التسلية وتذكير الأفارقة أن الدوريات تعمل ضدهم، سواء امتلكهم رجل أبيض

أم لا. كانوا يقومون بجولات في قرى العبيد بحثًا عن أي شيء عديم القيمة، ابتسامة أو كتاب. يجلدون الزنوج الفارين قبل إحضارهم إلى السجن، أو إرجاعهم مباشرة إلى مالكمهم إذا كانوا في مزاج جيد. ولم يبدُ أن هذه الدوريات ستختفي في المستقبل القريب.

كانت الأخبار حول الهاربين تُرسلهم للقيام بأنشطة تُبهجهم. يداهمون المزارع خلف طريدي العدالة الذين يبحثون عنهما، ويستجوبون حشودًا من ذوي البشرة الداكنة. عرف الزنوج الأحرار ما سيحدث تاليًا فخبّؤوا ممتلكاتهم الثمينة، واجتمعوا في زمر عندما حطّم الرجال البيض أثاثهم وزجاجهم، وصلّوا كي تقتصر الأضرار على الأغراض فقط. كانت هناك أمور أخرى، غير التشويق الكامن في إذلال رجل أمام عائلته أو ضرب رجل لأنه حدّق فيك بطريقة خاطئة. ضمّت مزرعة موتر العجوز أكثر الخادמות الملونات جمالًا - كان السيد موتر ذواقًا - وكانت الإثارة التي تجلبها المطاردة تجعل شباب الدوريات في مزاج بهيج. وفقًا للبعض، فإن آلات صنع الويسكي في مزرعة آل ستون تنتج أفضل ويسكي ذرة في المقاطعة. وهي أسباب سمحت لتشاندر بتغذية فكّيه. في تلك الأيام كان ريدجواي يتحكم في شهيته، ويرفض أمام زملائه عروضًا أكثر فظاعة. أما الدوريات الأخرى فتكوّنت من صبية ورجال ذوي طابع سيئ؛ فقد اجتذب هذا العمل ذلك النوع من الرجال ممّن كانوا ليُعتبروا مجرمين في بلادٍ أخرى، لكن هذه أمريكا. أحبّ ريدجواي العمل الليلي أكثر، حيث يقبضون مثلًا على رجلٍ تسلّل خلال الغابة لزيارة زوجته في مزرعة أخرى على الطريق، أو صياد سناجب يتطلّع إلى إكمال وجباته اليومية في المنحدر. كانت الدوريات الأخرى تحمل البنادق وتصيب بشغف أيّ وغد غبي يفكر في الفرار، أمّا ريدجواي

فكان يقلد تشاندلر. لقد زودته الطبيعة بأسلحة كافية. كان ريدجواي يطاردهم كما لو كانوا أرانب، ثم يسدّد قبضته نحوهم. يضرّهم لأنهم خروجوا، ويضرّهم لأنهم فروا، كانت المطاردة هي العلاج الوحيد لأزرقه. يتنقّل خلال الظلام، تضرب الفروع وجهه، وتعرقله الجذوع ليسقط وينهض مرّة أخرى. وخلال المطاردة يغنيّ دمه ويتوهج.

عندما أنهى والده يوم عمله، كانت ثمرة عمله أمامه: بندقية قديمة، ومجرّفة، وعربة الربيع. بينما يواجه ريدجواي أسيرهما، أكان رجلاً أم امرأة. أحدهما يصنع الأدوات، والآخر يسترجعها. مازحه والده حول الرّوح. أيّ مهنة هذه التي يطارد فيها زنونًا يملكون بالكاد ذكاء كلب؟ كان ريدجواي قد بلغ الثمانية عشر عامًا الآن، صار رجلاً، فقال: «كلانا نعمل لدى السيد إيلي ويتني». كان ذلك صحيحًا؛ فقد استأجر والده تويًا اثنين من المتدرّبين ممّن عملوا في ورش حدادة أصغر. لأن وجود محلج القطن يعني زيادة إنتاج القطن وزيادة إنتاج الأدوات الحديدية لحصاده، وزيادة أسرّجة الخيول الحديدية التي تجر العربات ذات الحواف الحديدية المستخدمة في نقل المنتجات إلى السوق. ويعني مزيدًا من العبيد والحديد لتقييدهم. تطلّب المجتمعات المولّدة للمحاصيل المسامير والأقواس للمنازل، والأدوات لبناء المنازل، والطرق لربطها، ومزيدًا من الحديد للحفاظ على كل شيء قيد التشغيل. فليُبقِ والده على ازدرائه، وازدراء روحه أيضًا. كان الرجلان جزءًا من النظام نفسه، ويخدمان أمة تنهض نحو مصيرها.

لا يجلب العبد الهارب أكثر من دولارين إذا كان صاحبه بخيلًا أو كان عبدًا فاشلاً، وما يقدر بمئات الدولارات أو ضعف ذلك إذا أُلقي القبض عليه خارج الولاية. أصبح ريدجواي صياد عبيد شهير بعد أوّل رحلة له

إلى نيو جيرسي، عندما ذهب لاسترداد ممتلكات مزارع محلي. قطعت بيتسي الطريق كلّه من حقول التبغ في فرجينيا إلى ترينتون، واختبأت مع أبناء عمومتها. لكنّ صديقًا مالكها تعرّف عليها في السوق. عرض سيدها على الفتية المحليين عشرين دولارًا للتسليم بالإضافة إلى جميع نفقات الرحلة الضرورية.

لم يكن قد سافر إلى ذاك البُعد قط. لكن كلما ذهب نحو الشمال أكثر، تغيّرت مفاهيمه. كم كانت البلاد كبيرة! كل ولاية أكثر جنونًا وتعقيدًا من التي تسبقها. أشعرته جلبة واشنطن العاصمة بالدوار. تقيًا عندما التف بعد زاوية ما ورأى موقع بناء الكونغرس، وأفرغ أحشاه إما من المَخار السيئ أو تضحّم الشيء الذي يُثير التمرد في روحه. سعى إلى أرخص الحانات واستمع بذهنه إلى قصص الرجال بينما يهزّش القمل. حتى أقصر رحلة بالعبارة كانت تنقله إلى جزيرة جديدة، متوهجة ومهيبة.

في سجن ترينتون عامّله المفوّض كرجل ذي مكانة. لم يكن ما يفعله سهلًا سهولة جلد فتى ملوّنًا ساعة الشفق، أو التسليّ بتخريب مهرجان للعبيد. بل كان عمله عمل رجال. في بستان خارج ريتشموند، قدّمت بيتسي اقتراحًا بذيئًا في مقابل حرّتها: رفعت ثوبها مستخدمة أصابعها النحيلة. كان فخذها نحيفين، وفمها واسعًا وعيناها رماديتين. لم يقدّم لها أيّ وعود. تلك هي المرّة الأولى التي يضاجع فيها امرأة. بصقت في وجهه عندما ربط سلاسلها، ومرة أخرى عندما وصلت قصر مالكها. ضحك السيّد وأبناؤه وهو يمسح وجهه، لكن العشرين دولارًا أنفقت في شراء أحذية جديدة ومعطف مزركش كان قد رأى بعض شخصيات العاصمة البارزة ترتدي مثله. ظل يرتدى الأحذية سنواتٍ عدّة، لكن

بطنه كبرت على المعطف في وقت أبكر.

كانت نيويورك في بداية وقت جامع. عمل ريدجواي كصائد عبيد، كان يتّجه شمالاً عندما يُرسل الجنود رسالة حول قبضهم على هارب من فيرجينيا أو كارولاينا الشمالية. أصبحت نيويورك وجهة متكررة، وبعد استكشاف جوانب جديدة من شخصيته، اختار ريدجواي المخاطرة. كان إعادة العبيد الهاربين إلى أسيادهم عملاً بسيطاً. وفي الشمال، اجتمعت المدينة الكبرى، مع حركة التحرير، والبراعة التي أظهرها مجتمع الملونين لتصوّر الحجم الحقيقي للمطاردة.

كان يتعلم بسرعة. وغدا الأمر أشبه بالتذكر من كونه تعلمًا. فالمتعاطفون والمرتزة يقومون بمساعدة الهاربين للوصول إلى موانئ المدينة. وفي المقابل، يزوّده عمّال السفن والموانئ والكتّبة بالمعلومات، فيقوم بحصد أولئك الأوغاد وهم على عتبة الخلاص. الزنوج الأحرار يبلغون عن إخوتهم وأخواتهم الأفارقة، بعد أن يقارنوا أوصاف الهاربين على صفحات الجرائد مع المخلوقات التي تتسلّل حول كنائس الملونين، والصالونات، وبيوت الاجتماعات. كان باري رجلاً ضخماً يبلغ طوله خمسة أقدام أو ستة، أو سبعة، بعيون صغيرة ونظرة وقحة. وكانت هاستي في مرحلة متقدمة جدًّا من حملها، ويُفترض أن تُنقل من قبل شخصٍ ما، لأن ليس بإمكانها تحمّل عبء السفر. تكوّم باري بتدّمّر، بينما هاستي وجزوها يعويان على طول الطريق إلى شارلوت.

سُرعان ما صار يملك ثلاثة معاطف جيّدة. انضمّ ريدجواي إلى دائرة من مُطاردي العبيد أشبه بسفّاحين في سباق سخيف، يرتدون شترات سوداء. كان عليه إثبات أنه لم يكن ضعيفًا مرّة واحدة على الأقل. يطاردون الهاربين معًا عدّة أيّام، يختبئون خارج أماكن العمل حتى

تسبح الفرصة، ويقتحمون أكواخ الزنوج ليلاً لاختطافهم. وذلك بعد أن تكون مرّت سنوات على هربهم من المزرعة، بعد أن يتزوجوا ويكونوا أسراً، وبعد أن يكونوا قد أفنعوا أنفسهم أنهم أحرار. كما لو أن الملاك ينسون ممتلكاتهم. جعلتهم أوهامهم فريسة سهلة. كان يزدي صيد الملّونين الأحرار وإجبارهم وبيعهم، مثل عصابات النقاط الخمس الذين يمسكونهم ويجزّونهم جنوباً لبيعهم في المزاد. كان ذلك سلوكاً حقيراً، سلوك رجال الدوريات. لكنه يعمل الآن مسترجع عبيد.

كانت مدينة نيويورك مصنعاً لمشاعر مناهضة العبودية، بحيث يجب الحصول على توقيع المحاكم قبل السّماح لريدجواي بأخذ طريدته جنوباً. فقد وضع المحامون من مناهضي العبودية متاريس من الأعمال الورقية، في كل أسبوع حيلة جديدة. كانت نيويورك ولاية حُرّة، كما جادلوا، وأي شخص ملّون يُصبح حُرّاً بطريقة سحرية بمجرد أن يدخل حدودها. استغلّوا التباينات المفهومة بين النشرات والأفراد في قاعة المحكمة - هل هناك دليل على أن بنيامين جونز هذا كان هو نفسه بنيامين جونز المطلوب؟ فمعظم المزارعين لم يستطيعوا تمييز عبدٍ من آخر، حتى بعد أخذهم إلى الفراش. لا عجب أنهم يفقدون ممتلكاتهم. أصبح الأمر لعبة، مثل التمكنّ من أخذ العبيد من السّجن قبل أن يكشف المحامون عن آخر حيلهم. الحماقة العقلية العالية للمحامين ضدّ قوة عمّلة المزارعين. كان مسجّل المدينة يأتي به إلى الهاربين الذين سجنوا حديثاً كي يحصل على مكافأته، وبسرعة يوقع على إطلاق سراحهم. وبذلك، يكونون في منتصف الطريق إلى نيو جيرسي قبل أن ينهض محاربو العبودية من فراشهم.

عند الحاجة يتجاوز ريدجواي المحكمة، لكن ليس دائماً. كان من

الصعب أن توقّف عبداً في الطريق داخل ولاية حُرّة، خاصّة لو كان يمتلك لساناً فصيحاً. فما أن يخرج العبيد من المزرعة فإنهم يتعلمون القراءة، كان ذلك وباءً.

وبينما كان ريدجواي ينتظر المهريين على الأرصفة، كانت السفن الرائعة القادمة من أوروبا تحطّ المرساة وتُنزل ركبها. كانوا نصف جوعى، جلّ ما يملكونه يوجد في حمولة أكياس. كانوا بأئسين كالعبيد بكل المقاييس. لكنهم سوف يوضعون في أماكنهم الصحيحة، مثلما حدث معه. كان عالمه كلّه أثناء نشأته في الجنوب موجةً صغيرة من هذا الوصول الأول. هذه الفيضانات البيضاء القذرة التي ليس لديها مكان للذهاب إليه سوى الخارج. الجنوب. الغرب. القواتين نفسها تحكّم القمامة والناس. مزاريب المدينة فاضت بالمخلفات والرّفص - لكن الفوضى تجد مكانها في الوقت المناسب.

كان ريدجواي ينظر إليهم وهم ينزلون سلّم السفينة بأفواه فاغرة وذهول، مبهوتين من قوّة المدينة. بينما الإمكانيات تقبع أمام هؤلاء الحُجاج مثل مآذبة، فقد كانوا جوعى جدّاً طوال حياتهم. لم يروا شيئاً كهذا قط، لكنهم سيتركون بصماتهم على هذه الأرض الجديدة، وبالتأكيد تلك النفوس الشهيرة في جامستون، ويحققون ما يصبون إليه من خلال منطق عِرقيّ لا يمكن إيقافه. لو كان من المفترض أن يحصل الزوج على حرّيتهم، لما كانوا مقيّدين بأغلال. ولو كان من المفترض أن يحافظ الهنديّ الأحمر على أرضه، كانت ستظل ملكه إلى الآن. ولو لم يكن مقدراً للرجل الأبيض أن يتخذ هذا العالم الجديد، لما صار ملكه الآن.

كانت هذه هي الروح العظيمة الحقيقية، الخيط الإلهي الذي يربط كل

المساعي البشرية - إذا تمكنت من إبقائه، فهو ملكك. ضمن ممتلكاتك، العبيد أو القاذرة. هذه هي الحتمية الأمريكية.

حصل ريدجواي على شهرة بموهبته في ضمان أن تظل الملكية ملكية. عندما يهرب عبد أسفل زقاق، كان يعرف أين يختبئ. الاتجاه والهدف. حيلته: لا تتكهن إلى أين سيتجه العبد تاليًا. بدلاً من ذلك ركز على فكرة أنه يهرب منك، لا من سيد قاس، أو من مؤسسة العبودية الواسعة، لكن أنت على وجه التحديد. نجح هذا الأمر مرارًا وتكرارًا، وكانت تلك حقيقته الحديدية الخاصة، في الأزقة وحقول الصنوبر والمستنقعات. وأخيرًا ترك والده وراءه، ومعه ترك عبء فلسفة ذلك الرجل. لم يملك ريدجواي الروح. لم يكن حدًا إذًا ينفذ الطلبات. لم يكن المطرقة. ولا السندان. بل كان الحرارة.

توفي والده وتولى الحداد المجاور أعماله. لقد حان وقت العودة جنوبًا إلى وطنه، إلى فرجينيا أو أبعد، أينما قاده العمل - وقد عاد ومعه عصابة. كان هناك كثير من الهاربين يستطيع التعامل معهم بمفرده. إيلي ويتني هو من استنفذ كل طاقات والده، كان الرجل العجوز يسعل السخام على فراش موته، بينما أبقى إيلي ريدجواي في مطاردة الهاربين. كانت المزارع أكبر بمرتين، أوفر بمرتين، والهاربون أكثر وفرة ومهارة، ومكافآت الصيد أعلى. كان هناك تدخّل أقلّ من المُشرّعين ومناهضي العبودية في الجنوب، ورأى المزارعون ذلك. لم تملك السكك الحديدية السرية أيّ خطوط للتحديث عنها. الفخاخ في اللباس الزنجي، والرموز السرية على صفحات الجرائد الخلفية. كانوا يفتخرون علنًا بأعمالهم التخريبية، وهم يجعلون عبدًا يتسلل من الباب الخلفي بعد أن كسر صياد العبيد الباب الأمامي. كانت مؤامرة إجرامية مكرّسة لسرقة

الممتلكات، وقد تعامل ريدجواي مع وقاحتهم تلك كإهانة شخصية. مَقَّتَه أحدُ تُجَّارِ ديلابوير بشكل خاص: اسمه أغسطس كارتر. مُنخرط بشدّة في التقليد الأنجلو ساكسوني، يعيونه الزرقاء الباردة التي تجعل أي شخص يلتفت إلى حُججه الصغيرة حتى ولو لم يكن مهتمًا. كان أسوأ نوع هو مُناهض العبوديّة الذي يملك مطبعة. «سُيَعَدّد اجتماع جماهيريّ لأصدقاء الحرية في قاعة ميلر في الساعة الثانية بعد الظهر. ليشهدوا ضد قوّة الرّقّ الجائرة التي تسيطر على الأمة». يعرف الجميع أن منزل كارتر هو محطّة - تفصله مائة ياردة فقط عن النهر - حتى عندما تعود غارات التفتيش عن العبيد فارغة. يُثني على كرمه الفارّون الذين يتحولون إلى نشطاء في خطبهم في بوسطن. ويقوم جناحُ مُناهضي الرّقّ الميثوديين بتوزيع كتيّباته صباح يوم الأحد، وتنشر دوريات لندن حججه دون طعن. المطبعة، وأصدقاؤه القُضاة، أجبروا ريدجواي على التخلّي عن اتهاماته في ثلاث مرات على الأقل. وعندما يمرّ بجانب ريدجواي خارج السّجن، كان يحيّيه بقُبّعته. لم يكن لمطارد العبيد خيار سوى استدعاء الرجل بعد منتصف الليل. قام بخياطة أغطية رأس من أكياس الدقيق البيضاء لكنه بالكاد تمكن من تحريك أصابعه بعد تلك الزيارة - تورمت قبضاته مُدّة يومين بسبب ضرب الرجل على وجهه. وقد سمح لرجاله أن ينتهكوا زوجة الرجل بطرق لم يسمح لهم باستخدامها مع فتاة زنجية من قبل. لسنوات، عندما كان ريدجواي يرى المشعل، كان يتذكر رائحة الدخان الحلو وهو يتصاعد من منزل كارتر، وشيخ ابتسامة يستقر على فمه. سمع في وقت لاحق أن الرجل انتقل إلى ورسستر وأصبح إسكافيًا. كانت أمهات العبيد يُقلن لأبنائهنّ: فلتهدّب سلوكك أو سيأتي السيد

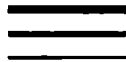
ريدجواي لأجلك.

بينما يقول الأسياد: أرسلوا في طلب ريدجواي.

عندما استُدعي أول مرّة إلى مزارع راندال، كان جاهزاً للتحدّي. فلتّ العبيد من قبضته من وقت لآخر. لم يكن خارقاً، لكنّه استثنائيّ. ظلّ فشله واختفاء ما بل يؤرّقه وقتاً أطول ممّا ينبغي، وكان يُصدر طنيناً في قلعة عقله.

عند عودته، كان عليه أن يجد ابنة تلك المرأة. فهو يعرف لماذا كدّرته المهمة السابقة، فرغم أن ذلك يبدو مستحيلًا، إلا أن السكك الحديدية السرية لديها منفذ في جورجيا. وسوف يجدها. ويدمرها.

كارولينا الجنوبيّة





جائزة بقيمة 30 دولارًا

سوف تسلّم للشخص الذي يسلمني، أو يحجز في أي سجن في الولاية، فتاةً زنجيةً تبلغ من العمر 18 عامًا، هاربة منذ تسعة أشهر. إنها فتاة بارعة، وسوف تحاول دون شك المرور كأنها شخص حر. تحمل ندبةً ملحوظة على كوعها ناجمة عن حرق. لقد أبلغوني أنها موجودة بالقرب من إدينتون.

بنجامين. بي. ويليس

مورفريسبورو، ٥ يناير ١٨١٢



عاش آل أندرسون في منزل جميل في زاوية شارعِي واشنطن والمين، على بعد بضعة أحياء من ضجيج المتاجر والشركات، حيث تتحول المدينة في تلك الجهة إلى مساكن للأثرياء. خلف الشرفة الأمامية الواسعة، حيث يفضل السيد والسيدة أندرسون الجلوس في المساء، جلس الرَّجل يدخّن سيجارة بينما المرأة منهمكة في أعمال التطريز، وفي هذه المساحة يوجد الصالون وغرفة الطعام والمطبخ. قضت بيبي معظم وقتها في هذا الطابق الأول، تطارد الأطفال، وتعد وجبات الطعام، وترتب المنزل. في الجزء العلوي من الدّرج كانت غرف النوم - كانت مايبي وريموند الصغير يتقاسمان الغرفة - والحمام الثاني. كان ريموند الصّغير يأخذ قيلولة طويلة في فترة ما بعد الظهر بينما تحب بيبي الجلوس في مقعد النافذة مستغرقة في أحلامها. كان بإمكانها فقط رؤية الطابقيين العلويين من مبنى غريفين، بزواياه البيضاء التي تشتعل تحت أشعة الشمس.

اليوم أعدت غداءً يتكون من الخبز والمرى لمايسي، وأخذت الصبي في نزهة، ونظفت الفضّيات والأواني الزجاجيّة. وبعد أن غيّرت بيبي مفارش الأسرة، ذهبّت هي وريموند لأخذ مايبي من المدرسة واتجهوا صوب الحديقة. قرب النافورة عازف كمان يعزف أحدث الألحان

بينما يلعب الأطفال وأصدقائهم لعبة الاختباء ومطاردة الحبل. كان عليها أن تُبعد ريموند عن فتىٍ متنمّر، وتحزّص في الوقت نفسه على عدم إزعاج والده الفتى الوغد التي لم تتمكن من تمييزها. اليوم هو الجمعة، ما يعني أنّ اليوم ينتهي بالتسوّق. كانت الشّمس قد غربت على أي حال. وضعت يبسي لحم البقر والملح والحليب وبقية المؤن على حساب الأسرة. ووقّعت بحرف (X).

جاءت السيدة أندرسون إلى المنزل في الساعة السادسة مساءً. فقد نصحتها طبيب الأسرة بقضاء مزيد من الوقت خارج المنزل. عملها في جمع أموال التبرّعات للمستشفى الجديد ساعدها في البقاء خارجًا وقتًا أطول، إضافة إلى وجبات الغداء التي تتناولها مع سيدات الحي الأخرى. كانت في مزاج جيد، تتقرب من أطفالها بالقبلات والعناق وتعدّهم بالحلوى بعد العشاء. كانت مايسي تتقافز وتنتحب. شكرت السيدة أندرسون يبسي لمساعدتها وتمنت لها ليلة جيدة. إنّ السّير نحو المهاجع على الجانب الآخر من المدينة لم يكن سيرًا طويلًا. كانت هناك طرق مختصرة، لكن يبسي تحب الحيويّة التي تنشط في الشارع الرئيسي مساءً، والاختلاط بسكّان المدينة، البيض منهم والملونين. كانت تمشي بجانب خطّ اللّؤسّسات، ولم تفشل قط في التسكّع قليلاً أمام الواجهات الزجاجية الكبيرة: الخياطة وإبداعاتها الملوّنة ملتقّة على سلك مطروق، والمراكز التجارية المتخمة وعجائبها من السّلع، والمخازن العامّة المتنافسة على جانبي الشارع الرئيسي. كانت تمارس لعبة معرفة أحدث الإضافات إلى شاشات العرض. وما زالت الوفرة تُدهلها. وكان الأكثر إثارة للإعجاب من بين جميع تلك الأشياء هو مبنى غريفين بطوابقه الاثني عشر، كان واحدًا من أطول مباني البلاد، وبالتأكيد كان

الأكثر ارتفاعًا من بين مباني الجنوب. ويمثل فخر المدينة. هيمن البنك على الطابق الأول، مع سقفه المقوّب ورخام تينيسي. لم يكن لدى ييسي عمل هناك لكنها لم تكن غريبة على الطوابق العلوية. ففي الأسبوع الماضي أخذت الأطفال لرؤية والدهم في عيد ميلاده، واستطاعت سماع وقع خطواتها في الردهة الجميلة. نقلها المصعد، الذي كان المصعد الوحيد في مُحيط مئات الأميال، إلى الطابق الثامن. لم يعد مايسي وريموند معجبين بهذا الجهاز، بعد أن زاروه عدة مرات، لكن ييسي لم تكف أبدًا عن إبداء بهجتها وخوفها من سحره، وهي تمسك الحواجز النحاسية تحسُّبًا لوقوع كارثة.

مروا بطوابق وكلاء التأمين، والمكاتب الحكوميّة، وشركات التصدير. كانت الشواغر نادرة في هذا المبنى؛ كان عنوان غريفيّن نعمة عظيمة لسمعة الأعمال. احتشد طابق السيد أندرسون بمكاتب الحمامة: بسجّادها الفاخر، وجدرانها ذات الخشب البني الداكن، والأبواب المطعمة بالزجاج البلوري. كان السيد أندرسون يعمل في العقود الخاصة بتجارة القطن. اندهش جدًّا لرؤية أسرته. تلقى الكعكة الصغيرة من الأطفال بابتهاج، لكنه أوضح حرصه على العودة إلى أوراقه. للحظة تساءلت ييسي لو كان سيوبخها، لكن ذلك لم يحدث. فقد أصرت السيدة أندرسون على الرحلة. فتح سكرتير السيد أندرسون الباب وأخذت ييسي الأطفال إلى دكان الحلوى.

هذا المساء عبرت ييسي بجانب أبواب البنك النحاسية اللامعة وأكملت طريقها نحو المنزل. مثل هذا الصرح الرائع، كلّ يوم، نصبًا تذكاريًا للتغيير العميق في الأحداث. سارت على الرصيف كأنها امرأة حرة. لم يطاردها أيُّ يبيئٍ معاملتها أحد. بل إن بعض المعارف من دائرة

السيدة أندرسون، ممن يعرفن أن يبسي تعمل لديها، يبتسمن لها في بعض الأحيان.

عبرت يبسي الشارع لتجنّب جلبه الصالونات وزبائنها سيئ السمعة. أوقفت نفسها قبل أن تبحث عن وجه سام بين السُّكاري. في الجانب الآخر ظهرت المنازل الأكثر تواضعًا للسكان البيض الأقل ازدهارًا. بدأت تسرع في خطواتها. ثمة منزل هناك رمادي اللون، في الزاوية، لا يبالي أصحابه بالعروض الوحشية التي يقدمها كلهم، وهناك سلسلة من الأكواخ حيث تحدّق الزوجات عبر النوافذ بتعبيرات مُربكة. عمل عديد من الرجال البيض في هذا الجزء من المدينة بحارة، أو عمّالًا في المصانع الكبرى. ولم يميلوا إلى استخدام العمالة الملونة، لذلك لم تكن يبسي تعرف كثيرًا عن حياتهم اليومية.

وصلت الآن منطقة المهاجع. المباني ذات الطوب الأحمر المكونة من طابقين كان قد اكتمل تشييدها قبل وقت قصير على قدوم يبسي. ومع الوقت سوف تمنح الشتلات والأسيجة النباتية المحيطة ظلّها وطابعها الخاص للمكان؛ فهي الآن تنمو بوتيرة جيدة. كان الطوب نقيًا، لونه دون شوائب، وليس فيه كثير من بقع الطين التي يخلّفها المطر عادة. لا وجود ليرقات تزحف عند الزواية. وفي الداخل، ما تزال رائحة الطلاء الأبيض طازجة في الغرف المشتركة، وغرف الطعام، والغرف ذات الأسرة المكوّنة من طابقين. لم تكن يبسي الفتاة الوحيدة التي تخشى لمس أي شيء سوى مقابض الأبواب. أو التي تخاف ترك علامة أو خدشة. حيّت يبسي السكّان الآخرين عند عبور بعضهم على الرصيف. بعضهم عائد من العمل، وآخرون مغادرون لرعاية الأطفال حتى يتمكن آباؤهم من تقاسم المساء اللطيف. كان نصف السكان الملونين يعملون أيام

السبت، لذا تكون ليلة الجمعة حافلة.

وصلت رقم 18. حيّت الفتيات اللواتي تُجدلن شعورهن في الغرفة المشتركة ثم صعدت الطابق العلوي لتغيّر ملابسها قبل موعد العشاء. عندما جاءت يبسي إلى البلدة، كانت معظم الأسرّة الثمانين في غرف النوم مشغولة. ولو وصلت قبل يوم واحد فربما كان بإمكانها أن تنام على سرير تحت إحدى النوافذ. قد يمرّ بعض الوقت قبل أن ينتقل شخص ما وتتمكن من الانتقال إلى مكان أفضل. أحببت يبسي النسيم الذي تمنحه النوافذ. وإذا نقلت جسدها إلى الناحية الأخرى فقد ترى النجوم في بعض الليالي.

فتحت يبسي الحقيبة الموضوعة أسفل سريرها وأخرجت الثوب الأزرق الذي ابتاعته في الأسبوع الثاني من وصولها إلى كارولينا الجنوبية. فردته على ساقها. ملمس القطن الناعم على جلدها ما زال يشعرها بسعادة غامرة. خلعت يبسي ملابس العمل ووضعتها داخل كيس أسفل السرير. ففي الآونة الأخيرة كانت تغسل ملابسها يوم السبت عقب دروسها المدرسية. كان تنظيف المهجع وترتيبه هو ما تفعله لقاء نومها، وقد سمحت لنفسها بحضور تلك الدروس في صباحات السبت تلك تساهلاً.

يتكون العشاء من الدجاج المشوي والجزر والبطاطس. عاشت مارغريت كوك في المهجع رقم 8. ورأى المشرفون أنه من الحكمة أن يقوم العاملون في التنظيف والطهي داخل المهجع بفعل ذلك في مبانٍ أخرى غير التي يسكنونها. فكرة صغيرة لكنها جديرة بالاهتمام. كانت مارغريت تُكثر من الملح، رغم أن اللحوم والدواجن التي تطهوها كانت دائماً طرية بشكل رائع. أبعدت يبسي الدهون بقطعة الخبز بينما

تستمع إلى الحديث عن الخطط المسائية. لم تخرج معظم الفتيات في الليلة التي سبقت الحفل الاجتماعي، لكن الفتيات الأصغر سنًا كن ذاهبات إلى حانة الملوّنين التي أفتتحت مؤخرًا. ورغم أن الأمر لم يكن مشهورًا، فقد قَبِلت الحانة الأوراق الماليّة المؤجّلة الدفع. وقد كان ذلك سببًا آخر لتجنب المكان كما اعتقدت يبسي. أعادت أطباقها إلى المطبخ وتوجهت إلى الطابق العلوي.

"يبسي؟"

"مساء الخير يا آنسة لوسي"، قالت يبسي.

من النادر أن تبقى الآنسة لوسي حتى هذا الوقت المتأخر من يوم الجمعة. إذ يختفي معظم المديرين عند الساعة السادسة. وقد سمعت يبسي فتيات المهاجع الأخرى يتحدثن عن أن اجتهاد الآنسة لوسي يجب أن يُشعر زملاءها بالعار. من المؤكد أن يبسي استفادت من مشورتها مرات عدّة. وقد أعجبت بملابسها المهندمة والملائمة دائمًا. كانت الآنسة لوسي تسرّح شعرها بطريقة مميزة وأضافت النظارات الصراماة على مظهرها، لكن ابتسامتها السريعة كانت تكشف عن جانبها الداخلي.

"كيف حالك؟" سألت الآنسة لوسي.

"أعتقد أنني سأقضي ليلة هادئة في المسكن يا آنسة لوسي"، قالت يبسي.

"مهجع يا يبسي وليس مسكنًا".

"نعم يا آنسة لوسي".

"سوف أقضي وليس سأقضي".

"أعمل على ذلك".

"وها أنتِ تحقّقين تقدّمًا مذهلاً!" قالت الآنسة لوسي وربّنت على ذراع

بيسي. «أريد التحدث إليك صباح الاثنين قبل ذهابك إلى العمل».

"هل من خَظْب يا أنسة لوسي؟"

"لا، على الإطلاق يا بيسي. سوف نتحدّث حينها". انحنيت قليلاً ومضت نحو المكتب. انحنيت لفتاة ملونة!

بيسي كاربنتر كان الاسم في الأوراق التي سلّمها لها سام في المحطة. بعد أشهر، ما زالت كورا تجهل كيف نجت من رحلة جورجيا. فسرعان ما عمّ الظلام النفق فصار قبراً. الضوء الوحيد جاء من مقصورة السائق، عبر شقوق في الجزء الأمامي من العربة المتهاكّة. في مرحلة ما كانت العربة تهتز بشدة فوضعت كورا ذراعها حول سيزر وبقياً على هذا الحال فترةً أشعرتهما بشعور جيد، وفي الهزات الأقوى انضغطت أجسادهما بينما يستلقيان على القش. كان للإمساك به شعور جيد، وكذلك الإحساس بالضغط الدافئ لصدّره أثناء تنفّسه.

ثم تباطأت العربة. وقفز سيزر. لم يصدّق الأمر بسهولة، رغم أن الإثارة التي تمكنت من الهاربين كانت قد قلّت كثيراً. في كل مرة يكملان جزءاً من رحلتها، يبدأ جزء آخر غير متوقع. حظيرة الأغلال، الحفرة على الأرض، هذه العربة المتهاكّة - اتجاه السكك الحديدية السرية كان يقود نحو الغرابة. قالت كورا لسيزر إنه عند رؤية الأغلال، خشيت أن يكون فليتش قد تأمر مع تيرانس منذ البداية ونقلهما إلى غرفة من الأهوال. أرضهم، الهروب، ووصولهم، جميعها كانت عناصر عرضٍ حيّ تفصيلي.

كانت المحطة مماثلة لنقطة انطلاقهما. بدلاً من المقعد كان هناك طاولة وكراسي. اثنان من الفوانيس معلقة على الحائط، وسلة صغيرة

موضوعة بجانب الدرج.

أنزلهما المهندس من العربة. رجلٌ ذو قامة مديدة وشعر أبيض يغطي رأسه وظهر محدودب بفعل سنوات العمل الميداني الطويلة. مسح العرق والسخام عن وجهه وكان على وشك الكلام عندما داهمه سعال شرس هز كيانه. تجرع قطرات ماء من قارورته فاستعاد هدوءه.

أوقف كلمات الشكر التي وجهت له وقال. «هذه وظيفتي: تغذية الرجل والتأكد من أنه يعمل، إيصال الركاب إلى حيث يودون الوصول. انتظرا هنا حتى يأتون لأجلكما». اختفى القطار في لحظات، وترك خلفه دوامة من البخار والضوضاء.

احتوت السلة على مؤن: خبز، ونصف دجاجة، وماء، وزجاجة من البيرة. كانا جائعين جدًا، حتى أنهما تقاسما الفتات في قعر السلة. وأخذت كورا رشفة من البيرة.

جلسا على عتبات الدرج في انتظار آخر ممثل للسكك الحديدية السرية. كان سام رجلًا أبيض في الخامسة والعشرين من عمره لكنه لم يُبدي أيًا من التصرفات الغريبة التي قام بها زملاؤه في العمل. كان قويًا ومرحًا، يرتدي سروالًا مدبوغًا وقميصًا أحمر اللون سميكا بدا أنه عانى من كثرة الغسيل. التف أسفل شاربه، وكان يضح بالحماس. صافح عامل المحطة أيديهما وحياهما، غير مصدق. «لقد نجحتما!» قال سام. «أنتما هنا بالفعل».

جلب سام مزيدًا من الطعام. جلسوا على طاولة متهالكة ليقوم سام بوصف العالم الموجود في الأعلى. قال سام "أنتما بعيدان جدًا عن جورجيا. لكارولينا الجنوبية موقف أكثر استنارة بخصوص تطوّر الملونيين عن بقية الجنوب. سوف تكونان بأمان هنا حتى تتمكن من

ترتيب المحطة التالية من رحلتكما. قد يستغرق الأمر بعض الوقت». «إلى متى؟» سأل سيزر.

"لا أعلم بالضبط. هناك كثير من الناس يتمّ نقلهم، محطة واحدة في كل مرة. من الصعب إيصال الرسائل. السكك الحديدية هي عمل الرب، لكن إدارتها صعبة للغاية". شاهدتهما وهما يلتهمان الطعام بمتعة واضحة. «من يدري؟» قال. «ربما ستقرران البقاء. كما قلت، كارولينا الجنوبية تختلف عن كلّ ما رأيتماه».

ذهب سام إلى الطابق العلوي وعاد بملابس وبرميل ماء صغير. «عليكما الاغتسال»، قال. «لأنني أعتزم أخذكما إلى أروع الطُرُق!» جلس على الدرج لمنحهما بعض الخصوصية. سمح سيزر لكورا بأن تغتسل أولاً، وانضمّ لسام. تعرّيبها لم يكن جديداً عليه، لكنها قدّرت فعلته. بدأت كورا بوجهها. كانت قذرة، ورائحتها سيئة، وعندما اعتصرت القماش، خرجت منه مياه داكنة.

لم تكن الملابس الجديدة قاسية مثل أقمشة ملابس الزوج، كانت من القطن الذي أشعر جسدها بالنظافة، كما لو كانت قد فُرِكت بالصابون حقًا. كان الفستان بسيطًا، ذا لون أزرق فاتح مخطّط، لكنه لم يكن يشبه أي شيء ارتدته من قبل. يدخل خيط القطن من ناحية، ويخرج من ناحية أخرى.

عندما انتهى سيزر من الاغتسال، قدّم لهما سام الأوراق. «الأسماء خاطئة بالطبع»، قال سيزر. «أنتما هاربان»، ردّ سام. "الآن أنت هذا الشخص الذي في الأوراق. يجب عليكما حفظ الأسماء والقصة الجديدة في ذاكرتكما جيّدًا". ربما لما يكونا هاربين فقط - بل قتلًا أيضًا. لم تفكر كورا في الصبي منذ أن دخلت السكك الحديدية. ضاقت

عينًا سيزر وبدا كأنه يفكر في الأمر نفسه. قررت كورا أن تخبر سام عن القتال في الغابة.

لم يقم وكيل المحطة بإصدار أية أحكام وبدا تعيسًا حقًا لمصير لوفي. أخبرهما أنه آسف على صديقتهما. "لم أسمع عن ذلك. أخبار من هذا القبيل لا تصل هنا كما تبلغ أماكن أخرى. ربما يكون الصبي قد تعافى، لكن هذا لا يغير موقفكما. من الأفضل أن تحملنا أسماء جديدة».

"تقول الأوراق إننا ملكية الحكومة الأمريكية"، أشار سيزر.

قال سام: «هذه أمور تقنية»، كانت العائلات البيضاء تتوافد إلى كارولاينا الجنوبية سعيًا لفرص عمل، آتيةً من أماكن بعيدة كنيويورك وفقًا لما تقول الصحف. وكذلك فعل الرجال والنساء الأحرار في هجرة لم تشهدها البلاد من قبل. جزء من الملونين كانوا فارين، على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يدلنا على العدد الحقيقي، وذلك لأسباب واضحة، فمعظم الملونين في الولاية اشتريتهم الحكومة. تم إنقاذهم من الأحياء في بعض الحالات أو شراؤهم في مبيعات العقارات. استكشف الوكلاء المزايدات الكبيرة. الأغلبية تم الحصول عليهم من البيض الذين تركوا العمل في مجال الزراعة. إذ لم تكن الحياة الريفية مناسبة لهم، حتى لو كانت الزراعة هي الطريقة التي تربوا عليها وهي إرث أسرهم. كانت هذه حقبة جديدة. عرضت الحكومة شروطًا وحوافز سخية جدًا للانتقال إلى المدن الكبيرة مثل الرهون العقارية والتخفيف الضريبي. «والعبيد؟» سألت كورا. لم تفهم الحديث المالي، لكنها فهمت من حديثه أن الناس يباعون كممتلكات.

"يحصلون على الغذاء، والوظائف، والسكن، ويتنقلون كيفما يحلو لهم، ويتزوجون من يريدون، ويربون أطفالًا لن يتم أخذهم بعيدًا.

ويعملون في وظائف جيدة أيضًا، ليس عمل العبيد. سترين كل ذلك قريبًا». كانت هناك فاتورة بيع موجودة ضمن ملف داخل صندوق في مكان ما كما فهمنا، ذلك هو كل شيء. لا شيء سيؤخذ ضدنا. أحد الأشخاص المؤتمنين في مبنى غريفين هو من زور هذه الأوراق لأجلهم. "هل أنتما جاهزان؟" سأل سام.

نظر سيزر وكورا إلى بعضهما. ثم مدّ يده مثل رجل نبيل. «سيدتي؟» لم تستطع منع نفسها من الابتسام، وخطيا نحو ضوء النهار معًا. كانت الحكومة قد اشترت بيبي كارينتر وكريستيان ماركسون من جلسة إفلاس حدثت في كارولينا الشمالية. وساعدهما سام على التدرّب على ذلك أثناء سيرهم نحو المدينة. كان يعيش على بُعد ميلين في كوخ بناه جدّه. كان والداه يديران متجر نحاس عند الشارع الرئيسي، لكن سام اختار طريقًا مختلفًا بعد وفاتهما. قام ببيع المتجر إلى أحد المزارعين الكثر الذين قدموا إلى كارولينا الجنوبية بحثًا عن بداية جديدة، وهو يعمل الآن في حانة "ذا دريفت" التي يملكها صديقه بسبب أن المكان يناسب شخصيته. حيث يحب سام مشهد الحيوان البشري عن قرب، فضلًا عن تمكّنه من الوصول إلى أخبار المدينة ما إن يبدأ الزبائن في الثمالة ويخفّ لسانهم. كان يختار ساعات عمله الخاصة، والتي كانت رصيدًا في مشروعه الآخر. دُفنت المحطّة تحت حظيرته، مثلما هو الحال مع لومبلي.

في الضاحية قدّم لهما سام توجيهات مفصّلة لمكتب التنسيب. «في حال ضللتما الطريق، اجعلا هذا المبنى صوب أعينكما»، وأشار إلى مبنى عالٍ يشبه أعجوبة - "وتوجّها يمينًا مع بلوغكما الشارع الرئيسي". ثم أخبرهما أنه سيتواصل معهما لو عرف معلومات أخرى.

سار سيزر وكورا صوب البلدة على الطريق الترابيّ بذهول غير مصدقين. أوشكا على القفز داخل الغابة عندما مرّت عربات تجرّها دواب. كان السائق صبيًا ملونًا حيّاهما بقبّعته بطريقة رائعة، غير مكترث، كما لو أن شيئًا لم يكن. كيف يحمل مثل ذلك التأثير في سنّه الصغيرة تلك! وعندما ابتعد عن أنظارهما قهقها على سلوكهما المضحك. عدّلت كورا من مشيتها ورفعت رأسها عاليًا. كان عليهما تعلّم السير مثل الأحرار. في الأشهر التالية أتقنت كورا الأمر. لكن حروفها وكلماتها كانت تتطلب عملاً أكثر. بعد حديثها مع الأنسة لوسي، أخرجت كتابها التمهيدي من الحقيبة. وبينما تثرثر الفتيات الأخريات وتتمنى كل واحدة ليلة جيدة لصاحباتها، كانت كورا تتدرب على الحروف. في المرة القادمة التي ستوقّع فيها عند شراء الحاجيات من محلات البقالة لآل أندرسون، سوف تكتب بيسي بخط جيّد. أطفأت الشمعة عندما تشنّجت يدها من شدة التعب.

كان أنعم سرير استلقت عليه. لا، بل كان أوّل سرير استخدمته في حياتها.

لابدّ أن الآنسة هاندلر قد ترعرعت في حضان القديسين. فرغم أن الرجل العجوز في الصف كان غير كفاء بما يكفي فيما يتعلق بأساسيات الكتابة والحديث، فإنّ المعلّمة كانت مهذبة ومتسامحة على الدوام. كان الصف بأكمله - مبنى المدرسة يمتلىء صباح السبت - يتنقل عبر المكاتب بينما يفشل الرجل العجوز ويختنق بدروس اليوم. نظرت الفتاتان الجالستان أمام كورا إلى بعضهما وضحكا على صوته المشوش.

انضمت كورا إلى بقية الصف في شعورهم بالسخط. كان من المستحيل فهم كلمة من هوارد في ظلّ الظروف العادية. كان يحبذ لغته الأفريقية المفقودة وحديث العبيد. في الأيام الخوالي، قالت لها والدتها، إنّ نصف اللغة هي صوت المزرعة. لقد سُرِقُوا من قُرى تتحدّث بالسنة عديدة تقع في جميع أنحاء أفريقيا. لكن مع مرور الوقت أنتزعت منهم الكلمات القادمة من جميع أنحاء المحيطات. وذلك ببساطة كي تُمحي هويّاتهم، لخنق الانتفاضات. كل الكلمات باستثناء تلك التي ما زالت محفوظة لدى الذين ما زالوا يتذكرون هويتهم التي كانوا عليها في الماضي. قالت مابل، «يُخفونها مثل الذهب الثمين»، لكن ذلك لم يكن في عهد أمها أو جدّتها. استهلكت محاولات هوارد قول «أنا» وقتّ الدرس الثمين،

والذي في الأساس كان قصيرًا بعد أسبوع العمل. لقد جاءت إلى هنا طلبًا للعلم.

هزت عاصفة مصاريع الباب وجعلت أطرافها تهتز. وضعت الآنسة هاندلر طباشيرها. "في كارولاينا الشمالية"، قالت، «ما نقوم به الآن يُعتبر جريمة. لكنك غرّمت مائة دولار وجُلدت تسعًا وثلاثين جلدة. هذا هو القانون. أما سيّدك فسيجد لك عقابًا أشدّ". تلاقت عينا المرأة وكورا. كانت المعلمة تكبّرها ببضع سنوات فقط لكنها جعلت كورا تشعر وكأنها زنجية جاهلة. «من الصعب أن نبدأ من لا شيء. فقبل بضعة أسابيع كان بعضكم يقف حيث هوارد الآن. الأمر يأخذ وقتًا ويتطلّب الصبر».

صرفتهم المعلمة. وبشعور يغمره الندم جمعت كورا أشياءها وتمنت أن تكون أول من يخرج من الباب. مسح هوارد دموعه بكم قميصه. تقع المدرسة على الجنوب من مهاجع الفتيات. وقد لاحظت كورا أن المبنى استخدم في الاجتماعات التي تحتاج أجواء أكثر جدية من الموجودة في الغرف المشتركة، مثل جمعيات النظافة والشؤون الأنثوية. كان المبنى يطل على مساحة خضراء، تمثل حديقة السكان الملونين. وعلى الشرفة أقامت فرقة موسيقية تقطن مهاجع الرجال حفلًا هذه الليلة لأجل الجماهير.

لقد استحقوا توبيخ الآنسة هاندلر. حافظت كارولاينا الجنوبية على موقف مختلف تجاه تطوّر الملونيين، كما أخبر سام كورا على المنصة. استمتعت كورا بهذه الحقيقة بطرق عديدة خلال الأشهر التالية، لكن توفير التعليم للملونين كان من بين أكثر الأشياء تغذية. ذات مرة خلع كونيبي عيني عبد لأنه كان ينظر في الكلمات. لقد خسر كونيبي عمل

جاكوب، لكن لو كان الرجل موهوبًا فسيعرّضه المشرف إلى عقاب أقلّ جذريّة. في المقابل، ينتاب كلّ عبدٍ من تعلّم الحروف خوف أبديّ بمجرد التفكير في ذلك.

لا لستم بحاجة إلى عيون لأجل تقشير الذرة، قال لهم كونيلى. أو لتجويع أنفسكم حتى الموت، كما فعل جاكوب بعدها.

لقد وضعت المزرعة خلفها. لم تعد تعيش هناك بعد الآن. انزلت ورقة من كتابها التمهيدي فطاردها على العشب. كان الكتاب يتمزق بسبب استعمالها هي والمالكيين السابقين. رأت كورا الأطفال الصغار، واحدة أصغر سنًا من مايسي، تستخدم كتابها التمهيدي نفسه. نُسخ جديدة مجلّدة بعناية. كانت الكتب التي يتمّ إحضارها من مدارس الملّونين مبقّعة ومكتوب عليها، وتضطرّ كورا إلى حشر حروفها بين كل تلك الكتابة السابقة.

كانت والدتها لتفخر بها. كما كانت والدة لوفي فخورة على الأرجح بابنتها بسبب هربها مُدّة يوم ونصف. أعادت كورا الصفحة إلى كتابها. وأبعدت المزرعة عنها مرة أخرى. كانت تتحسن في ذلك الأمر. لكن عقلها كان يراوغها ويحايلها رغم ذلك. تسلّت الأفكار التي لا ترغب بها من الجانبين، من تحت، من خلال الشقوق، ومن الأماكن التي حطّمتها.

على سبيل المثال دارت بعض الأفكار حول أمها. ففي أسبوعها الثالث في المهجع، طرقت باب مكتب الأنسة لوسي. ففي حال احتفظت الحكومة بسجّل لجميع الوافدين الملّونين، ربما وجدت اسم أمها ضمن أسماء عدّة. كانت حياة مايل بعد هروبها بمثابة اللغز. فمن المحتمل أنها ضمن من تم تحريرهم وجاؤوا إلى كارولينا الجنوبية بحثًا عن فرص. عملت الأنسة لوسي في غرفة أسفل الرواق من الغرفة المشتركة رقم

18. لم تكن كورا تثق بها، لكن ها هي تقف هناك أمام بابها. سمحت لها الأنسة لوسي بالدخول. كان المكتب ضيقًا، حيث كان عليها المرور عبر خزانات الإيداع المكتظة للوصول إلى مكتبها، لكنها أبتت المكان ممتعًا برسومات على الجدران تصور مشاهدًا زراعية. لم يكن هناك مجال لكرسي ثانٍ. كان على الزوّار أن يقفوا، ما جعل الزيارات قصيرة. نظرت الأنسة لوسي إلى كورا عبر نظاراتها. «ما اسمها؟»
"ما بل راندال".

"لكن اسمك كاربنتر"، قالت الأنسة لوسي.
"هذا اسم أبي. أمي تُدعى راندال".

"ذاك اسم أبي"، قالت الأنسة لوسي مصحّحة. «ذاك هو اسم أبي».
انحنت قبالة إحدى الخزانات ومررت أصابعها على الأوراق الزرقاء الملونة، بينما تحدّق في كورا من وقت لآخر. ذكرت الأنسة لوسي أنها عاشت مع مجموعة من المدربين في مبنى يقع قرب الساحة. حاولت كورا تخيل ما فعلته المرأة عندما لم تكن تدير المهجع، كيف تقضي أيام الأحد. هل لديها شاب يأخذها إلى بعض الأماكن؟ كيف تعيش امرأة بيضاء غير متزوجة في كارولاينا الجنوبية؟ ازدادت شجاعة كورا لكنها فضلت البقاء على مقربة من المهاجع عندما لا تكون لدى آل أندرسون. في تلك الأيام الأولى من الخروج من النفق بدا من الحكمة أن تقوم بذلك.

انتقلت الأنسة لوسي إلى خزانة أخرى، وفتحت سلسلة من الأدراج، دون أن تجد أي شيء. «هذه السجّلات تخصّ من يقيمون هنا في المهاجع»، قالت، «لكن لدينا مواقع في جميع أنحاء الولاية». كتبت الأنسة لوسي اسم والدتها ووعدت بالتحقق من السجلات الرئيسية في مبنى غريفين.

وللمرة الثانية ذكرت كورا دروس القراءة والكتابة، والتي كانت اختيارية يوصى بها، وذلك تمشيًا مع مهمتهم في دعم تطور الملونين، وخاصة لمن يملكون الكفاءة. بعدها عادت الأنسة لوسي إلى عملها.

كان الأمر يداهمها مثل نزوة. فبعد أن هربت مايل حاولت كورا الابتعاد عن التفكير عنها بقدر الإمكان. وبعد بلوغها كارولاينا الجنوبية أدركت أنها قامت بنفي والدتها بسبب الغضب وليس حزنًا عليها. كرهتها. وبعد أن ذاقت نعمة الحرية لم تفهم كورا أن مايل تركتها في ذلك الجحيم. نعم كانت رفقتها ستجعل الهروب أكثر صعوبة، لكن كورا لم تكن طفلة. إذ كان بإمكانها جمع القطن، فيماكانها الركض. كان من الممكن أن تموت في ذلك المكان، بعد تلك الوحشية التي لا توصف، لو لم يهب سيزر لنجدها. في القطار، في النفق الخالد، سألته أخيرًا لماذا أحضرها معه. ردّ سيزر: «لأنني كنت أعرف أن بإمكانك فعلها».

كيف كرهتها. في الليالي التي لا تعدّ التي قضتها في تلك العلية البائسة في الفرن، وهي تتقلب، وتركل المرأة التي بجانبها، وتبتكر طرقًا للهروب من المزرعة. مثل أن تتسلّل إلى حمولة قطن وتقفز إلى الطريق خارج نيو أورليانز. أو رشوة مشرف وتقديم خدمات له. أن تأخذ فأسها وتركض خلال الأراضي السبخة كما فعلت أمها البائسة. كل تلك الليالي المؤرقة. ومع ضوء الصّباح تبدأ بإقناع نفسها بأن حلّها كان حلّمًا. تلك ليست أفكارها، ليست كذلك على الإطلاق. لأنّ التجوّل صحبة تلك الأفكار في عقلك وعدم القيام بأي شيء تجاهها كان كالموت.

لم تعرف مكان هرب والدتها. ولم تنفق مايل حريتها في توفير المال لشراء ابنتها من العبودية، هذا مؤكّد. لم يكن راندال يسمح بذلك، لكن كان يجب أن تحاول. لم تجد الأنسة لوسي اسم والدتها في ملفّاتها. لأنه لو

حدث ذلك، كانت كورا ستذهب إلى مابل وتطرق باب شقتها.

"بيسي - هل أنت على ما يرام؟"

تلك أبيغيل من رقم 6، وهي تأتي أحياناً لتناول العشاء. كانت ودودة مع الفتيات اللاتي يعملن في شارع مونتغمري. وقفت كورا محدقة في منتصف الحديقة. قالت لأبيغيل إنَّ كل شيء على ما يرام وعادت إلى المهجع للقيام بالأعمال المنزلية. نعم، تحتاج كورا لأن تحافظ على أفكارها بشكل أفضل.

إذا كان قناع كورا الخاص يميل في بعض الأحيان، فقد أثبتت براعتها في الحفاظ على شخصية بيبي كاربنتر القادمة من كارولينا الشمالية. فقد أعدت نفسها لسؤال الأنسة لوسي عن لقب والدتها وغيرها من المسارات التي قد تتخذها المحادثة. انتهت المقابلة التي أجرتها مع مكتب التوظيف في اليوم الأول بعد بضعة أسئلة موجزة. كان الوافدون الجدد يعملون إما في المنزل أو في الحقل. وفي كلتا الحالتين، كانت غالبية الفرص المتوفرة هي العمل المنزلي. وقد طُلب من الأسر التعامل بصبر مع الخادמות عديمات الخبرة.

خلال فحص الطبيب شعرت بالخوف، لكنها لم تكن ستوجه الأسئلة. وبدت الأدوات الصلبة اللامعة في غرفة الفحص وكأنها أدوات قد يطلبها تيرانس راندال من الحداد لأغراض شريرة.

تقع مكاتب الأطباء في الطابق العاشر من مبنى غريفيين. نجت كورا من صدمة ركوب المصعد للمرة الأولى ودخلت ممراً طويلاً تصطف فيه بعض الكراسي، كان مليئاً برجال ونساء ملونين ينتظرون إجراء الفحص الطبي. انضمت كورا إلى مجموعة من النساء بعد أن قرأت ممرضة في زيّ أبيض صاخ اسمها من القائمة. كان الحديث العصبي

مفهوماً؛ بالنسبة لمعظمهم، كانت هذه زيارتهن الأولى للطبيب. في مزرعة راندال يتم استدعاء الطبيب عندما يفشل علاج العبيد، أي الجذور والأعشاب، ويوشك عاملٌ ذو قيمةٍ على مفارقة الحياة. وفي معظم الحالات لا يملك الطبيب ما يقوم به في المرحلة التي بلغها المرض سوى الشكوى من الطُّرُق الموحلة والحصول على أجره.

نادوا اسمها. منحتها نافذة غرفة الفحص مشهداً ترى عبره تكوين المدينة والريف الأخضر يمتد وراءها أميالاً كثيرة. لقد بنى الرجال شيئاً كهذا، شيئاً يشبه خطوة انطلاق نحو السماء. بقيت هناك طوال اليوم وهي تحديق في المناظر الطبيعية، لكن الفحص قطع تخيلاتهما. كان الدكتور كامبل من النوع الكفاء، رجل سمين يتجول في أنحاء الغرفة ومعطفه الأبيض يرفرف وراءه مثل عباءة. بدأ السؤال عن صحتها العامة وقامت ممرضته الشابة بتدوين كل شيء على ورقة زرقاء. من أي قبيلة أتى أسلافها وماذا تعرف عن أعرافهم؟ هل مرضت في السابق؟ وعن حالة قلبها وورثتها؟ أدركت أن الصداع الذي تعانيه منذ ضربات تيرانس قد اختفى منذ قدومها كارولاينا الجنوبية.

كان اختبار الذكاء موجزاً، ويتألف من اللعب بأشكال خشبية وسلسلة من الاختبارات المصورة. خلعت ملابسها لأجل الفحص البدني. نظر دكتور كامبل إلى يديها. كانت أنعم من ذي قبل لكن ما تزال تبدو كأيدي من عمل في الحقول. تتبعت أصابعه الندوب على جلدها. وجازف بتخمين عدد الجلدات، لكنه نسي حساب اثنتين منها. فحص مهبلها بأدواته. جاء الفحص مؤلماً وأشعرها بالخجل، ورغم موقف الطبيب البارد، لم يفعل شيئاً للتخفيف من عدم ارتياحها. أجابت كورا عن أسئلته حول الاعتداء الذي تعرضت له. تحول الدكتور كامبل إلى

المرضة التي كتبت تكهناته حول مقدرتها على إنجاب طفل. مجموعة من الأدوات المعدنية موضوعة على صينية قريبة. التقط الطبيب أكثرها إثارة للرعب، مسمار رقيق متصل باسطوانة زجاجية. وقال «سنأخذ بعض الدماء». «ماذا؟». قال الطبيب «يخبرنا الدم بأمور كثيرة حول الأمراض وكيف تنتشر. أبحاث الدم رائدة حاليًا». أمسكت الممرضة ذراع كورا وحقتها الطبيب كامبل بالإبرة. هذا يفسر الصرخات التي سمعتها في القاعة خارجًا. وقد قدمت إسهامها الخاص. ثم انتهى الأمر. في القاعة، لم يتبقى سوى الرجال فقط. كانت المقاعد مكتملة.

كانت هذه هي آخر زيارتها إلى الطابق العاشر من المبنى. وبمجرد افتتاح المستشفى الجديد، أخبرتها السيدة أندرسون أن مكاتب الأطباء الحكوميين ستنقل. قال السيد أندرسون إن الطابق مؤجر بالكامل. كانت عيادة طبيب السيدة أندرسون عند الشارع الرئيسي، فوق مكتب طبيب العيون. بدا وكأنه رجل مُقتدر. وفي الأشهر التي عملت فيها كورا مع الأسرة، قلّت أيام الأم السيئة بشكل ملحوظ. نوبات الغضب، والأوقات التي تقضيها في غرفتها والستائر مغلقة، وطريقتها العصبية مع الأطفال، كلها لم تعد تحدث بشكل متكرر. قضاء مزيد من الوقت خارج المنزل، وتناول الحبوب، فعلت العجائب.

عندما انتهت كورا من غسيل يوم السبت وتناولت العشاء، كان الوقت قد حان تقريبًا للحفل الاجتماعي. فارتدت فستانها الأزرق الجديد. كان الأجمل في متجر الملونين. كانت تتسوق هناك بأقل قدر ممكن من المال بسبب الضريبة المضافة. وعند تسوقها لأجل السيدة أندرسون، تفاجأت أن البضائع في منشأتهم المحلية تكلف ضعفين أو ثلاثة أضعاف

تلك الموجودة في منشآت البيض. أما بالنسبة للفستان، فقد كلفها أجر أسبوع واضطرت إلى استخدام بعض الأوراق المالية مؤجلة الدفع. حرصت معظم الوقت على عدم إنفاقها. كان المال جديدًا بالنسبة لها ولا يمكن التنبؤ به، فهو يذهب بسهولة. أصبحت بعض الفتيات يدينون بأجر من الأجور ويلجأن إلى الأوراق المالية مؤجلة الدفع في كل شيء. فهمت كورا لماذا - بعد أن تخصص المدينة ثمن الأغذية، والسكن، وأشياء متنوعة مثل صيانة المهاجع والكتب المدرسية، يتبقى قليل فقط. لذا من الأفضل إنفاق الأوراق المالية مؤجلة الدفع باعتدال. كان الفستان نزوة تحدث مرّة واحدة، أكدت كورا لنفسها.

الفتيات في الغرفة المشتركة كنّ في حالة من الإثارة الكبيرة بسبب الحفل الاجتماعي في هذا المساء. لم تكن كورا استثناء. انتهت من التجهيزات. ربما حضر سيزر بالفعل.

جلس سيزر على مقعد يستطيع منه مشاهدة الشرفة والموسيقيين. كان يعرف أنها لن ترقص. عبر الحديقة بدا سيزر أكبر مما كان عليه أثناء أيامهما في جورجيا. تعرفت على ملابسه التي رأتها معروضة في متجر الملونيين، لكنه كان يرتديها بثقة أكبر من الرجال الآخرين الذين في سنه ممن أتوا من المزارع. كان عمله في المصنع جيد، ويعيش في ظروف أخرى حسنة أيضًا. كان شاربه قد نما منذ آخر أسبوع رأيا بعضهما فيه.

ثم رأت الزهور وأنتت عليه وعلى الباقة وشكرته. كما أعجب بفستانها وأثنى عليه. حاول تقبيلها بعد شهر على خروجها من النفق. وتظاهرت بأن ذلك لم يحدث، ومنذ ذلك الحين لم يقابلها إلا في هذه الأمسية. ربما سيناقشان الأمر في يوم من الأيام. وزبما ستقبله وقتئذ، لم تكن تعرف.

قال سيزر «أعرفهم». وأشار إلى أعضاء الفرقة الذين أخذوا أماكنهم. «أعتقد أنهم قد يكونون أفضل من جورج وويسلي».

ومع مرور الشهور لم تعد كورا وسيزر يشعران بضيق شديد من الإشارة إلى راندال في الأماكن العامة. إذ يمكن أن ينطبق كثير مما قالاه على أيّ عبد سابق استمع إلى حديثهم. فالمزارع جميعها متشابهة؛ قد يعتقد المرء أن مصائبه مغايرة، لكن الرعب الحقيقي يكمن في جوهرها المشترك. على أي حال، ستطغى الموسيقى بعد قليل على حديثهما عن السكك الحديدية السرية. أملت كورا ألا يضحّ الموسيقيون في وقاحتها بسبب عدم اكتراثهما. هذا غير محتمل. لأن عزف موسيقاهم الخاصة كرجال أحرار دون أغلال تقيدهم كان على الأرجح ما يزال إبداعاً محلّ تقدير. عزف اللحن دون الخوف من توفير واحدة من وسائل الراحة القليلة في قريتهم الخاصة بالعبيد. ممارسة فنهم بحرية وفرح.

رتّب المشرفون الحفلات الاجتماعية لتعزيز العلاقات الصحية بين الرجال والنساء الملونين، والتخلص من بعض الأضرار التي لحقت بشخصياتهم بسبب الرق. بالنسبة لهم، كانت الموسيقى والرقص، والطعام والشراب على العشب في ضوء الفانوس الخافق عوامل تنشيط للروح المقهورة. وبالنسبة لسيزر وكورا كانت واحدة من الفرص القليلة ليجتمعا مع ببعضهما.

عمل سيزر في مصنع آلات خارج المدينة، لكن نادراً ما توافق جدولته المتغير مع جدولها. كان يحب العمل. ففي كل أسبوع يقوم المصنع بتجميع آلة مختلفة يحددها حجم الطلب في السوق. رتّب الرجال قبالة سيور التجميع، كل شخص مسؤول عن حمل الجزء المكلف به إلى الشكل الذي يتحرّك أسفل الخط. في بداية الخطوط لا يوجد

شيء، مجرد كومة من أجزاء في الانتظار، وعندما ينتهي آخر رجل، تكون النتيجة أمامهم: الآلة مكتملة. قال سيزر إن مشاهدة المنتج الكامل يجلب الرضى على نحو غير متوقع، على النقيض من الفوضى في مزارع راندال.

كان العمل رتيبًا لكنه خاليًا من الضرائب. وساعدت المنتجات المتغيرة في تخفيف الضجر. وُزعت فترات الراحة الممتدة بشكل جيد طوال فترة المناوبة، وتم ترتيبها وفقًا لنظرية عمل غالبًا ما نُقلت من قبل المدرّبين والمدراء. كان الرجال الآخرون زملاء جيدين. ما يزال بعضهم يحمل علامات سلوك المزارع، ويحرص على تصحيح العيوب المتصورة وكأنهم ما زالوا يعيشون تحت نير المداخل المنخفضة أيام العبودية، لكن هؤلاء الرجال يتحسنون كل أسبوع، متحصّنين بإمكانات حياتهم الجديدة.

تداول الهاربون السابقون الأخبار. مايسي فقدت بعض أسنانها. في هذا الأسبوع كان المصنع يصنع محركات قاطرات - تساءل سيزر عمّا إذا كان سيتم استخدامها ذات يوم في السكك الحديدية السرية. الأسعار في المتجر ارتفعت مرة أخرى. لم تكن هذه أخبارًا بالنسبة لكورا.

"ما هي أخبار سام؟" سألته كورا. كان من السهل على سيزر لقاء وكيل المحطة.

"في مزاجه المعتاد - مبتهج لسبب لا يمكن معرفته. ضربه أحد مرتادي الحانة فاسودّت عينه. وهو فخور بذلك. يقول إنه لطالما تمّ عينيًا واحدة وحسب!"

"والآخر؟"

ضم يديه على فخذه. «سيأتي قطار في غضون أيام قليلة. في حال أردنا

ركوبه». قال الجزء الأخير كما لو كان يعرف موقفها.

"ربما القطار التالي".

"نعم، ربما التالي".

مرّت ثلاثة قطارات منذ وصولهما كارولينا الجنوبية. في المرة الأولى تحدثا ساعات عمّا إذا كان من الحكمة مغادرة الجنوب المظلم على الفور أو النظر فيما يمكن لكارولينا الجنوبية تقديمه. بحلول ذلك الوقت كانا قد اكتسبا بعض الوزن، وحصلا على أجور، وشرعا في نسيان اللدغة اليومية للمزرعة. لكن كان هناك نقاش حقيقي، بين كورا التي كانت متشوقة للقطار وسيزر الذي يجادل متمسكا بالإمكانات المحلية. لم يكن سام مفيدا - كان مولعا بمسقط رأسه ومدافعا عن تطور كارولينا الجنوبية فيما يتعلق بالمسائل العرقية. لم يكن يعرف كيف ستأتي نتائج التجربة، فهو ينحدر من خطّ طويل من مثيري القلائل المرتابين في الحكومة، لكنه كان متفائلا. وقد بقيا. ربما القطار القادم.

جاء القطار التالي وغادر بعد مناقشة أقصر. كانت كورا قد انتهت تَوّأ من وجبة رائعة في المجمع. وكان سيزر قد اشترى قميصا جديدا. فكرة الشعور بالجوع مرة أخرى طوال الطريق لم تكن جذابة، وكذلك احتمال أن يتركا وراءهما الأشياء التي ابتاعاها بعرق تعبهن. جاء القطار الثالث ومضى، والآن سوف يأتي الرابع.

"ربما يجب أن نبقى إلى الأبد"، قالت كورا.

كان سيزر صامتا. كانت ليلة جميلة. وكما أخبرها، فإن الموسيقيين موهوبون جدًا وعزفوا القطع الموسيقية التي كان الجميع قد سعدوا بها في الحفلات الاجتماعية السابقة. جاء عازف الكمان من هذه

المزرعة أو تلك، ورجل البانغو من مزرعة في ولاية أخرى: في كل يوم يعزف الموسيقيون في المهاجع ألحان مناطقهم وتأخذ الموسيقى في النمو. ساهم الجمهور برقصات مزارعهم وشكلوا دوائر قلدوا فيها رقصات بعضهم. داعيهم النسيم عندما توقفوا عن الرقص قليلاً للراحة والمغازلة. ثم بدأوا مرة أخرى، يضحكون ويصفقون.

قال سيزر، «ربما يجب أن نبقى». وتقرر الأمر.

انتهت الحفلة الاجتماعية في منتصف الليل. وضع الموسيقيون قُبعة لجمع التبرعات، لكن معظم الناس كانوا عالقين في الديون بحلول ليلة السبت، فبقيت القبعة فارغة. تمتت كورا ليلة سعيدة لسيزر وكانت في طريق عودتها إلى المنزل عندما وقعت الحادثة.

ركضت امرأة عبر الحديقة بالقرب من المدرسة. كانت في عقدها الثاني، نحيلة شعثناء الشعر بشدة. كانت بلوزتها مفتوحة حتى سرتها، وكشفت عن ثديها. للحظة، ظنت كورا أنها عادت مرة أخرى إلى مزارع راندال وعلى وشك رؤية فظائع أخرى.

تنهد المتفرجون على المشهد المألوف. فقد سمعوه مرات عدّة في أثناء حياة المزرعة، رثاء الأم على ذريتها المعذبة. تذكرت كورا كلمات سيزر عن رجال المصنع المسكونين بالمزارع، ويحملونها داخلهم في هذا المكان البعيد بأميال. عاشت فيهم. وما تزال تعيش في كلّ منهم. بحيث ينتظرون سوء المعاملة والتهكم عندما تسنح الفرصة. هدأت المرأة إلى حدّ ما وأعيدت إلى المهاجع في الجزء الخلفي. وعلى الرغم من الراحة التي جلبها قرارهما بالبقاء، كانت ليلة طويلة لكورا تستعيد في كلّ وهلة منها صرخات المرأة، وأشباحها الخاصة.

"هل سأكون قادرة على توديع السيد والسيدة أندرسون والأطفال؟" تساءلت كورا.
كانت الأنسة لوسي على يقين من أنه يمكن ترتيب ذلك. فقد كانت الأسرة مولعة بها.

"هل قمتِ بعمل سيئ؟" فالبنسبة لكورا كانت قد أجرت تعديلاً جيداً في الإيقاعات الدقيقة للعمل المنزلي. مرّت إبهامها عبر أصابعها. أصبحت شديدة الليونة جداً. «لقد قمتِ بعمل رائع يا بيسي»، قالت الأنسة لوسي. «لذلك عندما جاءت هذه الوظيفة الجديدة فكرنا فيكِ. كانت فكرتي، والأنسة هاندلر أثنت عليها. فالمتحف يحتاج نوعاً خاصاً من الفتيات"، قالت، "ولا أظن أن كل الفتيات استطعن التكيف مثلما فعلتِ. يجب أن تعتبري الأمر مديحاً». أطمأنت كورا، لكنها ظلت واقفة في المدخل.

"هل من شيء آخر يا بيسي؟" سألت الأنسة لوسي، وهي تطوي أوراقها. ما زالت كورا مضطربة حتى بعد مرور يومين من حادثة الحفل الاجتماعي. وسألتها عن المرأة التي كانت تصرخ.

أومأت الأنسة لوسي بتعاطف، وهي تقول «تعنين غيرترود». «أعلم أن الأمر كان مزعجاً. هي بخير. سيبقونها في الفراش بضعة أيام حتى

تستعيد عافيتها مرة أخرى». وأوضحت الأتيسة لوسي أن هناك ممرضة في القرب تطمئن عليها. «لهذا السبب حجزنا هذا المهجع للمقيمين الذين يعانون من اضطرابات عصبية. ليس من المنطقي أن يختلطوا مع عدد أكبر من السكان. ويمكنهم الحصول على الرعاية التي يحتاجونها من المهجع رقم 40».

"لم أكن أعرف أن مبنى 40 مكان خاص"، قالت كورا. «لابدّ أنه فرنك». "ماذا تعنين؟" سألت الأتيسة لوسي، لكن كورا لم تعطها تفاصيلًا. "سيتواجدون هناك فترة قصيرة"، قالت المرأة البيضاء. «نحن متفائلون». لم تعرف كورا معنى التفاؤل. وسألت الفتيات الأخريات في تلك الليلة إن كنّ على دراية بالكلمة. لم تسمعها أيّ منهن من قبل. وقررت كورا أنها تعني: محاولة.

الطريق الذي طرقته إلى المتحف هو الطريق نفسه الذي كانت تأخذه إلى منزل آل أندرسون، ثمّ دارت يمينًا أمام المحكمة. ربما ترك الأسرة أحزنها. لديها تواصل قليل مع الأب، لأنه يغادر المنزل باكراً وتبقى نافذة مكتبه ضمن القلّة الموجودة في غريفين وتكون مضاءة حتى وقت متأخر. لقد جعله القطن عبداً أيضاً. لكن السيدة أندرسون كانت مريضة، وخاصة بعد وصفات الطبيب، وكان الأطفال لطيفون. كانت مايسي في العاشرة من عمرها. عندما تبلغ العاشرة في مزرعة راندال تختفي البهجة كلّها. يكون الطفل الزنجي سعيداً في هذا اليوم وفي اليوم التالي يرحل عن الضوء؛ وبين هذا وذاك يتم تقديمهم إلى واقع جديد من العبودية. دون شك كانت مايسي مدلّلة، لكن هناك ما هو أسوأ من كونها مدلّلة في حال كنت فتاة ملونة. جعلت الفتاة الصغيرة كورا تتساءل عن كيف سيكون أطفالها يوماً ما.

كانت قد رأت متحف العجائب الطبيعية مرات عدّة خلال نزهاتها لكنها لم تعرف أبدًا ماهية ذلك المبنى الحجري. كان المبنى بمساحة حيّ كامل. وكانت تماثيل الأسود تحرس الدرج المسطح الطويل، وتبدو وكأنها تحدق بعطش في النافورة الكبيرة. ما إن اقتربت كورا من النافورة حتى خفف صوت الماء المتناثر من ضجيج الشارع، وتركها في رعاية المتحف. في الداخل، تم إدخالها عبر باب لا يُسمح للجمهور بالدخول منه، ويؤدي إلى متاهة من الممرات الداخليّة. ومن خلال الأبواب رأت كورا أنشطة غريبة: رجل يضع إبرة وخيطًا في حيوان غرير ميت، وآخر يضع حجارة صفراء تحت ضوء ساطع، وفي غرفة مليئة بالطاولات الخشبية الطويلة والأجهزة رأت لأول مرة في حياتها مجهرًا. كانت تجلس على طاولات مثل الضفادع السوداء.

ثم تم تقديمها إلى السيد فيلدز، أمين متحف التاريخ الحيّ.

"سوف تقومين بعمل في غاية الجمال"، قال، وتفحصها كالرجال الذين يتفحصون مشاريعهم في الغرف التي مرّت بجانبها. طريقة حديثه في جميع الأوقات كانت سريعة وحيوية ولا أثر فيها لأسلوب الجنوب. اكتشفت فيما بعد أن السيد فيلدز تم تعيينه من متحف في بوسطن بغرض تحديث الممارسات المحليّة. «صرت تأكّلين بشكل أفضل منذ جئت»، قال «هذا متوقع، ولكنك ستبلين بلاءً حسنًا».

"هل أبدأ بالتنظيف هنا أولاً سيد فيلدز؟" قررت كورا في الطريق أنها ستجنب في عملها الجديد الحديث عن المزرعة بأقصى ما تستطيع. "تنظيف؟ أوه، لا. أنت تعرفين ما نقوم به هنا - وتوقف قليلاً. هل أتيت إلى هنا من قبل؟" شرح لها عمل المتاحف. في هذا المتحف، كان التركيز على التاريخ الأميركي للأجيال الشابة، إذ هناك مواضيع كثيرة

لتثقيف الجمهور حولها: النباتات والحيوانات الجامعة من قارة أمريكا الشمالية، والمعادن وغيرها من روائع العالم تحت أقدامهم. بعض الأشخاص لم يغادروا المقاطعات حيث ولدوا. وعلى غرار السكك الحديدية، يسمح لهم المتحف برؤية بقية البلاد خارج تجربتهم الصغيرة، من فلوريدا إلى ماين إلى الحدود الغربية. ورؤية شعبيها. قال السيد فيلدز «الناس الذين مثلك».

عملت كورا في ثلاث غرف عرض. في اليوم الأول، غطت الستائر الرمادية النوافذ الزجاجية الكبيرة التي فصلتهم عن الجمهور. وفي الصباح التالي أزيلت الستائر ووصلت الحشود.

ضمت الغرفة الأولى مشاهدًا من أفريقيا المظلمة. هيمن كوخ على غرفة العرض، جدرانه ذات الأعمدة الخشبية التحمت معًا تحت سقف من القش. كانت كورا تنسحب إلى ظلاله عندما تشعر بحاجة إلى راحة من الوجوه. يوجد نار للطبخ، وتم تمثيل النيران بشظايا من الزجاج الأحمر؛ مقعد صغير؛ وأدوات متنوعة، القرع، الصدف. ثلاثة من الطيور السوداء الكبيرة تتدلى من السقف باستخدام الخيوط. كان الهدف المنشود هو وصف نشاط السكان الأصليين. تذكّرت كورا الصقور التي تمضغ أجساد القتلى في المزرعة عندما يتم ربطهم على الشجر.

استدعت جدران الحياة ذات اللون الأزرق الهادئ الموجودة على سفينة العبيد السماء الأطلسية. راقبت كورا جزءًا من سطح البارجة، حول الصاري، البراميل الصغيرة المتنوعة، الحبال. كان زيبا الأفريقي ملونًا؛ بدت في زيبا البحري وكأنها شخص نذل من الشارع، سترة، بنطلون، وأحذية جلدية. قصة الصبي الأفريقي الذي بعد أن جاء على متن

السفينة، عمل مساعدًا على سطح السفينة في مختلف المهام الصغيرة، كنوع من التدريب. دست كورا شعرها تحت الطاوية الحمراء. هناك تمثال بحار يتكئ قبالة المنظار على حافة السفينة. رُسمت العينان والفم واللون على رأسه الشمعي بألوان مزعجة.

سمح لها عملها داخل غرف عرض «اليوم النموذجي في المزارع» بالجلوس على عجلة الغزل وإراحة قدميها، كان المقعد صلبًا مثل كتلة القيقب السكري التي اعتادت الجلوس عليها. بينما الدجاج المحشو بنشارة الخشب ينتشر على الأرض. من وقت لآخر تقوم كورا بقذف بذور وهمية نحوها. كان لديها عدد من الشوك حول دقة وصف الأفارقة ومشهد السفينة الموجودة في هذه الغرفة. وقد شاطرت السيد فيلدز نقدها. اعترف السيد فيلدز بأن عجالات الغزل لم تكن تستخدم في الغالب في الهواء الطلق، عند عتبة مقصورة العبيد، لكنه قال إنه رغمًا عن بحثهم عن الأصالة، فإن مساحة غرفة العرض فرضت تنازلات معينة. هل بإمكانه أن يضغط حقل القطن كاملاً في غرفة العرض، وهل لديه ميزانية عشرات الممثلين لإنجاز تلك المحاكاة؟ ربما سيحدث ذلك يومًا ما.

لم يمتد انتقاد كورا إلى الأزياء النموذجية، والتي كانت مصنوعة من قماش العبيد الخشن الأصيل. كانت تشعر بالعار مرتين في اليوم، عندما تخلع ملابسها وعندما ترتدي ذلك الزي. لدى السيد فيلدز ميزانية ثلاثة ممثلين أو نماذج كما أسماهم. فقد وظّف من مدرسة الأتيسة هاندلر: إيزيس وبتي أيضًا، واللتان ماثلتا كورا في العمر والمظهر. كنّ يتشاركن الأزياء. وخلال فترات الاستراحة، ناقشت الثلاثة مزايا وعيوب وظيفتهن الجديدة. سمح لهن السيد فيلدز بأخذ استراحات

جيدة. أحبت بيتي كونه لم يكن عصبيًا أبدًا، على عكس الأسرة التي تعمل عندها، والذين وإن كانوا لطفاء في العموم فهناك احتمال دائم بوقوع سوء فهم أو مزاج سيئ لم يكن لها يد فيه. استمتعت إيزيس بعدم حاجتها للتحدّث. لقد نشأت في مزرعة صغيرة حيث في كثير من الأحيان تُترك في سبيلها، عدا الليالي التي يحتاج فيها السيّد مضاجعتها فتُجبر على شرب كأس الخزي. اشتاقت كورا إلى متاجر البيض ورفوفها الوفيرة، لكنها ما تزال تتمشى مساء نحو المنزل، وما زالت تمارس لعبة نوافذ العرض.

من ناحية أخرى، مثل تجاهل زوار المتحف إنجازًا رائعًا. كان الأطفال يخبطون على الزجاج ويشيرون إلى الأنواع بطريقة مهينة، وأجفلوهن بينما بدأن يتظاهرن محاولات ربط عُقدة الربان. أحيانًا يصيح الزبائن ببعض الأشياء حول تمثيلهن الإيمائي، تعليقات لا تستطيع الفتيات سماعها لكن كانت لديهن فكرة واضحة أنها تعليقات وقحة. تتناوب الأنواع خلال غرف العرض في كل ساعة لتخفيف رتابة التظاهر بمسح سطح السفينة، ونخت أدوات الصيد، وتقشير البطاطا الخشبية. وإذا كان لدى السيد فيلدز طلبًا ثابتًا واحدًا، فهو ألا يجلسن فترة طويلة، لكنه لم يضغط عليهن. لقد كن يُغظن الريان جون من مقاعدهن بينما يربطن حبل القنب، ولقبنه بالدمية الغبية.

افتتح المعرض في اليوم نفسه الذي افتتحت فيه المستشفى، وهو جزء من الاحتفال بإنجازات المدينة الأخيرة. وانتخب رئيس البلدية الجديد على أساس تذكرة التقدّم تلك، وأراد التأكد من أن السكان يذكرونه بمبادرات سلفه التطلعية، التي تم تنفيذها بينما كان ما يزال محامي ملكيّة في مبنى غريفين.

لم تحضر كورا الاحتفالات، على الرغم من أنها رأت الألعاب النارية المجيدة تلك الليلة من نافذة المهجع، وتمكنت من رؤية المستشفى عندما حانت مواعيد فحصها. فبينما استقرت حياة السكّان الملونين في كارولاينا الجنوبية، رصد الأطباء سلامتهم البدنية مع قدر من التفاني مثلما عمل المشرفون على قياس تقدّمهم النفسي. وفي أحد الأيام، أخبرت الأنسة لوسي كورا بينما تسيران في الحديقة، بأن من شأن جميع الأرقام والأشكال والملاحظات أن تسهم بصورة كبيرة في فهمهم لحياة الملونين.

من جانبها الأمامي كانت المستشفى مجمّعًا مترامي الأطراف، وبدت مطابقة في العرض لطول مبنى غريفيين. كان المبنى صلبًا وبسيطًا في بنائه بطريقة لم يسبق لكورا أن رأت مثلها، كما لو كان يعلن عن كفاءته من خلال جدرانه. يوجد مدخل الملونين عند الزاوية، لكن بغض النظر عن ذلك، كان مطابقًا لمدخل البيض، في التصميم الأصلي وليس في المرحلة اللاحقة، كما كان الحال في كثير من الأحيان.

حظي جناح الملونين بصباح مُزدحم عندما أعطت كورا اسمها إلى موظفة الاستقبال. مجموعة من الرجال، الذين ميزت بعضهم من الحفلات الاجتماعية وأوقات الظهيرة التي يقضونها في الحديقة، شغلوا الغرفة المجاورة بينما ينتظرون علاج الدم. لم تسمع عن وجود مشكلة في الدم قبل وصولها كارولاينا الجنوبية، لكنها أصابت عددًا كبيرًا من الرجال في المهاجع وكانت سببًا لجهود هائلة من جانب أطباء المدينة. كان للاختصاصيين قسمهم الخاص على ما يبدو، وكان المرضى يختفون عبرردهة طويلة عندما تنادى أسماءهم.

هذه المرّة قابلت طبيبًا مختلفًا، أكثر دماثة من الدكتور كامبل. اسمه

ستيفنز. كان من الجنوب، بشعره الأسود المجعد الذي ربما بدا أنثويًا قليلًا، ولكنه وازن ذلك التأثير بلحية مشدبة بعناية. بدأ الدكتور ستيفنز صغيرًا على أن يكون طبيبًا. أخذت كورا صغر سنه كدليل على مواهبه. وبينما تتنقل خلال الفحص، شعرت كورا وكأنها تتنقل على خطوط الإنتاج، مثل واحدة من منتجات سيزر، تمر عبر الخط بعناية واجتهاد. لم يكن الفحص البدني مثل الفحص الأول. فحص الطبيب سجلات زيارتها السابقة وأضاف ملاحظاته الخاصة على الورقة الزرقاء. وسألها عن الحياة في المهجع. «تبدو جيدة» قال الطبيب ستيفنز. وأخبرها أن عملها في المتحف «خدمة عامة مثيرة للاهتمام».

بعد ارتداء ملابسها، سحب الدكتور ستيفنز الكرسي الخشبي. بقي أسلوبه خفيًا وهو يقول، «أكان لديك علاقات حميمة. هل فكرت في تحديد النسل؟»

ابتسم. كانت كارولينا الجنوبية في خضم برنامج كبير للصحة العامة، أوضح الدكتور ستيفنز، بغرض تثقيف الناس حول تقنية جراحية جديدة، حيث توضع الأنابيب داخل المرأة لمنع نمو الأجنة. كان هذا إجراءً بسيطًا مستديمًا ودون مخاطر. وقد تم تجهيز المستشفى الجديد بشكل خاص، كما أن الدكتور ستيفنز نفسه درس لدى الرجل الذي طور هذه التقنية، والتي كانت مثالية بالنسبة للسجناء الملونين في سجن بوسطن. تدريس الأطباء المحليين الجراحة وتقديم خدماته للسكان الملونين مثلًا هو جزء من الغرض الذي من أجله تم توظيفه.

"ماذا لو لم أرغب في ذلك؟"

"الخيار يعود لك بالطبع"، قال الطبيب. "لكن اعتبارًا من هذا الأسبوع سيصبح إلزاميًا للبعض في الدولة. على سبيل المثال النساء الملونات

اللواتي ولَدْنَ بالفعل أكثر من طفلين سوف يُلْزمن بذلك القانون، وذلك باسم السيطرة على السكان. وأيضًا النساء البلهوات وغير اللائقات عقليًا لأسباب واضحة. وكذلك من اعتدن على الجريمة. لكن هذا لا ينطبق عليك يا ييسي. هؤلاء النساء لديهن بالفعل أعباء كافية. هذه فرصتك للسيطرة على مصيرك».

لم تكن أول مريضة متمردة. وضع الدكتور ستيفنز المسألة جانبًا دون أن يفقد سلوكه الدافئ. وأخبر كورا أن بحوزة مشرفتها معلومات أكثر بخصوص البرنامج، وبإمكانها التحدث معها حول كل ما يقلقها. سارت كورا بسرعة عبر ممر المستشفى باحثة عن هواء تنفسه. فقد اعتادت على الهرب من لقاءات السلطات البيضاء. مباشرة أسئلته وملاحظاته تعقدت داخلها. بمقارنة ما حدث وراء المدخنة في تلك الليلة مع ما يحدث بين الرجل وزوجته المحبين، جعل خطاب الدكتور ستيفنز الأمرين متشابهين. أمتها بطنها من الفكرة. ثم كانت هناك مسألة الإلزامية، التي بدت كما لو أن النساء، نساء الفرن ذوات الوجوه المختلفة، لم يكن لديهن رأي. وكأنهن ممتلكات يمكن للأطباء التعامل معها بالطريقة التي يرغبونها. عانت السيدة أندرسون من التقلبات المزاجية. هل جعلها ذلك غير صالحة؟ هل كان طبييها ليقدم لها الاقتراح نفسه؟ لا.

بينما تقلب تلك الأفكار، وجدت نفسها أمام منزل أندرسون. ساقتها قدماها إلى هناك في حين جال عقلها في مكان آخر. وربما في عمقها، فكرت كورا في الأطفال. مايسي ستكون في المدرسة، لكن ريموند قد يكون في المنزل. كانت مشغولة جدًا في الأسبوعين الماضيين لتقديم وداع مناسب.

نظرت الفتاة التي فتحت الباب إلى كورا بتشكك، حتى بعد أن كشفت عن هويتها.

"اعتقدت أن اسمها كان يبسي"، قالت الفتاة. كانت نحيفة وصغيرة، لكنها وقفت أمام الباب كما لو كانت سعيدة بإلقاء وزنها كله على هذه الدخيلة كي تبقى بعيدة. «وذكرت إن اسمك هو كورا».

لعنت كورا إلهاء الطبيب. وأوضحت أن سيدها سماها يبسي، لكن جميع من في الحي يدعونها كورا لأنها تشبه والدتها كثيرًا.

"السيدة أندرسون ليست في المنزل"، قالت الفتاة. "والأطفال يلعبون مع أصدقائهم. من الأفضل أن تعودى عندما تكون في المنزل". وأغلقت الباب.

هذه المرة أخذت كورا الطريق المختصر إلى المنزل. سيكون من المفيد التحدث إلى سيرز، لكنه في المصنع. استلقت على سريرها حتى جاء موعد وجبة العشاء. ومنذ ذلك اليوم سلكت طريقًا إلى المتحف لا يمر بمنزل آل أندرسون.

بعد أسبوعين قرر السيد فيلدز منح أنواعه جولة مناسبة حول المتحف. حسّن الوقت الذي قضته إيزيس وبيتي وراء الزجاج من مهارتهن التمثيلية. وأبدت اثنتاهما اهتمامًا معقولًا بينما يريهن السيد فيلدز المقاطع العرضية من القرع وحلقات السنديان الأبيض الجليية، وأحجار الجيود المفتوحة المتصدعة مع بلوراتها الأرجوانية التي تشبه الأسنان الزجاجية، والخنافس الصغيرة والنمل الذي حفظه العلماء بطريقة خاصة. ضحكت الفتيات على ابتسامة الذئب المحشو الجامدة، والصقور الحمراء التي اصطيدت أثناء طيرانها، والذبّ الخشبي الأسود الذي يواجه النافذة. هذه الحيوانات المفترسة التي تم

تصويرها في اللحظة التي خرجت فيها للصيد.

حدقت كورا في الوجوه الشمعية للبيض. كانت أنواع السيد فيلدز هي المعروضات الحيّة الوحيدة. كان البيض مصنوعين من الجص والطلاء. في إحدى النوافذ، أشار اثنان من المهاجرين، يرتديان سراويل صوفية سميكة وضُدِّيَّات، إلى صخرة بليموث، بينما ينظر زملاؤهما الذين يسافرون على ظهر سفينة في الصورة الجدارية. لقد وصلوا إلى برّ الأمان بعد المسار الخطر نحو البداية الجديدة. في نافذة أخرى، ربّ المتحف مشهد ميناء، حيث قام مستوطنون بيض يرتدون ملابس مثل هنود الموهوك بإلقاء صناديق الشاي على جانب السفينة بغبطة مبالغة. لقد ارتدى الناس أنواعًا مختلفة من الأغلال عبر حياتهم، لكن لم يكن من الصعب التقاط نزعة التمرد، حتى عندما كان الثوار يرتدون أزياء مختلفة لإنكار الأمر.

تنقلت الأنواع أمام المعروضات مثل الزئائن. اثنان من المستكشفين وقفا على قمة جبل يحدقان في جبال الغرب، ها هي البلاد الغامضة بمخاطرها واكتشافاتها قبالتها. من يعرف ما الذي يوجد هناك؟ كانوا سادة حياتهم، وكانوا ينظرون بخوف نحو مستقبلهم.

في نافذة العرض النهائية، هناك هندي أحمر يتلقى قطعة من البرشمان من ثلاثة رجال بيض وقفوا بئبل، بينما أيديهم مفتوحة في إشارة إلى التفاوض.

"ما هذا؟" سألت أيزيس.

"هذه خيمة حقيقيّة"، قال السيد فيلدز. «نود أن نحكي قصة في كل مرّة، لإلقاء الضوء على التجربة الأمريكية. يعرف الجميع الحقيقة بخصوص اللقاء التاريخي، لكن أن تراها أمامك، تلك مسألة أخرى»

"هل ينامون هناك؟"

"ماذا تقول أيها الرّبان جون"، سألت كورا زميلها البحّار. «هل هذه هي حقيقة لقاءنا التاريخي؟» صارت مؤخرًا تُجري محادثة مع الدُّمية لإضافة بعض الشعور المسرحي للجُمهور. كان الطلاء قد تقشّر عن خدّه وأظهر الشّمع الرمادي أسفله.

افترضت كورا أن حيوانات القيوط المحشوة لم تكن تكذب في وقفها تلك. وأن العشائر والصخور تخبر حقيقة نفسها. لكن المعروضات البيضاء تحتوي على كثير من عدم الدقّة والتناقضات، تمامًا مثل الثلاثة عروض التي تشارك فيها كورا. لم يوجد أبدًا فتیان زنوج مختطفون يقومون بمسح أسطح السّفن ويحصلون على تربيّةٍ على رؤوسهم من الخاطفين البيض. الصبي الأفريقي المغامر الذي ارتدت كورا أحذيته الجلديّة الجميلة في العرض كان على الأرجح مقيدًا بالأغلال داخل السفينة، يمسح جسده بقذارته الخاصة. كان عمل العبيد أحيانًا هو الغزل، نعم؛ لكن في معظم الأحيان لم يكن كذلك. لم ينقلب أيّ عبد ومات على عجلة الغزل أو تمّ تعذيبه بسبب كتلة خيوط متشابكة. لكن لا أحد يريد الكلام عن النزعات الحقيقية للعالم. ولا يرغب أحد في سماع ذلك. بالتأكيد لم ترغب الوحوش البيضاء على الجانب الآخر من المعرض في سماع ذلك، وفي تلك اللحظة بالذات، وهم يضغطون أنوفهم المدهونة على النافذة يسخرون ويقهقهون. كانت الحقيقة تشبه تمثيلية متغيرة في نافذة متجر، تمّ التلاعب بها من قبل بعض الأيدي دون أن تنتبه، وهي الآن بعيدة عن متناول اليد.

جاء البيض إلى هذه الأرض من أجل بداية جديدة وهريًا من طغيان أسيادهم، تمامًا مثلما فرّ الزنوج الأحرار من سادتهم. لكن المثل العليا

التي احتفظوا بها لأنفسهم، أنكروها على الآخرين. كانت كورا قد سمعت مرات عدّة مايكل وهو يقرأ إعلان الاستقلال في مزرعة راندال، وتنقل صوته خلال القرية مثل طيف غاضب. لم تفهم الكلمات، معظمها على أي حال، لكن فكرة المساواة لم تُمُت داخلها. حتى الرجال البيض الذين كتبوا إعلان الاستقلال لم يفهموه أيضًا ما لم تكن "كلّ الرجال" الواردة فيه تعني حقًا كلّ الرجال. ليس إذا انتزعوا ما ينتمي إلى أشخاص آخرين، سواء كان شيئًا يمكنك مسكه بيدك، مثل التراب، أو ما لا يمكن الإمساك به، مثل الحرية. الأرض التي حفرتها وعملت فيها كانت أرضًا هندية. كانت تعرف أن الرجال البيض يتفخخرون بكفاءة المذابح، حيث قتلوا النساء والرضع في أسرهم فأعدموا كلّ أمل قادم.

أجساد مسروقة تعمل على أراضٍ مسروقة. كان محرّكًا لا يتوقّف، مرّجلاً جائعًا يتغذّى على الدم. فكّرت كورا أنه مع العمليات الجراحية التي وصفها الدكتور ستيفنز، بدأ البيض يسرقون مستقبلهم بشكل جدي. يمزقوننا ويخرجونهم من داخلنا. لأن هذا هو ما تفعل عندما تسلب أطفال شخص ما - تسرق مستقبلهم. تعذبهم بقدر ما تستطيع وهم على هذه الأرض، ثم تسلبهم الأمل في أن شعبيهم سوف يكون أفضل يومًا ما.

"أليس هذا حقيقيًا أيها الريان جون؟" سألت كورا. في بعض الأحيان، عندما تدير كورا رأسها بسرعة، يبدو كما لو أن الريان يغمز لها. بعد بضعة ليالٍ، لاحظت أن أضواء المهجع رقم 40 كانت مطفأة بالكامل، رغم أن الوقت كان مبكرًا. سألت الفتيات الأخريات. «نقلوهم إلى المستشفى»، قالت إحداهن. «حتى يتحسنوا».

في الليلة التي سبقت تلك التي وضع فيها ريدجواي حدًا لحياة كورا في كارولاينا الجنوبية، كانت تقف على سطح مبنى غريفين، محاولة معرفة موطنها الأصلي. كانت قد تبقت ساعة على مواعيد اجتماعها مع سيزر وسام، ولم تستمتع بفكرة القلق على سريرها، والاستماع إلى نقيق الفتيات الأخريات.

يوم السبت الماضي بعد المدرسة، أخبرها أحد الرجال الذين عملوا في غريفين، وهو عامل سابق في مصنع للتبغ يدعى مارتن، أن الباب إلى السطح لم يكن مقفلاً. كان الوصول سهلاً. وفي حال قلقت بشأن استجوابها من قِبَل شخص من البيض الذين يعملون في الطابق الثاني عشر عندما تخرج من المصعد، أخبرها إن بإمكانها أخذ السلالم في الطوابق النهائية.

كانت هذه هي زيارتها الثانية للشفق. دوّخها الارتفاع. أرادت القفز وتنف الغيوم الرمادية المتدفقة فوقها. كانت الآنسة هاندلر قد درّستهم عن أهرامات مصر الكبرى والأعجوبة التي صنعها العبيد بأيديهم وعرقهم. هل كانت الأهرامات طويلة مثل هذا المبنى؟ هل جلس الفراعنة على القمة وأخذوا مقاييس ممالكهم، ليروا كيف يتقلص العالم عندما تكتسب المسافة المناسبة؟ في الشارع الرئيسي من تحتها كان العمال

يشيدون مباني من ثلاثة وأربعة طوابق، أطول من صفوف المؤسسات القديمة. تمشت كورا بجانب موقع البناء كل يوم. لا يوجد ما يساوي حجم غريفين حتى الآن، لكن في يوم من الأيام سيضم هذا المبنى الإخوة والأخوات. وكلما سمحت لأحلامها بأخذها في سُبُل الآمال، كانت تعاودها تلك الفكرة، وهي أن تبلغ المدينة شكلها النهائي.

إلى الجانب الشرقي من غريفين كانت بيوت الناس البيض ومشاريعهم الجديدة - ساحة المدينة الموسعة، والمستشفى، والمتحف. عبرت كورا إلى الغرب، حيث مهاجع الملونين. ومن هذا الارتفاع تسللت صنابير حمراء عبر الغابة في صفوف مثيرة للإعجاب. هل هذا هو المكان حيث يمكنها أن تعيش يومًا ما؟ كوخ صغير على شارع لم يتم إنشاؤه بعد؟ بينما تُخلدُ صبيها وفتاها إلى النوم في الطابق العلوي؟ حاولت كورا أن ترى وجه رجلها، وتستحضر أسماء أطفالها. فشل خيالها. توجهت جنوبًا نحو راندال. ماذا توقعت أن ترى؟ طوى الليل الجنوب في جنح الظلام.

والشمال؟ لعلها ستزوره يومًا ما.

جعلها النسيم ترتجف وتوجهت نحو الشارع. كان من الآمن أن تذهب إلى سام الآن.

لم يعرف سيزر لم طلب سام رؤيتهما. أشار إليه سام عندما مر بجانب الحانة وأخبره بأن يأتيها «الليلة». لم ترجع كورا إلى المحطة منذ وصولها أول مرة، لكن يوم الوصول كان حيويًا جدًا لذا لم تواجه مشكلة في تذکر الطريق. ذكّرتها ضجة الحيوانات داخل الغابة المظلمة، وتمایل الأغصان وغنائها برحلتها، ومن ثم اختفاء لوفي في عمق الظلام.

كانت تسير بشكل أسرع كلما رفرق الضوء من نوافذ سام خلال

الفروع. احتضنها سام بحماسة المعتاد، قميصه رطب تفوح منه رائحة المشروبات الروحية. كانت مشتتة جدًا في زيارتها السابقة لدرجة أنها لم تلاحظ الفوضى التي تعم المنزل؛ الأطباق المتسخة، نشارة الخشب، وأكوام الملابس. للوصول إلى المطبخ عليها أن تخطو فوق صندوق أدوات مقلوب، كانت محتوياته ملقاة على الأرض، والمسامير المنتشرة مثل لعبة رفع العصي. ستوصيه قبل مغادرتها بالاتصال بمكتب التنسيق كي يبعثوا له فتاة للتنظيف.

كان سيزر قد وصل بالفعل ووضع زجاجة من البيرة على طاولة المطبخ. جلب واحدة من الجفّنات التي يصنعها لسام ومرّر أصابعه على قاعها كما لو كان يبحث عن شقّ غير محسوس. نسيت كورا تقريبًا أنه يعشق العمل على الخشب. لم تره كثيرًا في الآونة الأخيرة. كان قد اشترى مزيدًا من الملابس الفاخرة من متجر الملّونين وسرّها ذلك، وهي تراه يرتدي بذلة غامقة تلائمه جدًا. كما وجد من يعلّمه كيف يسوّي ربطة العنق، أو ربما كان شيئًا تعلّمه من الوقت الذي قضاه في فرجينيا، عندما كان يعتقد أن المرأة البيضاء العجوز سوف تحرّره، فعمل على تحسين مظهره.

"هل من قطار قادم؟" سألت كورا.

"خلال بضعة أيام"، قال سام.

تململ سيزر وكورا في مقعدهما.

"أعلم أنكما لا تريدان الرحيل"، قال سام. "ليس بالأمر المهم".

"لقد قررنا البقاء"، قال سيزر.

"أردنا التأكد قبل إخبارك"، أضافت كورا.

اتكأ سام على الكرسي الذي يُصدر صريرًا. «يسعدني أنكما فوّتّما

القطارات وقررتما تجربة حظكما هنا»، قال وكيل المحطة. «لكن ربما تبدلان رأيكما بعد سماع قصتي».

عرض عليهما سام بعض الحلويات - كان عميلاً مُخلصاً لمخبز مثالي يقع قبالة الشارع الرئيسي - ومن ثم أخبرهما عن سبب طلبهما. «أريد أن أحذركما من حانة ريد»، قال سام.

"هل أنت خائف من المنافسة؟" قال سيزر مازحاً. هذا شك مستحيل. فصالون سام لا يخدم الملونين. بينما كان كان ريد يخدم بشكل حصري سگان المهاجع ممن يرغبون في تناول الشراب والرقص. ولم يمانع المحل أن يخدمهم ويقدم خدماته لهم بالدين.

"أكثر سوءاً من ذلك"، قال سام. «وكي أكون صادقاً، لست متأكداً من العبرة في القصة». كانت قصة غريبة. كان صاحب الحانة، كالب، صاحب تصرفات سيئة بصورة ملحوظة؛ وكان لسام سمعة مدير الحانة الذي يستمتع بالمحادثة. «تتعرف على الحياة الحقيقية بالعمل في ذلك المكان»، كان سام يحب قول ذلك. أحد زبائن سام المنتظمين كان طبيباً يدعى بيرترام، تم تعيينه مؤخراً في المستشفى. لا يختلط اجتماعياً مع الشماليين الآخرين، بل كان يفضل الجوامخ مختلف والرفقة اللاذعة على المشرب. يُحب الويسكي «لكي يُغرق آثامه»، قال سام.

في الليلة النموذجية، يُبقي بيرترام أفكاره منظمة حتى مشروبه الثالث، حيث يطلق الويسكي لسانه ويبدأ في الهديان حول عواصف ثلجية في ماساتشوستس، وطقوس المدارس الطبية، أو الذكاء النسبي لفرجينيا أوبوسوم. ثم قال سام إن حديثه في المساء السابق كان حول رفقة الإناث. كان الطبيب مداوماً على زيارة منشأة الآتسة ترومبال، ويفضله على منزل لانشستر، لأن فتياته ذوات مزاج كئيب حسب رأيه، كما لو

تمّ جلّهن من ماين أو غيرها من المحافظات العاشقة للكآبة.
"سام؟" قالت كورا.

"أنا آسف يا كورا". قال باقتضاب. عدّد د. بيرترام بعض فضائل الأنسة ترومبال، ثم أضاف: "أيا كان ما تفعله يا رجل، فقط ابتعد عن مقهى ريد، في حال كنت تشتهي الفتيات الزنجيات". فالعديد من مرضاه الذكور يتردّدون على الحانة ويقضون وقتهم مع الزيونات هناك. يظنّ مرضاه أنهم يعالجون من أمراض الدم. إلا أن المقويّات التي تعطيها لهم المستشفى كانت مجرد ماء سكر. في الواقع، كان الزوج يشاركون في دراسة للمراحل الكامنة والثالثة من مرض الزهري.

"هل يظنون أنك تساعدهم؟" سأل سام الطبيب. فأبقى صوته محايدًا رغم الاحمرار القليل الذي علا وجهه.

يقول بيرترام: «إنه بحث مهم، يحاول اكتشاف كيف ينتشر المرض، ومعرفة مسار العدوى، ونحن نقرب الآن من إيجاد علاج». كانت ريد هي حانة الملونين اللائقة في المدينة؛ حصل المالك على تمديد لدفع الإيجار مقابل إبقاء عينه ساهرة. كان برنامج الزهري واحدًا من عديد من الدراسات والتجارب الجارية في جناح الملونين في المستشفى. هل عرف سام أن قبيلة الإيبو في القارة الأفريقية مهيئة للاضطرابات العصبية؟ الانتحار والمزاج السوداوي؟ روى الطبيب قصة أربعين عبدًا، كانوا مقيدين معًا على متن سفينة، فقفزوا من سطح السفينة بشكل جماعي بدلًا من العيش في العبودية. العقل الذي يمكن أن يتصور وينفذ مثل هذا الشيء بالطبع رائع! ماذا لو قمنا بإجراء تعديلات على أنماط تربية الزوج وإزالة تلك النزعات الكئيبة؟ والتحكم في التصرفات الأخرى، مثل العدوان الجنسي والطبيعة العنيفة؟ يمكننا

حماية نساتنا وبناتنا من تحدي الغاب، والذي يفهمه الدكتور بيرترام على أنه خوف خاص من الرجال البيض الجنوبيين.

مال الطبيب. هل قرأ سام صحف اليوم؟ هزّ سام رأسه بالنفي وصبّ مشروبًا للرجل.

ومع ذلك، لا بد أن سام قد رأى الافتتاحيات على مر السنين، أصرّ الطبيب، مُعربًا عن قلقه بشأن هذا الموضوع بالذات. لقد استوردت أميركا عديدًا من الأفارقة لدرجة أن فاق عددهم البيض في بعض الولايات. ولهذا السبب وحده فإن التحرر مستحيل. مع التطهير الاستراتيجي - أولاً النساء، وبعد ذلك كلا الجنسين - يمكننا تحريرهم من العبودية دون الخوف من أنهم سوف يذبحوننا أثناء نومنا. لقد كان مهندسو انتفاضات جامايكا من سلالة البنينيين والكونغوليين العنيدين والبارعين. ماذا لو أننا خففنا روابط الدم هذه بعناية مع مرور الوقت؟ قال الطبيب إن البيانات التي تم جمعها عن الملونين وذريتهم على مدى سنوات وعقود، ستشكل واحدة من أجمل المغامرات العلمية في التاريخ. التطهير المراقب، والبحوث في الأمراض السارية، وكمال التقنيات الجراحية الجديدة لغير الصالحين اجتماعيًا - لا عجب إذن أن أفضل المواهب الطبية في البلاد يتدفقون صوب كارولينا الجنوبية؟ ثم دخل إلى الحانة مجموعة من المشاعبين واحتشدوا حول بيرترام إلى نهاية طاولة الساقى. أصبح سام مشغولًا بالزيائن. شرب الطبيب بهدوء فترة ثم انسلّ خارجًا. «لستما من النوع الذي يذهب إلى ريد، لكن أردت أن تعرفا ما يجري». قال سام.

"ريد" قالت كورا. «الأمر أكبر من الحانة يا سام. يجب علينا إخبارهم أنه يتم الكذب عليهم وأنهم مرضى».

اتفق معها سيزر.

"هل سيصدقونك بدلاً عن أطباءهم البيض؟" سأل سام. «بأي دليل؟ ليس هناك سلطة يمكن اللجوء إليها للإصلاح - فالمدينة تدفع لقاء كل هذا. أيضًا هناك بقية المدن الأخرى التي أدخل الملونون فيها ضمن النظام نفسه. ليس هذا هو المكان الوحيد الذي بُني فيه مستشفى جديد".

تناقشوا حول الموضوع على طاولة المطبخ. هل من الممكن أن ليس الأطباء فقط هم من تورط، وأن جميع المسؤولين عن السكان الملونين قد شارك في هذا المخطط الفظيع؟ يوجهون الملونين نحو هذا الطريق أو ذاك، ويشترونهم من المزادات والعقارات من أجل إجراء هذه التجربة؟ كل تلك الأيدي البيضاء تعمل بتناغم، يقومون بتحديد حقائقهم وأرقامهم على ورقة زرقاء. بعد مناقشة كورا مع الدكتور ستيفنز، أوقفها الأنسة لوسي ذات صباح وهي في طريقها إلى المتحف. هل فكرت كورا في برنامج تحديد النسل في المستشفى؟ ربما بإمكان كورا التحدث مع فتيات أخريات حول الموضوع، وذلك باستخدام كلمات يفهمها. قالت المرأة البيضاء أن هذا سيكون موضع تقدير كبير. كانت هناك أنواع كثيرة من الوظائف الجديدة التي افتتحت في المدينة، ووفرت فرصًا للذين أثبتوا جدارتهم. فكرت كورا في الليلة التي قررت فيها وسيزر البقاء، وصراخ تلك المرأة المتجولة في الحديقة بعد انتهاء الحفل الاجتماعية. «إنهم يأخذون أطفالنا». لم تكن المرأة ترى ظلمًا زراعيًا قديمًا، بل جريمة ارتكبت في حقها هنا في كارولينا الجنوبية.

الأطباء هم من كانوا يسرقون أطفالها، وليس السادة السابقين. "يريدون أن يعرفوا من أي مكان في أفريقيا يتحدّر آبائي"، قال سيزر.

«كيف لي أن أعرف؟ قال إنّي أملك أنف البنينيين».

"لا وجود لمثل هكذا إطراء إلا قبل قيامهم بخضي الشخص"، قال سام. «يجب أن أخبر ميغ»، قال سيزر. «بعض أصدقائها يقضون الأمسيات في ريد. وأعرف أن لديها عددًا قليلاً من الرجال ممن يرونهم هناك».

"من هي ميغ؟" قالت كورا.

"إنها صديقة كنت أقضي الوقت معها".

"لقد رأيتهما تتمشيان في الشارع الرئيسي منذ بضعة أيام"، قال سام. "إنها مُدهشة جدًا".

"كانت ظهيرة جميلة"، قال سيزر. أخذ رشفة من الجعة، مركزًا على الزجاجاة السوداء، متحاشيًا نظرات كورا.

حتى الآن لم يحرزوا تقدمًا يُذكر في ذلك العمل، ويكافحون مشكلة من يجب أن يتجهوا إليه، وردّة فعل السكان الملونين الآخرين المحتملة. قال سيزر، لعلهم يفضلون عدم المعرفة، لأن ليس من مقارنة بين هذه الشائعات وما تم تحريرهم منه! أي نوع من المعادلات سيجره جيرانهم، بالأخذ في الاعتبار كلّ مميزات ظروفهم الجديدة ضد الادّعاءات وحقيقة ماضيهم؟ ووفقًا للقانون، ما يزال معظمهم ضمن الممتلكات، وأسماءهم مسجّلة في ورق داخل خزانات تحتفظ بها حكومة الولايات المتحدة. ما يمكن القيام به في الوقت الراهن هو تحذير الناس.

اقتربت كورا وسيزر من المدينة عندما أخبرها «إن ميغ تعمل لدى واحدة من تلك العائلات الواشنطنونية. في واحدة من تلك البيوت الضخمة التي تزينها».

قالت كورا، «أنا سعيدة أن لديك أصدقاء».

"هل أنت متأكدة؟".

"هل قرار بقائنا خاطئ؟" سألت كورا.

"ربما هذه هي اللحظة التي يجب أن نرحل فيها"، قال سيزر. "وربما لا. ما الذي كانت ستقوله لوفي؟"

لم يكن لدى كورا إجابة، ولم يتكلما ثانية.

نامت بشكل متقطع. كانت النساء تشخرن وتتقلبن تحت أغطيتهن على الأسرة الثمانين الأخرى. لقد ذهبن إلى الفراش وهنّ يعتقدن أنّهن بعيدات عن سيطرة البيض وأوامرهم حول ما يجب عليهن القيام به، وأنهن يُدرن شؤونهن الخاصة. ما زالت النساء خاضعات يُستأنس بهن. لم يعدن مجرد بضائع مثل السابق، بل ماشية: تلد، ويُقطع نسلها، وتُثقل عليهن المهاجع التي كانت مثل التعاونيات أو الأقفاص.

في الصباح، ذهبت كورا إلى عملها مع بقية الفتيات. بينما هي والأنواع الأخرى على وشك ارتداء ثيابهن، سألت إيزيس إذا كان بإمكانها تبديل الغرف مع كورا. كانت تشعر بالضعف وأرادت أن تستريح على عجلة الغزل. «أرغب في الجلوس قليلاً».

حصلت كورا على المناوبة التي تناسب شخصيتها بعد ستة أسابيع عمل في المتحف. فالابتداء في غرفة «يوم نموذجي في المزارع»، سيمكّنها من الانتهاء من مناوبتها بعد وجبة منتصف النهار. كانت كورا تكره عرض العبيد السخيف وتفضل الانتهاء منه بأسرع وقت ممكن. الانتقال من عرض المزارع إلى سفينة العبيد ثم إلى أفريقيا الحالكة ولّد داخلها منطلقاً مهدئاً. كان مثل العودة بالزمن والانفكاك من أمريكا. إنهاء يومها بمشاهد من أفريقيا الحالكة لم يفشل قط في نقلها إلى نهر من الهدوء، بحيث أصبح المسرح البسيط أكثر من مسرح، أصبح ملجأً حقيقياً. لكن كورا وافقت على طلب إيزيس. وبذلك أنهت اليوم كعبيدة.

في الحقول، كانت دائماً تحت رحمة المشرف أو الرئيس. «احني ظهرك!» «اعملي في هذا الصف!» عند آل أندرسون، عندما تكون مايسي في المدرسة أو مع زملائها وريموند نائماً، عملت كورا بسلام ودون مضايقة. كان ذلك كثرًا صغيرًا في منتصف اليوم. عملها مؤخرًا في المعرض أعادها إلى أخايد جورجيا، بينما تعيدها نظرات الجمهور الغبية المحدقة إلى العرض.

في يوم من الأيام قررت أن تنتقم من امرأة بيضاء ذات شعر أحمر كانت تتجهم عندما ترى نوبة كورا «في مشهد البحر». ربما تزوجت المرأة ببخار ذو نزعات فاسدة وكرهت تذكيرها به - لم تعرف كورا مصدر عدائها ولم تهتم. لقد أزعجت المرأة. حدقت كورا في عينيها بنظرة ثابتة وشرسة، حتى تراجعت المرأة وابتعدت بخوف عن الزجاج نحو القسم الزراعي.

منذها، صارت كورا تختار شخصًا واحدًا على مدار الساعة لتبادله تلك النظر الحادة. موظف شاب تملص من مكتبه في مبنى غريفين، أو رجل مغامرات، أو مراقبة مُعدّبة تحاول السيطرة على أطفال جامحين؛ واحد من الشباب اللؤماء الذين يحبون الوقوف قبالة الزجاج وترهيب الأنواع. أحيانًا تختار هذا، وطورًا ذاك. اختارت الحلقات الضعيفة بين الحشد، أولئك الذين ينكسرون تحت نظراتها. الحلقة الضعيفة - أحببت وقع ذلك على أذنها. البحث عن الخلل في الأغلال التي تبقيك قيد العبودية. وبأخذهم بشكل فردي لم تكن الحلقات الضعيفة ذات أهمية. لكن بربطها مع رفاقهم، يصبحون حديدًا عظيمًا يستطيع إخضاع الملايين على الرغم من ضعفها حلقة حلقة. الناس الذين اختارهم، صغارًا وكبارًا، من الجزء الغني من المدينة أو الشوارع الأكثر

تواضعًا، لم يضطهدوا كورا بشكل فردي. كمجتمع، كانوا أغلًا. وإذا استمرت في كسر الحلقات الضعيفة أينما وجدت، فربما يُسفر ذلك عن شيء يومًا ما.

طوّرت كورا نظرتها الشريرة. كانت تنظر من وراء عجلة العبيد أو النيران الزجاجية أمام الكوخ لتتّب شخصًا في مكانه مثل الخنفساء أو العثّ في معارض الحشرات. كان الناس يتراجعون دائمًا، لا يتوقعون هذا الهجوم الغريب، ينذهلون أو ينظرون إلى الأرض أو يجبرون رفاقهم على سحيم بعيدًا. اعتقدت كورا أنه كان درسًا جيدًا، لمعرفة أن العبد، الأفريقي بينكم، ينظر إليك أيضًا.

في اليوم الذي شعرت فيه إيزيس بالتعب، وخلال مناوبة كورا الثانية على السفينة، نظرت وراء الزجاج ورأت مايسي بجداولها الطويلة مرتدية واحدة من الفساتين التي اعتادت كورا غسلها وتعليقها. كانت رحلة مدرسية. تعرّفت كورا على الأولاد والبنات الذين يرافقونها، حتى لو لم يتذكروها كخادمة آل أندرسون القديمة. لم تتعرّف عليها مايسي في البداية. ثم رمقتها كورا بنظرها الشريرة فعرفت الفتاة. شرح المعلم معنى العرض، وأشار الأطفال الآخرون وسخروا من ابتسامة الرّبان جون - انتفض وجه مايسي في خوف. من الخارج، لا يستطيع أحد أن يقول ما حدث بينهما، تمامًا مثلما حدث عندما تواجعت هي وبليك يوم بيت الكلب. فكّرت كورا، سوف أحطّمك أنتِ أيضًا يا مايسي، وقد فعلت، ابتعدت الفتاة الصغيرة من نافذة العرض. لم تعرف كورا لِمَ فعلت ذلك، وظلّت خجلة لحين خلع ملابسها وعودتها إلى المهجع.

في ذلك المساء ذهب لزيارة الأنسة لوسي. طوال اليوم كانت كورا تفكر في الأخبار التي نقلها لها سام، وترفعها قبالة الضوء وكأنها دمى أطفال

بشعة. كانت المشرفة قد ساعدت كورا مرات عديدة. أما الآن فقد صارت اقتراحاتها ومشورتها تماثل المناورات، بالطريقة التي يخدع بها المزارع حمازًا للتحرك بما يتماشى ونواياه.

كانت المرأة البيضاء تجمع كومة من أوراقها الزرقاء عندما ظهرت كورا فوق رأسها داخل المكتب. هل كُتِب اسمها هناك، وما هي الملاحظات التي ستكتب بجانب اسمها؟ لا، صحّحت نفسها: اسم يبسي، وليس اسمي أنا.

"لدي دقيقة فقط"، قالت المشرفة.

"رأيْتُ الناس يعودون إلى رقم 40"، قالت كورا. "ولكن كلهم جُدد لا أحد مِمَّن اعتادوا العيش هناك. هل ما زالوا في المستشفى يتلقون علاجهم؟"

نظرت الآنسة لوسي في أوراقها بصرامة وقالت «تم نقلهم إلى مدينة أخرى». «نحن في حاجة للغرف من أجل الوافدين الجدد، لذلك يتم إرسال نساء مثل غيرترود، مِمَّن هم في حاجة إلى مساعدة، إلى حيث يمكنهن الحصول على اهتمام أكثر ملاءمة».

"ألن يعدن مرة أخرى؟"

"لا لن يفعلن". قالت الآنسة لوسي وهي تُقيِّم زائرتها. «أعرف أن الأمر يزعجك. أنت فتاة ذكية يا يبسي. وما زلت أتمنى أن ترتدي معطف القيادة مع أولئك الفتيات الأخريات، حتى إذا لم تعتقدي أن العملية هي ما تحتاجين إليه الآن. يمكنك أن تكوني إضافة حقيقية لبني جنسك لو وضعت الأمر نصب عينيك».

"أستطيع أن أقرر لنفسي"، قالت كورا. "لَمْ لا يمكنهن القيام بالشيء نفسه؟ في المزرعة كان السيد يقرر كل شيء لأجلنا. اعتقدت أننا انتهينا

من كل ذلك بعد مجيئنا هذا المكان».

ذهلت الأنسة لوسي من التشبيه. «إذا لم تتمكني من التفرقة بين الناس الجيدين الشرفاء والمضطربين عقليًا والمجرمين والبلهاء، فلست الشخص الذي ظننته».

"أنا لست الشخص الذي ظننته."

قاطعتهما واحدة من المشرفات، امرأة عجوز تدعي روبرتا، عادة تعمل منسقة مع مكتب التنسيب، وهي من وضعت كورا مع آل أندرسون قبل بضع شهور. «لوسي؟ إنهم ينتظرونك».

تذمرت الأنسة لوسي. «كل الأوراق لدي هنا»، أخبرت الأنسة لوسي زميلتها. «ولكن السجلات في غريفين مطابقة لها».

قانون الهاربين يقول إنه يجب عليك تسليم الهاربين وألا تعيق مطاردهم - لن نترك كل ما نفعله فقط لأن مطارِدَ عبيدٍ يظنّ أنّه اقترب من مكافأته. نحن لا نُؤوي القتلة». قامت وهي تضمّ رزمة الأوراق إلى صدرها. «سوف نواصل حديثنا غدًا يا ييسي. أرجوك فكري في نقاشنا».

تراجعت كورا إلى درج المهجع. جلست على العتبة الثالثة. ربما يبحثون عن أيّ شخص. كانت المهاجع مليئة بالهاربين الذين لجأوا إلى هنا، سواء في أعقاب هروبهم مؤخرًا من أغلالهم أو بعد سنوات من بدء حياة لأنفسهم في أماكن أخرى. ربما يبحثون عن أي شخص. كانوا يطاردون القتلة.

ذهبت كورا إلى مهجع سيزر أولًا. كانت تعرف جدولها، لكن في نوبة ذعرها لم تتذكر مناوباته. في الخارج، لم تر أي رجل أبيض من النوع

القاسي الذي تخيلت أن صائدي العبيد قد يبدون عليه. انطلقت عبر العشب. نظر إليها أكبر رجل في المهجع - هناك دائمًا افتراضات ضمنية خليعة عندما تزور فتاة مهجع الرجال - وأبلغها أن سيزر ما يزال في المصنع. «أتريدين أن تنتظري معي؟»

كان الظلام قد حلّ. فكرت ما إذا كان يجب أن تخاطر بالسير في الشارع الرئيسي أم لا. اسمها في سجلات المدينة كان بيسي. والمنشورات التي رُسموا عليها والتي طبعها تيرانس بعد هروبهما كانت مرسومة بشكل فظيع، لكنها تشبههما بما يكفي لجعل أيّ صياد ماكر يرمقها مرتين. لن تملك فرصة استراحة إلا بعد التحدّث مع سيزر وسام. أخذت شارع إلم، الموازي للماين، حتى وصلت إلى الحيّ الذي توجد فيه الحانة. وعند كل زاوية كانت تتوقع القوآت على الخيول، بمشاعلها وبنادقها والابتسامات اللثيمة. كانت الحانة مليئة بالزوار في وقت مبكر من المساء، رجالٌ مميّزتهم وآخرون لم تميزهم. كان عليها المرور بجانب نافذة الحانة مرتين قبل أن يلمحها موظف المحطة، ويخبرها أن تأتي من الخلف.

ضحك الرّجال في الحانة. وانزلت هي خلال الضوء المنعكس على الزقاق من الداخل. كان الباب الخارجي مفتوحًا جزئيًا، وخالٍ من أي شخص. وقف سام في الظلال، رفع قدمه على صندوق ليربط حذائه الجلدي. «كنت أبحث عن فرصة للقاء لتتحدث»، قال. «اسم مطارد العبيد هو ريدجواي. وهو يتحدّث عنك أنت وسيزر إلى الشرطة الآن. وكنّ أقدم الويسيكي لاثنين من رجاله». سلّمها منشورًا. كان واحدًا من النشرات التي وصفها لهم فليتشر في كوخه، مع تغيير واحد. والآن بعد أن تعلمت القراءة، آلمت كلمة القتل قلبها.

كانت هناك مشاجرة داخل الحانة واتّجهت كورا أبعد داخل الظلال. لم يكن باستطاعة سام المغادرة إلا بعد ساعة أخرى. قال إنّه سوف يجمع معلومات بقدر الإمكان وسيحاول الوصول إلى سيزر في المصنع. كان من الأفضل لو ذهبت كورا إلى منزله وانتظرته هناك.

ركضت كما لم تفعل منذ فترة طويلة، والتزمت جانب الطريق مندفعة إلى الغابة عندما سمعت صوتَ مسافر. دخلت كوخ سام من الباب الخلفي وأضاءت شمعة في المطبخ. غير قادرة على الجلوس، فعلت كورا الشيء الوحيد الذي جلب لها الهدوء، نظفت جميع الأطباق لحين عودة سام إلى المنزل.

"الوضع سيّئ"، قال وكيل المحطة. «بعد حديثنا جاء أحد صائدي المكافآت. كان يرتدي طوقاً يحتوي آذاناً بشرية حول عنقه مثل هندي أحمر، ويبدو أنه صعب المراس. وأخبر الاثنين الآخرين أنهم يعرفون مكانهما. ثم غادروا للقاء رجلهم الذي اسمه ريدجواي في الباب الأمامي». كان يلهث من الركض وقال، «لا أعرف كيف، لكنهم يعرفون من أنت».

أمسكت كورا إحدى أواني سيزر. أدارته بين يديها. «لقد جمعوا قوَّاتٍ صغيرة معاً»، قال سام. «لم أستطع الوصول إلى سيزر. هو يعلم أن عليه المجيء هنا أو إلى الحانة - كان لدينا خطة. قد يكون بالفعل في طريقه». قرّر سام العودة إلى الحانة لانتظاره.

"أتظن أن أحدًا شاهدنا نتحدث؟"

"ربما، عليك النزول إلى منصة القطار".

سحبنا طاولة المطبخ والسجادة الرمادية الكبيرة. ثم رفعنا باب القبو معاً - كان المكان ضيقاً - الهواء المتعفن أطفأ الشمعة. أخذت بعض

الطعام ومشعلًا وهبطت نحو الظلمة. أغلق الباب فوقها وأعاد الطاولة إلى مكانها.

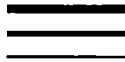
كانت تتجنب الدَّهاب إلى كنائس الملونين في المدينة. كان راندال قد نهى عن ممارسة الدين في مزرعته للقضاء على إلهاء الخلاص، كما لم تنل الكنائس اهتمامها ولا مرة منذ جاءت كارولينا الجنوبية. عرفت أن ذلك جعلها تبدو غريبة لدى السكان الملونين الآخرين، لكن كونها غريبة هو أمر لم يهمها منذ فترة طويلة. هل كان من المفترض أن تصلي الآن؟ جلست على الطاولة في ضوء المصباح الشَّحيح. كان المكان مظلمًا جدًّا عند المنصَّة فلم تتمكن من معرفة بداية النفق. كم من الوقت سوف يستغرقهم للقضاء على سيزر؟ بأيِّ سرعة يمكنه الركض؟ كانت على بيّنة من التنازلات التي يقدِّمها الناس في الحالات اليائسة: لتقليل الحثي لدى طفل مريض، لوقف وحشية مشرف، لإنقاذ أحدهم من عقوبة في جحيم العبيد. وحسب ما رأت، أبدًا لم تؤت المساومات ثمارها. في بعض الأحيان تهدأ الحثي، لكن المزرعة كانت دائمًا هناك. لم تصلي كورا.

سقطت نائمة أثناء الانتظار. ولاحقًا زحفت كورا مرة أخرى نحو الدرج، جثمت فقط عند الباب، وأنصتت. قد يكون الوقت ليلاً أو نهاريًا في العالم الخارجي. كانت جائعة وعطشة. أكلت بعض الخبز والنقانق. تنقَّلت جيئةً وذهابًا على الدرج، تضع أذنها على الباب ثم تتراجع بعد مرور الوقت، مرّت ساعات. عندما انتهت من الطعام، كان يأسها كاملاً. أصاحت السَّمع عبر الباب. لم تلتقط أي مصدر صوت.

أيقظها الرعد في الأعلى وقطع عليها الفراغ. لم يكن رجلًا واحدًا أو اثنين، لكن عديدًا من الرجال. نهبوا المنزل وصرخوا، ضربوا الخزائن

والأثاث. كان الضجيج عاليًا وعنيفًا وقريبًا جدًا، فتقرفت أسفل
الدرج. لم تتمكن من تمييز كلماتهم. ثم انتهوا. طبقات الباب لم تنقل
أي ضوء. لم تكن تشم رائحة الدخان، لكنها سمعت تحطم الزجاج
والفرقة وتشقق الخشب.
كان المنزل يشتعل.

ستيفنز



يقع منزل التشريح في كلية طب بروكتور على بعد ثلاثة أبنية من المبنى الرئيسي، وهو المبنى الذي يسبق الأخير على شارع مسدود. لم تكن المدرسة ذات متطلبات كثيرة مثل كليات الطب المشهورة في بوسطن؛ استلزم خطاب القبول تمديدًا. عمل ألويسيس ستيفنز ليالٍ من أجل تلبية شروط زمالته. في مقابل تخفيف الرسوم الدراسية ومكانٍ للعمل - المناوبات الليلية كانت هادئة ومواتية للدراسة - جلبت المدرسة شخصًا ما للتعرف على خاطف الجثامين.

رغم أن كاربنتر يصل عادةً قبل الفجر مباشرة، أي قبل استيقاظ سكان الحي، فقد جاء هذه الليلة عند منتصف الليل. أشعل ستيفنز مصباح غرفة التشريح وركض على الدرج.

كاد أن ينسى كوفيته، ثم تذكر كيف كان الجو باردًا آخر مرة، عندما زحف الخريف لتذكيرهم بالموسم المرير القادم. أمطرت السماء هذا الصباح وتمنى ألا يكون المكان موحلاً جدًا. فقد كانت بطانة حذائه الوحيد في حالة بائسة.

في الخارج كان كاربنتر وسائقه، كوب، ينتظران في السيارة. استقر ستيفنز في العربة ومعه الأدوات. انزلق أسفل السيارة إلى أن ابتعدوا مسافة كافية، حتى لا يراه شخص من أعضاء هيئة التدريس أو

الطلاب. كان الوقت متأخرًا، لكن خبير عظامٍ من شيكاغو جاء في تلك الليلة، وربما ما زال الجميع يتسكعون في الحانات المحلية. شعر ستيفنز بخيبة أمل بسبب تفويت محاضرة الرجل - زمالة الكلية عادة ما تمنعه من حضور محاضرات المحاضرين الضيوف - لكن المال سيُزيل بعض الوجع. ينحدر معظم الطلاب الآخرين من عائلات ماساتشوستس الميسورة، لا تشغل بالهم مخاوف الإيجار أو الطعام. عندما مرّت العربة قرب ماكغينتي وسمع الضحك في الداخل، سحب ستيفنز قبعته إلى أسفل.

انحنى كوب نحوه. «سنتوجّه إلى كونكورد الليلة»، وعرض عليه قارورته. رفض ستيفنز مشاركة مشروب كوب لأنه كان يضع قواعدًا للتعامل معه. فرغم أنه ما يزال يدرس فقد كان متأكدًا من التشخيصات المختلفة التي توصل إليها عن صحّة الرجل. كانت الرياح حادة وسريعة، وكانوا سيقضون ساعات في الظلام والطين قبل العودة إلى بيت التشريح. أخذ ستيفنز نفسًا طويلاً لدرجة أن اختنق برائحة الدخان. «ما هذا؟»

"واحدة من اختراعات ابن عمي. تأثيرها أكبر من أن تحتمله؟ «ضحك كوب وكارينتر.

على الأرجح أنه جمع بقايا الليلة الماضية من الحانة. استقبل ستيفنز المزحة بروح جيّدة. كان كوب قد تقرب من ستيفنز على مدى الأشهر الماضية. استطاع ستيفنز أن يتصور شكاوى الرجل عندما اقترحه كارينتر ليحل مكان أي شخص تخلّف عن العمل، أو مسجون، أو غير متوفر لبعثاتهم الليلية. من كان يعتقد أن بمقدور هذا الصبي الغني صون لسانه؟ (لم يكن ستيفنز غنيًا ولم يكن يتخيّل ذلك سوى في

أحلامه). في الآونة الأخيرة شرعت المدينة في شق لصوص القبور، وبدا الأمر مثيراً للسخرية أو ملاماً حسب منظور المرء، أمّا جثث المشنوقين فقد مُنحت لكليات الطب من أجل تشريحها.

"لا أمانع المشنقة"، قال كوب لستيفنز. وأضاف «فهي سريعة بما فيه الكفاية. تكمن المشكلة في الناس - أرى أن يكون عرضاً خاصاً. فمشاهدة رجل يتبرّز أحشاه هو أمر غير لائق".

أدى نبش القبور لتثبيت عُرى الصداقة. الآن عندما يناديه كوب بالطبيب، كان يفعلها باحترام وليس بسخرية. «لست مثل الآخرين»، أخبره كوب ذات مرة أثناء خروجهما بجثة من الباب الخلفي. «أنت أكثر غموضاً".

وقد كان.

من الجيد لجراح شاب أن يكون سيئ السمعة قليلاً، خاصة عندما يتعلق الأمر بتشريح الأجساد الميتة. فمنذ تدشين دراسة التشريح كان هناك نقص في الجثث. لم يوفر القانون، أو السجن، أو القاضي سوى جثث عدد كبير من القتلة والمومسات. نعم، قام أشخاص مصابون بأمراض نادرة وتشوهات غريبة ببيع أجسادهم للدراسة ما إن يموتوا، وتبرع بعض الأطباء بجثثهم اهتداءً بروح البحث العلمي، لكن أعدادهم لم تلبّ الطلب. كانت لعبة الجسد شرسة، للمشتريين والبائعين على حد سواء. المدارس الطبية الغنية تتفوق على الأقل حظاً. خاطفو الجثث يأخذون ثمن الجثة، ثم يضيفون الكفالة، ورسوم التسليم. بحيث ترتفع الأسعار في بداية العام الدراسي عندما يكون الطلب مرتفعاً، من أجل تقديم صفقات في نهاية العام عندما لا تعود هناك حاجة لعينة. تلك المفارقات المروعة واجهت ستيفنز يومياً. عملت مهنته على تمديد

الحياة في حين كان يأمل سرًا في زيادة أعداد الموتى. قد تؤدي بك دعوى سوء الممارسة للمثول أمام القاضي بجريمة الرغبة في اكتساب مهارة، أما أن يلقي القبض عليك مع جثة متعفنة ويعاقبك القاضي لمحاولتك اكتساب تلك المهارة فهو أمر سيئ. جعل المشرف طلابه يدفعون ثمن العينات المرضية الخاصة بهم. دورة ستيفنز الأولى في التشريح تطلبت تشريحين كاملين - كيف سيتمكن من توفير ثمن ذلك؟ بالعودة إلى دياره في ماين؟ نعم، دلتته والدته بوفرة طبخها؛ فنساء عائلتها كن موهوبات. هنا في المدينة، بسبب الرسوم الدراسية، والكتب، والمحاضرات، والإيجار، أصبح يتغذى على الفُتات لأيام.

لم يتردد ستيفنز عندما دعاه كارينتر للعمل معه. أخاف مظهر الرجل ستيفنز في أول عملية تسليم قبل أشهر. كان السارق الخطير عملاقًا إيرلنديًا، ممتلىء البنيان، جلف في سلوكه وكلامه، وتحيط به رائحة عفونة الأرض الرطبة. كان لكارينتر زوجة وستة أطفال؛ عندما مات اثنان منهما بسبب الحمى الصفراء، باع جسديهما لدراسة تشريحية. أو ذلك ما قيل. لم يسأله عن الأمر بسبب الخوف. فعندما تتاجر في الجثث، من الأفضل أن تكون منيعًا إزاء المشاعر.

لن يكون أول سارق جثث يفتح قبرًا ليعثر على وجه ابن عمّ خسره منذ فترة طويلة، أو صديق عزيز.

جند كارينتر أفراد عصابته من الحانة، كانوا جميعًا فظلين. ينامون في النهار، ويثملون في المساء، ثم ينطلقون للهُو. «ساعات العمل ليست جيدة جدًا، لكنها تناسب شخصية معينة من الرجال». الطابع الجنائي غير قابل للمقياس بأي مقياس. كانت تجارة وضيفة. الإغارة على القبور

أقلّ جوانبها وضاعة. كانت منافسة بين قطيع من الحيوانات المسعورة. أترك جثة في وقت متأخر من المساء وستكون عُرضة لأن يسرقها شخص آخر قبل أن تتمكن من العودة. أبلغ كارينتر الشرطة عن منافسيه، واقتحموا عُرف التّشريح لتشويه بضاعتهم. اندلعت المشاجرات عندما انضمت العصابات المتنافسة إلى تلك التجارة. وبين شواهد القبور حطم بعضهم وجوه بعض. «كان الأمر صاخبًا»، يقول كارينتر دائمًا عندما يُنهي إحدى قصصه، مبتسمًا عبر أسنانه الطحلبية.

في أيّام مجده، حوّل كارينتر حيل وخدع تجارته إلى فنّ شيطاني. جلب الصخور في عريات اليد لمتعهدي دفن ونقل الموتى. وقام أحد الممثلين بتدريس إخوته وأبناءه البكاء عند الطلب، وهو ما أطلق عليه حرفة الفجعية. ثم قاموا بجولات في المشرحة، يكذبون بشأن الجثث على أنهم أقارب أحد المفقودين منذ فترة طويلة - هذا رغم أن كارينتر لم يترفع عن سرقة الجثث من الطبيب الشرعي عندما يضطر. في أكثر من مناسبة باع كارينتر جثة إلى مدرسة تشريحية، وأبلغ الشرطة عن الجثة، ثم ارتدت زوجته ملابس الحداد وادعت أن الجثة لابنها. ثم يبيع كارينتر الجثة مرة أخرى إلى مدرسة أخرى. وقرّر ذلك على المحافظة تكاليف الدفن؛ لم يكن لأحد أن يفحص الأمر عن كثب.

في نهاية المطاف نمت تجارة الموتى بشكل متهور لدرجة أن صار الأقارب يسهرون بجانب المقابر، لئلا يختفي أحبّاءهم أثناء الليل. فجأة صار الناس يظنون أن كل طفل مفقود هو ضحية تلك اللعبة الفاسدة - اختطف، قتل، ومن ثم بيع ليتم تشريحه. وفي افتتاحية غاضبة تناولت الصحف هذه القضية؛ في هذا المناخ الجديد، قام معظم خاطفي الموتى بتوسيع مجال عملهم، ودمروا المقابر البعيدة لتوسيع غاراتهم. تحول

كاربنتر للتجارة بأجساد الزنوج بشكل حصري.

لم ينشر الزنوج الحراس على مقابر موتاهم. ولم يترقبوا باب العمدة، ولم يطاردوا مكاتب الصحفيين. لم يهتم بهم أي عمدة، ولم يستمع أي صحفي إلى قصصهم. اختفت جثث أحبائهم في أكياس لتظهر في الأقبية الباردة للمدارس الطبية بغرض إفشاء أسرارهم. في رأي ستيفنز كان كل واحد منهم معجزة، فهم يعطون إرشادات بخصوص تعقيدات تصميم الربّ.

كان كاربنتر يكرّز على أسنانه عندما ينطق الكلمة، وكان كلبًا أجريًا ينهش عظامه: زنجي. بينما لم يستخدم ستيفنز الكلمة أبدًا. فهو لا يوافق على التعالي العنصري. وإذا فكرت في المسألة بتعمق، ستجد أن أيرلنديًا غير متعلم مثل كاربنتر، ساقه المجتمع إلى حياة نبش القبور، لديه أشياء مشتركة مع الزنجي أكثر من طبيب أبيض. وبطبيعة الحال لم يملك القوة لقول هذا بصوت عال. في بعض الأحيان تساءل ستيفنز إن لم تكن وجهات نظره أصيلة تبعًا لمزاج العالم الحديث. أما الطلاب الآخرون فقد تفوهوا بأشد الأشياء فظاعة عن سكان بوسطن الملونين، حول رائجتهم، ونقصهم الفكري، ودوافعهم البدائية. ومع ذلك، عندما وضع زملاؤه مباحثهم على جثة ملوثة، قدموا كثيرًا من أجل قضية تطوّر الملونين أكثر من أرفع العقول التي تطالب بإلغاء العبودية. في الموت يُصبح الزنجي إنسانًا. وحينها فقط يصير هو والرجل الأبيض متساوين.

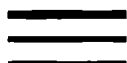
على مشارف كونكورد توقفوا عند بوابة خشبية صغيرة وانتظروا إشارة الحارس. حرّك الرجل فانوسه جيئة وذهابًا، وقاد كاربنتر العربة داخل المقبرة. دفع كوب مكافأة للرجل الذي ساقهم نحو غنيمة هذه

الليلة: اثنان كبيران، اثنان متوسطان، وثلاثة أطفال. كان المطر يبارك الأرض. وسوف يُنجز هذا في غضون ثلاث ساعات. وبعد أن يعيدوا ملء القبور، سيكون الأمر كما لو أنهم لم يدخلوا هذا المكان.

"تفضّل سكّين الجراح خاصتك". سلّم كارينتر ستيفنز المجرفة. سيعود طالب طبّ مرة أخرى في الصّباح. أما الليلة فهو رجل القيامة. سارق جثث هو الاسم الدقيق. رجل القيامة كانت كلمة منمقة أكثر، لكنه يعرف الحقيقة. كان يعطي هؤلاء الموتى فرصة ثانية للمساهمة التي حُرّموا منها في حياتهم السابقة.

كثيراً ما فكّر ستيفنز أنه إذا استطعت دراسة الموتى، فإمكانك دراسة الأحياء، وجعلهم يشهدون كما لا يمكن لأيّ جيفة أن تفعل. فرك يديه لتحريك الدماء في عروقه، وبدأ الحفر.

كارولينا الشماليّة





هاربة أو مُلكيّة منقولة، تقطن السّكن المشترك بالقرب من هندرسون عند التقاطع رقم 16 . فتاة زنجيّة تُدعى مرثا تنتمي إلى صاحب المنشور. الفتاة ذات بشرة داكنة اللون، نحيلة قليلاً، وتتحدث بطريقة الأحرار. تبلغ من العمر حوالي 21 عامًا؛ ترتدي قبّعة من الحرير الأسود مكسوّة بالريش، وفي حوزتها لحافٍ سرير من نوع كاليكو. سوف تحاول المشي مثل فتاة حُرّة.

ريدغون بانكس

مقاطعة غرانفيل، ٢٨ أغسطس ١٨٣٩



انطفأت الشموع. اصطكت أسنان فأر فأيقظ الصوت كورا،
وعندها عدلت جلستها، وزحفت عبر الأوساخ على أرضية المنصة باحثة
عن شيء تأكله، لكن دون جدوى. كان هذا هو اليوم الذي تلا انهيار منزل
سام، لكنها لم تكن متأكدة. من الأفضل أن تبدأ قياس الوقت بوحدة
من جداول أعمال القطن في مزرعة راندال. تراكم الجوع والخوف من
جانِب واجتثت آمالها من الجانب الآخر. الطريقة الوحيدة كي تعرف
الوقت الذي فقدته في الظلام هو أن يتم إنقاذك منه.

بعد أن جمعت تفاصيل سجنها، انحصرت حاجة كورا في ذلك الوقت
إلى ضوء شمعة يرافق وحدتها. ثمانية وعشرون خطوة هو طول
المنصة، وخمس خطوات ونصف يفصل المنصة عن جدار قضبان
السكة الحديدية. ستة وعشرون خطوة تفصلها عن العالم في الأعلى.
كانت القضبان دافئة عندما وضعت كفها عليها. عرفت أي عتبة مرّقت
فستانها عندما كانت تزحف لأعلى، إنها العتبة الثامنة، أما التي كانت
ستكشط جلدِها إذا نزلت بسرعة كبيرة فهي العتبة الخامسة عشرة.
تذكّرت كورا رؤية مكنسة عند زاوية المنصة. استخدمتها في نقر الأرض
مثل السيدة العمياء في المدينة، وبالطريقة نفسها التي شقّ بها سيزمراء
المستنقع الأسود أثناء رحلتها. ثم أصبحت خرقاء أو واثقة أكثر من

اللازم في قدرتها على التحرك في ذلك الظلام وسقطت على القضبان. فقدت المكنسة وكل رغبة غير البقاء على الأرض.

وجب عليها الخروج. في أثناء تلك الساعات الطوال، لم تتمكن من تلافي ابتكار مشاهد قاسية، وترتيب متحفها الخاص ذي العجائب الرهيبة. العصاة الشريفة تُعدم سيزر؛ سيزر معذب بوحشية ومُلَقَى على أرضية عربية صائد العبيد، وهو في منتصف الطريق إلى مزرعة راندال حيث تنتظره العقوبات. سام اللطيف في السجن. سام وهو مغطى بالقطران والرّيش، يستجوب بخصوص السكك الحديدية السرية، عظامه مكسورة وجسده مخدر. شرطي يرتدي بزة بيضاء يتنقل خلال بقايا الكوخ، يسحب الباب فوقها ويسلمها إلى البؤس.

كانت تلك هي المشاهد التي زيتتها بالدم عندما استيقظت. في أثناء الكوايس كانت المشاهد أكثر غرابة. كانت تمشي جيئة وذهابًا قبالة إحدى واجهات زُجاج العرض في المتحف، تحديدًا عالقة في الحياة على سفينة العبيد بعد أن أغلق المتحف أبوابه، تنتقل دائمًا بين الموائ في انتظار الريح بينما مئات الأنفوس المختطفة تصرخ تحت سطح السفينة. خلف النافذة التالية، شقت الآنسة لوسي معدة كورا بفتاحة الرسائل وانتشرت آلاف العناكب السوداء من أحشائها. عادت كورا مرارًا وتكرارًا إلى الليلة وراء المدخنة، حيث ترى ممرضات المستشفى تمسكن يديها بينما يزق تيرانس راندال ويندفع فوقها. تُيقظها الفئران عادة أو البقّ عندما يصبح فضولهم أكثر من اللازم، فتقطع أحلامها وتعيدها إلى ظلام المنصّة.

اهتزت بطنها تحت أصابعها. كانت قد جرّبت الجوع من قبل، عندما يقرّر كونيلى معاقبة الجميع عن سوء السلوك فإنه يقطع عنهم

الحصص التموينية. لكنهم ولأنهم بحاجة إلى الغذاء لمواصلة العمل، فقد تطَلَّب القُطن أن يكون العقاب مختصرًا. في هذا المكان ليس من سبيل لمعرفة متى ستأكل مجددًا. فقد تأخر القطار. في الليلة التي أخبرهم فيها سام عن الدم السيئ - عندما كان المنزل ما يزال قائمًا - كان من المقرر للقطار القادم أن يأتي بعد يومين. بحيث يكون قد وصل الآن. لا تعرف مقدار الوقت الذي تأخره، لكن التأخير لا يدل على شيء جيد. ربما أغلق هذا الفرع. خط جديد يُكتشف فيلغى هذا. لم يأت أحد. كانت ضعيفة وغير قادرة على السير مسافة أميال مجهولة إلى المحطة التالية، في كنف ظلام حالك، ناهيك عن مواجهة ما ينتظرها في المحطة التالية.

لو استخدمت هي وسيزر عقليهما كفاية وواصلتا سيرهما، لكانا الآن في الولايات الحرّة. ما الذي كان يدور في عقليهما حتى يظنّا أن اثنين من العبيد القذرين يستحقان مكافأة من كارولينا الجنوبية؟ وأن حياة جديدة قريبة للغاية بعد تخطي حدود الولاية فقط؟ كانا ما يزالان في الجنوب، وكان للشيطان أصابع طويلة ذكيّة. ورغم الدروس التي تلقاها من العالم، لم يستطيعا تمييز الأغلال عندما أصبحت متّجهة نحو معاصمهما وكواحلهما. كانت أغلال كارولينا الجنوبية جديدة الصنع - مفاتيح وأقفال إقليمية التصميم - لكنها أدت الغرض المطلوب من الأغلال. لم يسافرا بعيدًا على الإطلاق.

لم تستطع رؤية يديها أمامها لكنها رأت حادثة اعتقال سيزر عدة مرات. ضُبط في محطة مصنعه، اختُطف وهو في طريقه لمقابلة سام في الحانة. أمسكوا به أثناء تنزّهه في الشارع الرئيسي وهو ممسك يد فتاته ميغ. بكت ميغ عند اعتقاله، فدفعوها نحو الرصيف. ربما اتّخذ الأمر مساراً

مختلفًا لو سمحت لسيزر أن يكون حبيها: ربما اعتُقلًا معًا. وعندها لن يكونا وحيدين في سجنهما المنفصلين. دفعت كورا ركبتيها إلى صدرها ولفّت ذراعها حولهما. كانت ستخيّب أمه في النهاية. فقد كانت ضالة. ليست مجرد ضالة مثلما وصفتها الكلمة في المزرعة - يتيمة فاقدة للرعاية - لكن على كل صعيد آخر كذلك. ففي مكان ما، قبل سنوات، خرجت عن مسار الحياة ولم يعد بإمكانها أن تجد طريقها إلى الناس. اهتزت الأرض بخفة. في الأيام التالية، عندما تتذكر وصول القطار المتأخر، لن تربط الاهتزاز بالقاطرة لكن بالوصول الغاضب للحقيقة التي كانت تعرفها دائمًا: كانت ضالة بكل ما تعنيه الكلمة. كانت آخر فرد من قبيلتها.

اهتز ضوء القطار عند المنعطف. مدّت كورا يدها نحو شعرها قبل أن تدرك أن دفنها تحت الأرض لم يترك تحسُّنًا في مظهرها. لن يحكم المهندس على مظهرها؛ لأن مؤسستهم السريّة كانت بمثابة أخوية للنفوس الغربية. وبجماس لوّحت بيديها، وتلذّذت بالضوء البرتقالي الذي امتدّ على المنصة مثل فقاعة دافئة.

انطلق القطار مسرعًا بعيدًا عن المحطة وعن أنظارها. أوشكت أن تقع على القضبان بينما تركض وتصرخ خلف القطار، كان حلقها خشنًا وجافًا بعد أيام من الحرمان. توقفت كورا وجسدها يرتعش، ثم سمعت صوت القطار وهو يُقفل عائداً نحو المحطة.

بلهجة مُعتذرة قال المهندس «هل ستأخذين شطيرتي كذلك؟» بينما تجترع كورا الماء من وعائه. أكلت الشطيرة دون الانتباه لمزحته رغم أنها المرة الأولى التي تجرّب فيها أكل لسان الخنزير.

«لا يُفترض أن تكوني هنا»، قال الصبي معدلاً نظارته. لم يكن يتجاوز

الخامسة عشر عامًا، فتِيّ ومتحمس. «حسنًا، أنت تراني أليس كذلك؟»
لعلت أصابعها وذاقت طعم الثراب.

كان الصبي يصرخ «يا إلهي!» و«يا يسوع!» في كل جوانب قصتها المعقدة،
قبض بإبهاميه على جيوب ملابس عمله وهزّ كعبيه. كان يتحدث مثل
أحد الأطفال البيض الذين راقبتهم كورا في ساحة البلدة وهم يركلون
الكرة. له سلطة بهيجة لم تنسجم مع لون بشرته، ناهيك عن طبيعة
وظيفته. وحقيقة أنه كان يقود تلك القاطرة هي قصة أخرى، لكن لم
تكن هذه ساعة مناقشة التاريخ البعيد للأولاد الملونين.

"محطة جورجيا مغلقة"، قال في النهاية وهو يحكّ فروة رأسه تحت
قبّعته الزرقاء. «يجب علينا البقاء بعيدين. فعلى الأرجح أن الدوريات
قد اكتشفتها». تسلّق إلى كابينته بعد أن أنهى حديثه، ثم اتّجه إلى
حافة النفق. «لم يسمع المدراء أي أخبار من وكيل المحطة، لذا قدث
القاطرة مسرعًا. لم تكن هذه المحطة ضمن جدولي». كان يريد المغادرة
في الحال.

تردّدت كورا، غير قادرة على التوقف عن النظر إلى الدرج حتى اللحظات
الأخيرة، في ترقّب المسافر المستحيل. ثم صعدت نحو الكابينة.

"لا يمكن أن تجلسي هنا!" قال الصبي. «إنها القوائين".

"لا تتوقع مني أن أسافر داخل هذا الشيء"، قالت كورا.

"جميع ركّاب هذا القطار يجلسون داخل عربة القاطرة يا آنسة. إنهم
متشددون جدًّا فيما يخص هذا الأمر".

أن يطلق على تلك العربة المسطّحة أنها عربة قطار كان إساءة استخدام
لللمة. إنها تشبه العربة التي استقلتها إلى كارولاينا الجنوبية، لكن
في تصميمها فقط. فقد تُبنت الألواح الخشبية بإحكام إلى الهيكل

السفلي، دون جدران أو سقف. صعّدت على متن القطار منزعجة بينما يقوم الصبي بالاستعدادات. أدار رأسه نحو راكبته ولوّح بحماس لا يناسب الموقف.

كانت أشرطة وحبّال الشّحن ملقاة على الأرض، رخوة وملفوفة. جلست كورا وسط العربة المسطّحة، ولفّت حبّلاً حول خاصرتها ثلاث مرّات، وأمست اثنين آخرين وشكّلت منهم زوايا. وبقوة تمسّكت بالحبّل. انطلق القطار نحو النفق. متّجّها صوب الشمال. صرخ المهندس، «الجميع هنا!» قرّرت كورا أن الصبي كان بسيطاً على الرغم من مهامّه المكلف بها. نظرت إلى الوراء. تضاءل سجنها السري بينما يلتهمه الظلام. تساءلت عمّا إذا كانت هي الراكبة الأخيرة اليوم. ربما لن يتلأق القطار وسيواصل التحرك حتى نهاية الخط، على طول طريق الحرية.

في الرحلة نحو كارولينا الجنوبية نامت كورا في عربة القطار مُحتضنة جسد سيزر الدافئ. لكنها لم تنم في رحلتها التالية. رغم أن ما يطلقون عليها عربة القطار كانت أكثر ثباتاً من نظيرتها السّابقة، لكن الهواء المندفَع جعل الرّحلة تبدو كمحنة غامضة. كانت كورا تدير جسدها من وقت لآخر لتتمكن من التنفس. وكان المهندس أكثر طيشاً من سلفه، يتحرك بسرعة كبيرة، ويحثّ الآلة على السرعة. فتتأرجح العربة المسطّحة مع كل انعطافة.

أكثر مرّة اقتربت فيها من البحر كانت في متحف العجائب الطبيعية؛ علّمتها تلك الألواح الخشبية كثيراً بخصوص السفن والعواصف. كان المهندس يردّد أغاني لم تستطع تمييزها، قادمة من الشّمال، وقد ركبتها العاصفة. في نهاية المطاف استسلمت واستلقت على بطنها، ودست أصابعها في الشقوق.

"كيف هو الحال في الخلف؟" سألتها المهندس عندما توقّفا. كانا في منتصف النفق، لم تكن هناك محطة على امتداد البصر. أوأمأت كورا. "جيد"، قال الصبي. مسح العرق والسخام عن جبينه. «نحن في منتصف طريقنا تقريبا. أحتاج فقط لتمديد قدمي». ضرب بكفّ يده على السطح الجانبي لغرفة المرّجل. «يا لهذه الفتاة العجوز، إنها عنيدة». بعد أن انطلقا مرة أخرى تذكّرت كورا أنها لم تسأله عن وجهتهما.

كان هناك نمط دقيق من الحجارة الملونة يزيّن المحطة تحت مزرعة لومبلي، وغطت الألواح الخشبية جدران المحطة في بيت سام. بدا أن بُناة هذه المحطة قد قَطَعوها إربًا وفَجَروها من الأرض التي لا ترحم ولم يبذلوا أيّ محاولة للتزيّن كي يسلطوا الضوء على صعوبة مهمّتهم. شرائط بيضاء وبرتقالية، وعروق ملوّنة بالصدأ كانت تسيح خلال النتوءات والتجاويف والكتل. كانت كورا تقف في أحشاء جبل. أشعل المهندس واحدة من المشاعل التي على الحائط. من الواضح أن العمّال لم يقوموا بتنظيف المكان بعد انتهاءهم من العمل. كانت صناديق العتاد ومعدات التعدين تملأ المنصّة، فبدت وكأنها ورشة. اختار الركب مقاعدهم على صناديق مسحوق المتفجّرات الفارغة. تذوّقت كورا الماء من أحد البراميل، فوجدته نقيًا. كان فمها مثل مجرود قديم، بعد تذوّقه مطر فُتات الحصى الطائر في النفق. أخذت وقتًا طويلًا في الشرب مستخدمة مغرفة بينما يراقبها المهندس متمللاً. "أين هذا المكان؟" سألت.

"كارولينا الشماليّة"، أجب الصبي. «كانت هذه محطة شهيرة كما أخبروني لكنها لم تعد كذلك».

"من هو وكيل المحطة؟" سألت كورا.

"لم أقابله من قبل، لكنني متأكد أنه شخص جيد".
يتطلب الأمر شخصية جيدة وطاقة لتحمل الكأبة لأجل العمل في هذه
الحفرة. فبعد أيامها تحت كوخ سام، رفضت كورا قبول التحدي. «أنا
ذاهبة معك»، قالت. «ما هي المحطة التالية؟»

"هذا ما كنت أحاول إخبارك به سابقًا يا آنسة. أنا في مهمّة صيانة".
أخبرها أنه بسبب عمره الصغير كان منوطًا به العناية بالمحرك وليس
شحن الناس. بعد أن أغلقت المحطة في جورجيا - لم يكن يعرف
التفاصيل لكن التميمة كانت تنتشر - كانوا يختبرون كل الخطوط
لإعادة توجيهها. أما رحلة القطار التالية فقد أُلغيت، ولم يكن يعرف
موعد القطار التالي. كانت توجيهاته تنحصر في إنجاز تقارير عن
الأحوال الدائرة ثم العودة إلى نقطة الاتصال.

"ألا تستطيع أخذي إلى المحطة التالية؟"
رفعها إلى حافة المنصة ومدّ فانوسه إلى الأمام. ينتهي النفق بعد
خمسين قدمًا عند نقطة خشنة. «لقد مررنا بجانب فرع هناك يتّجه
إلى الجنوب»، قال. «لدي ما يكفي من الفحم لإيصالك إليه وإعادة
القطار إلى المستودع".

"لا يمكنني الاتجاه جنوبًا"، قالت كورا.
"سوف يأتي وكيل المحطة قريبًا. أنا متأكد من ذلك.». افتقدته عندما
ذهب، بكلّ حماقته. لدى كورا ضوء، وشيء آخر افتقدته في كارولينا
الجنوبية - صوت. تجمّعت المياه المظلمة بين القضبان، تغذّيها قطرات
ثابتة من سقف المحطة. كان أعلى القبو الحجري ذي اللون الأبيض مع
بقع حمراء مثل دماء تسيل عندما تجلدك السياط فتُغرق القميص.
أسعدها الضجيج على كل حال. وكذا فعلت مياه الشرب الوفيرة،

والمشاعل، والمسافة التي سافرتها بعيدًا عن صائدي العبيد. كانت كارولينا الشمالية بمثابة تحسّن تحت السطح.

استكشفت المكان. يوجد نفق محفور يتاخم المحطة. الدعامات التي تسند السقف الخشبي والحجارة الملقاة على الأرض الترابية جعلتها تتعثّر. اختارت ابتداءً الذهاب شمالًا، ومشّت على ماء يتسرّب من الجدران. كانت الأدوات الصّدئة تُغلق المسار. الأزاميل، والزلاجات، والمعاول. كان الهواء رطبًا. وعندما مرّرت يدها على طول الجدار اكتست بغبار أبيض بارد. عند نهاية الممرّ وجدت سلّمًا ينسحب في حجر يؤدّي إلى ممرّ دافئ. رفعت الشعلة. لم تكن هناك طريقة كي تعرف المدى الذي تمتد إليه الدرجات. توقفت عن التسلق بعد اكتشافها أن الطرف الآخر من الممرّ يؤدّي إلى نهاية مسدودة.

وعلى بُعد بضعة أمتار في المستوى الأعلى، رأت سبب تخليّ جماعات العمّال عن المعدات. فهناك امتدت تلة مائلة من الصخور والأوساخ، تمتدّ من الأرض وحتى السقف، وتسدّ النفق. قبالة الكهف انتهى النفق بعد مائة قدم، مؤكّدًا خوفها. لقد كانت محاصرة مرّة أخرى.

انهارت كورا على الصخور وظلت تبكي حتى غلبها النوم. أيقظها وكيل المحطة. «أوه!» قال الرجل. برز وجهه الأحمر المستدير في المسافة التي قطعها فوق الأنقاض. «أوه يا عزيزتي»، قال. «ماذا تفعلين هنا؟»
"أنا مسافرة يا سيدي".

"أأ تعرفين أن هذه المحطة مغلقة؟"

سعلت ونهضت محاولة تعديل فستانها الوسخ.

"أوه عزيزتي، أوه عزيزتي"، قال.

كان اسمه مارتن ويلز. عملاً معًا لتوسيع الفتحة على الجدار الحجريّ

وضغطت نفسها نحو الجهة الأخرى. ساعدها الرجل على التسلّق وصولاً إلى المستوى الأرضي كما لو كان يساعد سيدة على النزول من عربة فخمة. وبعد عدة منعطفات، قدّم فم النفق دعوة خافتة. دغدغ النسيم جلدها. ابتلعت الهواء كأنها مياه، بينما السماء الليلية هي أفضل وجبة على الإطلاق، وكانت النجوم غضة ويانعة بعد الوقت الذي قضته في الأسفل.

كان وكيل المحطة ممتلئ الجسم وفي منتصف عمره، ذو بشرة فاتحة وناعمة. وبالنسبة لعامل في السكك الحديدية السرية، والذي يفترض ألا يكون غريباً على المجازفة والمخاطر، كانت له شخصيّة عصبيّة. «لا يجب أن تكوني في هذا المكان»، قال. «هذا مُنعطف مؤسف للغاية».

كان مارتن يلهث خلال شرحه، ويُبعد شعره الرمادي المتعرق عن وجهه بينما يتكلم. المفتشون الليلتيون يقومون بدورياتهم، كما أوضح، ويقومون بإغراق وكلاء المحطة والركّاب في المياه الخطرة. كان منجم الميكا القديم بعيداً، ومن المؤكّد أنه استُنُفد منذ فترة طويلة من قِبَل الهنود ونسيه معظم الناس، لكن القوّات تأتي بشكل روتيني وتقوم بتفتيش الكهوف والألغام، وأيّ مكان آخر قد يلتجئ إليه الهاربون من العدالة.

كان الكهف الذي خدَع كورا مجرد تمويه للمحطة الواقعة أدناه. وبغض النظر عن نجاحها، فإن القوانين الجديدة في كارولينا الشمالية جعلت المحطة غير صالحة للعمل - كان مارتن يزور المنجم بين فترة وأخرى ويترك رسالة لخط السكك الحديدية السرية يبلغهم فيها عدم قدرته استقبال مزيد من الركّاب. وفيما يتعلق بإيواء كورا، أو أي هارب أخرى، فإن مارتن لم يكن مستعداً البتة. «خاصة بالنظر إلى الظروف

الراهنة»، همس، كما لو كانت الدوريات واقفة منتظرة عند الجزء العلوي من الأخدود.

أخبرها مارتن عن حاجته إلى جلب عربة، لكن كورا لم تكن مقتنعة بعودته. وأصرّ أنه لن يتأخر - فالفجر يلوح وبعدها سيستحيل عليه نقلها. كانت ممتنة جدًا لكونها موجودة في الخارج في العالم الحيّ فقررت تصديقه، واحتضنته تقريبًا عندما ظهر مرة أخرى وهو يقود عربة متهالكة يجرها حصانين نحيلين. أعادا ترتيب أكياس الحبوب والبذور لصنع فجوة ضئيلة. في المرة الأخيرة التي احتاجت فيها كورا للاختباء بهذه الطريقة، كانوا يحتاجون مساحة تكفي لشخصين. وضع مارتن قماشًا مشمّعًا على حمولته بينما يتحركان، ظل وكيل المحطة يتذمّر ويطلق تعليقات بذئنة حتى بلغا الطريق. لم يتحركا طويلاً عندما أوقف مارتن الخيول. أزال المشمع. قال وكيل المحطة «ستشرق الشمس قريبًا، لكنني أردتك أن تري هذا».

لم تفهم كورا ما عناه على الفور. كان الطريق الريفي هادئًا، مزدحمًا على كلا جانبيه بالغابات. رأت شكلاً، ثم آخر. وخرجت كورا من العربة. كانت الجثث معلقة على الأشجار مثل زخارف متعفنة. بعضها عاري، بينما السراويل هي الأوعية التي أفرغت فيها الأمعاء عندما قُطعت أعناقهم. ملأت الجروح الجسيمة والإصابات أجساد أولئك الأشبه بها. أضاء وكيل المحطة فانوسه باتجاههم. كان أحدهم قد أخصي، وهناك فتحة قبيحة تشبه الفم في مكان رجولته. الأخرى كانت امرأة، بطنها منتفخة. لم تكن كورا جيّدة في معرفة ما إذا كانت المرأة التي أمامها حاملاً أم لا. بدت عيونهم المنتفخة وكأنها تشجب نظرتها، لكن كيف كان لاهتمام فتاة واحدة أن يُقلق راحتهم، مقارنة بالطريقة التي

ظلّ العالم يعذبهم بها منذ اليوم الذي ولدوا فيه؟
"يطلقون الآن على هذا الطريق دربَ الحرّية"، قال مارتن بينما يُعيد
تغطية العربة. «يتم نقل الجثث طوال الطريق إلى المدينة». أيّ جحيم
هذا الذي أنزلها فيه ذلك القطار؟

في المرّة الثانية التي نزلت فيها كورا من العربة انسلّت من جانب منزل
مارتن الأصفر. كانت الشمس تلوح في الأفق. قام مارتن بإدخال العربة
في ملكيّته إلى أبعد نقطة من الخلف. كانت المنازل على جانبي منزله
مقفلة تمامًا - أي شخص يستيقظ بضجيج هذه الساعات يمكن أن
يراهها. تجاه مقدمة المنزل رأت كورا الشارع، وخلف ذلك حقل. دفعها
مارتن إلى الأمام وتسلّلت إلى الشرفة الخلفية ثم إلى الداخل. كانت
هناك امرأة بيضاء طويلة ترتدي ملابس النوم واقفة متكئة على طاولة
المطبخ. رشفت من كوب عصير الليمون ولم تنظر إلى كورا وهي تقول،
«سوف نُقتل بسببك».

تلك هي إثيل، زوجة مارتن منذ خمسة وثلاثين عامًا. لم يتحدث الزوجان
مع بعضهما بينما يغسل كفيّيه المرتجفتين في الحوض. عرفت كورا أنهما
تشاجرا حول هذا الأمر بينما كنت أنتظر في المنجم، وسيستأنفان هذه
المشاجرة بمجرد التعامل مع هذه المسألة التي أمامهم.

قادت إثيل كورا نحو الطابق العلوي بينما أعاد مارتن العربة إلى متجره.
ألقت كورا نظرة مقتضبة على صالة الاستقبال التي كانت مفروشة
بتواضع؛ بعد تحذيرات مارتن، جعلها ضوء الصباح القادم خلال
النافذة تُسرّع في سيرها. كان شعر إثيل الطويل الرماديّ يمتدّ حتى
منتصف ظهرها. توترت كورا بسبب طريقة المرأة في السّير - بدت وكأنّها
تطفو، ما أثار غضبها. في الجزء العلوي من الدرج توقفت إثيل وأشارت

إلى الحمام. «رائحتك ليست جيدة»، قالت. «استحي بسرعة». عندما خرجت كورا إلى الرّدهة مجدداً قادت المرأة عبر الدرج نحو العلية. أوشك رأس كورا أن يبلغ السقف في تلك الغرفة الصّغيرة الساخنة. بين الجدران المنحدرة من السقف البارز كانت العلية مكتظة بسنوات من المهملات: لُوحي غسيل مكسورين، وأكوام من الألفحة التي أكلها العثّ، وكراسٍ بمقاعد مكسورة، وحصان هزاز مغطى بالغبار وموضوع في الزاوية تحت كومة من الورق المصفرّ.

"يجب علينا تغطية هذا الآن"، قالت إثيل مشيرة إلى النافذة. أزاحت صندوقاً عن الحائط، وقفت فوقه، ودفعت فتحة السقف. «هيا، هيا»، قالت. ظلّ وجهها متكدّراً. ولم تنظر حتى الآن في وجه الهاربة. سحبت كورا نفسها فوق السقف المستعار نحو الزاوية الضيقة. كان علوّها ثلاثة أقدام من الأرض ويمتدّ طولها مسافة خمسة عشر قدماً. نقلت كورا رزمة من الجرائد والكتب لتوفير مساحة أكبر. سمعت كورا إثيل تنزل الدرج، وعندما عادت مضيفتها أعطت كورا طعاماً، وإبريق ماء، ووعاء للتبولّ.

نظرت إثيل نحو كورا للمرّة الأولى، «ستأتي الخادمة عما قريب»، قالت. «لو سمعتك ستقوم بتسليمنا فيقتلوننا جميعاً. ابنتنا وعائلتها سيصلون هذا المساء. لا يمكنهم أن يعرفوا عن وجودك. أتفهمين؟" "كم من الوقت سيمكثون؟"

"لا تُصدري صوتاً أيّتها الغبية، ولا صوتاً واحداً، لو سمعت أيّ شخص فسنزيع". وأقفلت باب الحجرة.

مصدر الضوء والهواء الوحيد كان فتحة في الجدار تواجه الشّارع. زحفت كورا نحوها، وانحدرت تحت العوارض الخشبية. كانت الفتحة

قد حُفرت من الداخل، لابدّ أنها عملٌ أحدٍ سبقها إلى هنا وكان مستاءً من حالة المسكن. تساءلت: أين ذاك الشّخص الآن؟ في اليوم الأوّل، تعرّفت كورا على حياة الحديقة، وهي رقعة خضراء كانت تراها عبر الشارع من المنزل. ضغطت عينيها على الفتحة، وأدارتهما لالتقاط المشهد بأكمله. منزلان مكوّنان من ثلاثة طوابق يحدّان المتنزّه من جميع الجوانب، متماثلان في البناء، ويتميزان بلون الطلاء ونوع الأثاث على الشرفات الطويلة. ثمّة ممرّات أنيقة من الطوب تُقاطع العشب، تظهر ثم تختفي تبعاً خلف ظلال الأشجار الطويلة والفروع الفاخرة. نافورة تصدح قُرب المدخل الرئيسي، وتُحيط بها مقاعد حجرية منخفضة يحتلّها الناس بعد الشروق وتظلّ مكتظة حتى حلول الليل.

كان كبار السن من الرجال يحملون مناديلًا فيها فُتات لأجل الطيور، بينما الأطفال يلعبون بالطائرات الورقية والكُرّات، والأزواج الشباب يتجولون تحت موجة من الرومانسية. كلبٌ بني هو من يملك المكان، كان معروفًا للجميع، ينبج ويتراكمض. بعد الظهر يطارده الأطفال خلال العشب وحتى المنصات البيضاء عند حافة الحديقة. كان الكلب يختفي في ظلال المقاعد وشجرة البلوط العملاقة التي تغطّي جزءًا كبيرًا من الحديقة بهدوء مهيب. لاحظت كورا أن الكلب جيّد التغذية من الطيّبات والعظام التي يقدمها له المواطنون.

لم تكفّ معدتها عن الكركرة بسبب ذلك المشهد. وأسّمت الكلب: العُمدة.

ومع اقتراب الشمس من ذروتها، ازدحمت الحديقة بحركة المرور في منتصف النهار، فتحوّلت الفتحة إلى فرن بائس بسبب الحرارة. زحفت

إلى ناحية مختلفة من زاوية العليّة، وبحثت عن واحات وهميّة من الهواء، وكان ذلك هو دأبها الرئيسي بعد النظرة التي ألقته على الحديقة. علمت أن مضيقيها لن يزورانها خلال النهار الذي تقوم فيه فتاتهم فيونا بالعمل المنزلي. يذهب مارتن إلى متجره، وتذهب إثيل وتأتي في جولات اجتماعية، لكن فيونا دائمة الوجود في الطابق السفلي. كانت صغيرة تملك لهجة أيرلندية بارزة. سمعتها كورا وهي تقوم بواجباتها، تنهّد وتتمتم بالإهانات تجاه أصحاب عملها الغائبين. لم تدخل فيونا العليّة في اليوم الأول، لكن صوت خطواتها جعل كورا تتيّس مثل زميلها القديم في الإبحار، الريّان جون. تحذيرات إثيل في صباح اليوم الأول تركت الانطباع المطلوب.

في يوم وصولها كان هناك زوار إضافيين - جاين ابنة مارتن وإثيل وعائلتها. من سلوك ابنتهما المشرق واللطيف قررت كورا أنها ورثت صفات والدها، فقامت بملء وجهها الواسع مستخدمة وجه مارتن كقالب. كان الزوج والحفيدتان يصنعون ضجة متواصلة، ويرعدون عبر المنزل. في مرحلة ما قررت الفتيات الصعود إلى العليّة لكنهن أعدن النظر بعد مناقشة حول عادات الأشباح. كان هناك بالفعل شبح في المنزل، وقد اكتفى من الأغلال.

في المساء ظلّت الحديقة مزدحمة. فكرت كورا أن الطريق الرئيسي لابدّ قريب، وأنه يجتاز المدينة. بعض النساء الأكبر سنًا في فساتين من القماش القطني الأزرق وضعن أقمشة من اللونين الأزرق والأبيض على المنصات البيضاء، وأضفن أكاليل من أوراق البرتقال زخرفة للمكان. أسرعّت الأسر إلى بقع أمامية، وفردوا السجاجيد وأخرجوا العشاء من السّلال. أولئك الذين عاشوا بجوار الحديقة تجمّعوا على الشرفات

الخاصة بهم مع الأباريق والنظارات.

كانت كورا مشغولة البال بملجأها غير المريح، ومعرض المصائب الذي حلّ عليها منذ أن عثر عليهما صائدو العبيد، لذا لم تلاحظ كورا على الفور سمة هامة من سمات الحديدية: كان الجميع بيضًا. لم تكن قد غادرت المزرعة قبل أن تهرب هي وسيزر، لذلك فقد أعطت كارولينا الجنوبية كورا أوّل لمحة عن اختلاط الأعراق في البلدات والمدن. في الشارع الرئيسي، في المتاجر، في المصانع والمكاتب، في كل قطاع، كان البيض والسود مختلطين كل يوم كمسألة طبيعية. كانت التجارة البشرية ستذبل دون ذلك. في الحرية أو العبودية، لا يمكن فصل الأفارقة عن الأمريكيين. في كارولينا الشماليّة لا وجود للعرق الزنجي إلا في نهايات حبال المشانق.

ساعد اثنان من الشبان قويّ البنية على تعليق اللافتة فوق منصة الفرقة: مهرجان الجمعة. أخذت الفرقة مكانها على خشبة المسرح، وجمّعت نغمات البروفات روادّ الحديدية. اختبأت كورا وضغطت وجهها على الحائط. استعرض الرجل الذي يعزف البانغو بعض مهاراته، أما عازفي البوق والكمان فلم يظهر المهاره نفسها. كانت أحيانها باهتة بالمقارنة مع تلك التي يعزفها الموسيقيون الملونون في مزرعة راندال وخارجها، لكن سكان المدينة كانوا يستمتعون بالإيقاعات الباهتة.

اختتمت الفرقة الحفل بأدائين حماسيين لأغنييتين للملونين ميّزتهما كورا، وقد كانا الأكثر شعبية في تلك الليلة. على الشرفة في الأسفل، كان أحفاد مارتن وإثيل يصرخون ويصفقون.

صعد رجل يرتدي بذلة كتانية المسرح لتقديم ترحيبٍ وجيز. في وقت لاحق أخبر مارتن كورا أنه كان القاضي تينيسون، وهو شخصيّة

محترمة ومعتدلة في المدينة. في هذه الليلة كان مترنحًا. لم تستطع تمييز كلمة القاضي بخصوص الأداء التالي، وهو عَرَض الرّاكون. كانت قد سمعت عن تلك المحاكاة لكنها لم تشهدها أبدًا؛ احتفالات الملونين في كارولاينا الجنوبية كانت تقدّم عروضًا مختلفة. قام اثنان من الرجال البيض بدهن وجههما بالفلين المحترق، وقدّما سلسلة من التمثيليات التي أضحكت كل من كان في الحديقة. كانا يرتديان ملابس مهلهلة وغير متناسقة وقبّعتان ممزّقتان، وقد غيرا صوتيهما ليقلدا لهجة الملونين؛ يبدو أن هذا هو مصدر الفكاهة. في إحدى التمثيليات قام الممثل الأصغر بإخراج حذائه المتداعي وحساب أصابع قدميه مرارًا وتكرارًا، كان يخطئ باستمرار، ويُطلق ضجة عالية.

الأداء النهائي، والذي كان عبارة عن مسرحية قصيرة، جاء بعد إشعار من القاضي بشأن قضايا الصرف المزمّن في البحيرة. ضمن ما فهمته كورا من حركات الممثل والحوار الذي دخل عبر تلك الفتحة الخائفة، أن العرض يدور حول زنجيٍّ مرة أخرى - مرة أخرى دهن رجل أبيض وجهه بالفلين المحترق بينما يظهر لونه الأصلي على رقبته ومعصميه - هرب نحو الشمال بعد توبيخ من سيّده. وقد عانى في رحلته، حيث قام بمونولوج منفرد عن الجوع والبرد والحيوانات البرية.

في الشمال قام مالك حانة بإيوائه. كان مالك الحانة مديرًا سيئًا، يُهين ويضرب العبد في كل حين، يسرق كرامته وأجره، وهي الصورة الراسخة لمواقف البيض الشماليين.

يصوّر المشهد الأخير العبد عند عتبة سيّده، بعد أن هرب مرة أخرى، هذه المرة من الوعود الكاذبة للولايات الحرّة. توّسل العبد للحصول على وظيفته السابقة، ورثى حماقته سائلًا الغفران. بكلمات لطيفة

وهادئة شرح السيّد أن ذاك مستحيل. فخلال غياب العبد كانت كارولينا الشمالية قد تغيرت. أطلق السيّد صَفِيرًا، ليقوم اثنان من رجال الدوريات بقيادة العبد الساجد بعيدًا عن المُلكيّة.

أعربت المدينة عن تقديرها للعبرة من الأداء، ودوى تصفيقهم في أرجاء الحديقة. صَفَّق الأطفال الصغار من فوق أكتاف آبائهم، ورأت كورا العُمدة ينبج في الهواء. لم يكن لديها أيّ فكرة عن حجم البلدة لكنها شعرت أن جميع المواطنين موجودون في الحديقة الآن. وكشف الغرض الحقيقي من الأمسية عن نفسه. احتلّ رجلٌ قويّ البنية يرتدي بنطالًا أبيض ومعطفًا أحمر اللون المسرح. ورغم حجمه كان يتحرك بقوة وسلطة، فتذكّرت كورا الدبّ في المتحف، والذي تم تصويره في لحظة دراماتيكية. أدار الرّجل إحدى نهايتي شاربه بتسلية بينما الحشد راح يهدأ. كان صوته حازمًا وواضحًا، وللمرة الأولى في ذلك المساء لم تفوّت كورا كلمة واحدة.

قدّم نفسه باسم جاميسون، على الرغم من أن كل روح في الحديقة كانت على بينة من هويّته. «في كل جمعة أستيقظ ممتلئًا بالنشاط»، قال. «وأنا أعرف أنه بعد ساعات قليلة سنجتمع هنا مرّة أخرى ونحتفل بحسن حظنا. كنتُ معتادًا على صعوبات النوم في تلك الأيام التي سبقت تأمين قوّاتنا للظلام». أوماً للقوات الهائلة، التي تتكوّن من خمسين رجلًا، الذين وقفوا على جانب منصة الفرقة. هتفت المدينة عندما كان الرجال يلوحون ويوافقون على اعتراف جاميسون.

أشعل جاميسون الحشد. «لقد أعطى الرب لأحد أفراد القوات هدية وهي ابن حديث الولادة، بينما يحتفل اثنان بأعياد ميلادهما، ولدينا أيضًا جندي جديد معنا الليلة»، قال جاميسون. «شاب من عائلة

جيدة انضم إلى صفوف الدراجين الليليّين هذا الأسبوع. تعال يا ريتشارد واسمح لهم بإلقاء نظرة عليك".

تقدّم الصبي النحيل ذو الشعر الأحمر. ومثل زملائه، كان يرتدي زيًا مكونًا من سروال أسود وقميص أبيض من القماش السميك، وكانت رقبته تسيح داخل الياقة. تمتم الصبي ببعض كلمات. فهمت كورا من كلام جاميسون أن المجنّد كان يقوم بجولات في المحافظة، ويتعلّم بروتوكولات فرقته.

"كانت بدايتك مبشرة، أليس كذلك يا بني؟" هز الفتى رأسه. صغر سنه ونحافته ذكّرتا كورا بمهندس قطار رحلتها الأخيرة، الذي قاده الظروف إلى عمل الرجال. كانت بشرة جلده المنمشة أفتح لكنهما يتشاطران الهشاشة نفسها. وربما ولدا في اليوم نفسه، لكن القوانين والظروف ساقتهما لخدمة وكالات متباينة.

"لا يتمكن كل صياد من صيد فريسة في أسبوعه الأول"، قال جاميسون. «لنرى ما جلبه لنا الشاب ريتشارد». جذب اثنان من الدراجين فتاة ملونة على خشبة المسرح. كانت تمتلك جسد خادمة منزل. فستانها الرمادي ملطخ بالدم والقذارة، ورأسها حليق بشكل كامل. "كان ريتشارد يبحث بين بضائع باخرة متجهة الى تينيسي عندما وجد هذه القذرة تختبئ هناك"، قال جاميسون. "اسمها لويزا. هربت من مزرعتها خلال ارتباك إعادة التنظيم واختبأت في الغابة أشهرًا عديدة. واعتقدت أنّها نجت من منطوق نظامنا".

حدقت لويزا لاستطلاع الحشد، رفعت رأسها فترة وجيزة، وكانت صامته. كان من الصعب على شخص تفهّم عذابها مع كل ذاك الدّم في عينيها. رفع جاميسون قبضته في الهواء، كما لو أنه يتحدى شيئًا في السماء.

قررت كورا أن الليل كان خصمه، الليل والأشكال التي تملؤه. تحدث قائلاً إن الأوغاد الملونين، يترصدون لإيذاء زوجاتنا وبناتنا. وإن تراثهم الجنوبي كان أعزلاً وعرضة للخطر في الظلام المميت.

كان الدراجون يحافظون على سلامتهم. «وقدم كل واحد منا تضحيات من أجل كارولاينا الشمالية الجديدة وحقوقها»، قال جاميسون. «أبعدنا هذه الولاية المنفصلة عن التدخل الشمالي والتلوث العرقي. لقد وجّه الحشد الأسود ضربة لنا، لتصحيح الخطأ الذي ارتكب قبل سنوات في مهد هذه الأمة. اعتنق البعض، مثل إخواننا في الولايات الأخرى، فكرة سخيفة عن تطوير الزواج. رغم سهولة تعليم حتى الحمار الحساب». دنا ليفرك رأس لويزا. «عندما نجد الغريب الحقير، فمهمتنا هي التطهير».

تحرك الحشد بطريقة روتينية. كان جاميسون يقود الموكب، والدراجون يسحبون الفتاة نحو شجرة البلوط الكبيرة في وسط الحديقة. في ذلك اليوم رأت كورا منصة بعجلات في ركن من الحديقة؛ كان الأطفال يتسلقونها ويقفزون فوقها طوال اليوم. في وقت ما في المساء دفعت المنصة تحت شجرة البلوط. وطلب جاميسون بعض المتطوعين، فهرع الناس من جميع الأعمار إلى أماكنهم على جانبي المنصة. وضع الحبل حول عنق لويزا واقتادوها على السلالم. ألقى الدراجون الحبل حول فرع سميك بالدقة التي تولدها الممارسة.

أحد الأشخاص الذين تجمعوا لدفع السلم تم إبعاده - فقد أخذ دوره بالفعل في مهرجان سابق. هرع شاب في ثوب بولكا وردي لأخذ مكانه. أشاحت كورا وجهها قبل أن تُعَدَم الفتاة. وزحفت نحو الجانب الآخر من الحائط، في زاوية سجنها الحالي. في المساء خلال الأشهر التالية،

عندما لا يكون الجو شديد الاختناق، كانت تفضّل النوم على هذا الجانب. فقد كان الأبعد عن الحديقة، قلب المدينة التعيس الهائل. صمتت المدينة، وأعطاهم جاميسون الإشارة.

كان على مارتن أن يعود بذاكرته ليشرح لِمَ قام وزوجته بسجنها في زاوية العليّة. بدأ الأمر بسبب القطن، كما كل شيء آخر في الجنوب. كانت آلة القطن القاسية تحتاج إلى وقودها من الأجساد الأفريقية. كانت السفن تعبر المحيط لجلب الأجساد من أجل العمل في الأرض وتنتج أجسادًا جديدة.

كانت مكابس تلك الآلة تتحرك دون توابن. مزيدٌ من العبيد لإنتاج مزيد من القطن، وذاك سيقود إلى مزيد من الأموال التي ستشتري مزيدًا من الأراضي لإنتاج مزيد من القطن. وحتى مع انتهاء تجارة العبيد، أصبح من الصعب في أقل من جيل حصر الأعداد: كل هؤلاء الزنوج. يتفوق عدد البيض على عدد العبيد بنسبة شخصين إلى واحد في كارولينا الشمالية، لكن في لويزيانا وجورجيا كان السكّان يقتربون من التكافؤ. على الحدود في كارولينا الجنوبية، تجاوز عدد السود البيض بأكثر من مائة ألف. لم يكن من الصعب تخيل التسلسل عندما يهرب العبد من أغلاله سعيًا لتحقيق الحرية والقصاص.

في جورجيا وكنتاكي وأمريكا الجنوبية وجزر الكاريبي، انقلب الأفارقة على أسيادهم في معارك قصيرة لكنها مثيرة للقلق. فقبل أن يُخنق تمرّد ساوثامبتون، قتل تيرنر وفرقته خمسة وستين رجلًا وامرأة وطفلًا.

وأطلقت الميليشيات المدنيّة والدوريات ثلاث مرات للنيل من -المتأمّرين والمتعاطفين والأبرياء- وليكونوا عبرة. ومن أجل توضيح شروط السّلطة. لكن الأرقام بقيت لتوضح حقيقة لا يخيم عليها التحامل. "في هذه الأنحاء، الأكثر قُربًا للشرطة هي الدوريات"، قال مارتن. ردّت كورا: «في معظم الأماكن».

"بمقدور الدوريات مضايقتك متى استطاعت". حدث هذا بعد منتصف ليل يوم الاثنين. بعد عودة ابنة مارتن وأسرتها إلى منزلهم، وكذلك فيونا التي تعيش في أيرشتاون. جلس مارتن على صندوق في العلية وفي يده مروحة يدوية صغيرة. نهضت كورا ومددت أطرافها المتبيسة. لم تكن قد وقفت منذ أيام. رفضت إيثل الظهور. غطت النافذة بستارة زرقاء غامقة وأطفأت الشمعة ذات الوميض الخافت.

كان مارتن يتحدث بصوت خفيض جدًا على الرغم من تأخر الوقت. لأن ابن الجيران كان أحد أفراد الدورية.

بما أن الدوريات مسئولة عن إنفاذ أوامر أصحاب العبيد فقد مثلت القانون: رجال بيض، مُحدوديون، وقُساء، قادمون من الجزء الأكثر وضاعة وشراسة من البلاد، وكانوا أكثر جهلاً من أن يُصبحوا ضبّاطًا حقيقيين. (أومأت كورا بالموافقة). لا تحتاج الدوريات سببًا لإيقاف أي شخص بصرف النظر عن لونه. العبيد الذين يخرجون من المزرعة بحاجة إلى إذن مرور، إلا إذا أرادوا التعرض للأذى وزيارة سجن المحافظة. كان يتوجب على السود الأحرار حمل دليل على حريتهم وإلا فسيتعرضون لخطر نقلهم إلى برائن العبودية؛ في بعض الأحيان يتم أخذهم إلى المزاد دون اعتبار حريتهم. وقد يتعرض المارقون السود لإطلاق النار إذا لم يستسلموا. كانت الدوريات تقتحم قرى العبيد

ولا ترى غضاضة في نهب منازل الأحرار وسرقة الملاءات التي اكتسبها بشق الأنفس أو القيام بأمر فاجرة.

في الحرب كان إخماد تمرد العبيد هو النداء الأكثر جلالاً لدى الدوريات، فتخطت ما كانت عليه في الأصل وصارت جيشاً حقيقياً. تصورت كورا التمرد كمعركة كبيرة ودامية، تطفو تحت سماء الليل المضاءة بالحرائق الواسعة. لكن بحسب مارتن، كانت الانتفاضات الفعلية صغيرة وفوضوية. سار العبيد في الدروب التي تتوسط المدن حاملين أسلحتهم المجردة: الفؤوس والجلود والسكاكين والطوب. وقام رجال إنفاذ القانون البيض بتنظيم كمائن تفصيلية، وأخمدوا ثورة المتمردين بإطلاق النار عليهم وجرحهم على ظهر الخيل، مدعومين بقوة جيش الولايات المتحدة. انضم المتطوعون المدنيون إلى الدوريات لقمع الاضطراب مع النداءات الأولى، وقاموا بغزو الأحياء، واحرقوا منازل المتظاهرين. امتلأت السجون بالمشتبه بهم والعايرين. كانوا يشنقون المذنبين، ولأجل الوقاية شنقوا نسبة كبيرة من الأبرياء. وبمجرد الانتقام من الموتى - الأمر المهم هو أن إهانة النظام الأبيض تمّ الرد عليها باهتمام - عاد المدنيون إلى مزارعهم ومصانعهم ومخازنهم، واستأنفت الدوريات جولاتها.

تم القضاء على الثورات، لكن ظلت كثافة السكان الملونين هي المشكلة. "نعرف الأمر لكن لا نتحدث عنه"، قالت كورا لمارتن. اهتز الصندوق قليلاً بينما يعدل مارتن جلسته. «وحتى لو تحدثنا فيه فليس من أجل أن يسمعه الآخرون»، قالت كورا. «نحن كثير».

في أمسية باردة من الخريف الماضي اجتمع الرجال ذوي النفوذ في كارولينا الشمالية لحل مسألة الملونين. السياسيون أصحاب الدراية

فيما يخص التعقيدات المتغيرة للنقاش المتعلق بالعبودية؛ المزارعون الأثرياء الذين قادوا وحش القطن وشعروا بأن الأمور تفلت من زمامهم. المحامون الضروريون لإطلاق مخططاتهم وجعلها دائمة. كان جاميسون حاضرًا، قال مارتن لكورا، بصفته عضوًا في مجلس الشيوخ ومزارعًا محليًا. كانت ليلة طويلة.

تجمعوا في غرفة الطعام في حامية أوني. عاش أوني فوق جاستس هيل (تلة العدالة)، وقد سميت بهذا الاسم لأنها سمحت له برؤية كل شيء يقع أسفله لأميال وأميال وتقسيم العالم إلى حصص. بعد تلك الليلة سيُعرف اجتماعهم باتفاقية العدالة. كان والد مضيفهم عضوًا في طلائع مزارعي القطن ومبشرًا مكرًا بالغلغل الأعجوبية. كبر أوني محاطًا بأرباح القطن وشياطينها الذين لا غنى عنهم: الزنوج. كلما فكر في الأمر - بينما يجلس هناك في غرفة طعامه يحرق في الوجوه الطويلة الشاحبة للرجال الذين شربوا خموره وأطالوا زيارتهم - اتضح له أن ما أراده ببساطة هو كثير من القطن وقليل من العبيد. لماذا يقضون كثيرًا من الوقت في القلق بشأن انتفاضات العبيد ونفوذ الشماليين في الكونغرس بينما تدور القضية الحقيقية عمّن الذي سيقوم بقطف كل ذلك القطن الملعون؟

قال مارتن إن الصحف قامت بنشر الأرقام ليراها الجميع. كان هناك ما يقرب الثلاثمائة ألف عبد في كارولاينا الشمالية. ففي كل عام يأتي عدد الأوروبيين نفسه، أيرلنديين وألمان في الغالب، يفرون من المجاعة والمشاكل السياسية - ويتدفقون إلى موانئ بوسطن، ونيويورك، وفيلادلفيا. طرح السؤال في مبنى المجلس التشريعي، على صفحات التحرير: لماذا لا نتنازل عن هذا العمل إلى اليانكيز؟ لما لا يتغير مسار هذا

الرافد البشري نحو الجنوب؟ عززت الإعلانات المطبوعة فوائد العمل المؤقت، وشرح الوكلاء الأمر في الحانات واجتماعات المدن والملاجئ، وفي الوقت المناسب ستأتي السفن المستأجرة التي تحمل بضائعها البشرية المستعدة، وستجلب الحلمين إلى شواطئ البلد الجديد. ويأخذونهم للعمل في الحقول.

"لم أر شخصًا أبيض يقطف القطن من قبل"، قالت كورا. «قبل عودتي إلى كارولاينا الشمالية، لم أر حشدًا يمزق رجلًا من أطرافه»، قال مارتن. «أترين، لذلك ليس بإمكانك توقع ما قد يفعله الناس أو ما يرغبون في القيام به».

صحيح أنك لن تتمكن من معاملة الإيرلندي مثلما تفعل مع الأفريقي، سواء كان عبدًا أبيض أم لا. فهناك تكلفة شراء العبيد والحفاظ عليهم من جهة ودفء أجور ضئيلة تكفي للعيش للعماله البيضاء من جهة أخرى. تعذيب العبيد مقابل الاستقرار على المدى الطويل. كان الأوروبيون مزارعين؛ وسيكونون مزارعين مرة أخرى. وبمجرد أن ينهي المهاجرون عقودهم (بعد أن يسددوا تكاليف السفر والأدوات والسكن) ويأخذون مكانهم في المجتمع الأمريكي، سيكونون حلفاء للنظام الجنوبي الذي رعاهم. وفي يوم الانتخابات عندما يأتي دورهم أمام صندوق الاقتراع، سيكون لهم حق التصويت الكامل، وليس الثلاثة أخماس. كان الحساب المالي حتمي، لكن عندما سيأتي وقت الصراع على مسألة العرق، ستظهر كارولاينا الشمالية في الموقع الأكثر تميزًا بين جميع ولايات العبيد.

بدا الأمر وكأنهم ألغوا العبودية. على العكس من ذلك، قال أوني غاريسون. لقد ألغينا الزواج.

"وأين ذهب كل النساء والأطفال والرجال؟" سألت كورا. صرخ شخص في الحديقة، وصمت الاثنان بُرهة.
"لقد رأيتهم"، قال مارتن.

قامت حكومة كارولاينا الشمالية - أي نصف الذين كانوا موجودين في غرفة طعام أوني غاريسون في ذلك اليوم - بشراء العبيد من المزارعين بأسعار معقولة، مثلما فعلت بريطانيا العظمى عندما ألغت العبودية منذ بضعة عقود. امتصت إمبراطوريات القطن الأخرى ذلك المخزون؛ احتاجت فلوريدا ولوزيانا في نموها المتزايد إلى الأيدي الملونة، خاصة خلال تنوع الفصول. جولة قصيرة في شارع بوربون ستظهر النتيجة لأي مراقب: ولاية طاردة للهجين، حيث العرق الأبيض ومن خلال اندماجه مع الدم الزنجي، أصبح ملطخًا، مشوشًا، ومرتبكًا. دعهم يلوثون دمائهم الأوروبية باللون الأسود المصري، وينتجون نهرًا من السلالات المختلطة، الغربية، الأوغاد الصفرة ذوي الخصائص المختلفة - لقد صاغوا الشفرات التي ستستخدم لقطع رقابهم.

منعت القوانين الجديدة الرجال والنساء الملونين من وضع أقدامهم على تربة كارولاينا الشمالية. الزوج الأحرار الذين رفضوا ترك أراضهم تمت مطاردتهم أو دُبحوا. وفي تلك الحملات. كسب الهنود مالا سخيا من عملهم كمرتزقة بسبب خبراتهم. وبمجرد انتهاء الجنود من عملهم، استولى رجال الدورية السابقين على عباءة الدراجين الليليين، وقاموا باقتياد العبيد الذين حاولوا تجاوز النظام الجديد، وطردهم الزنوج الأحرار دون وسائل تمكّنهم من الاستمرار شمالًا، أما الرجال والنساء الأقل حظًا فقد فقدوا حياتهم في الأرض بطرق متنوعة.

استيقظت كورا صباح يوم الأحد، دون إلقاء النظر من فتحة الحائط.

وعندما تمكنت أخيرًا من النظر عبره، لم يكن جسد لويزا هناك. وتحت البقعة التي سُئقت فيها رأَت لأطفال يختبئون. "الطريق"، قالت كورا. "هذا الذي تطلقون عليه طريق الحرية. إلى أي مدى يستمر؟"

قال مارتن إن الأمر قد يستمر طالما هناك جثث لتغذيته. الأجساد المتعفنة وتلك التي يستهلكها آكلوا الجيفة تم استبدالها باستمرار. كل مدينة كبيرة كانت تعقد مهرجان الجمعة، ودائمًا انتهت بالخاتمة القاتمة نفسها. بعض المدن احتفظت بأسرى إضافيين في السجن للأسبوع التالي في حال عاد الدراجون خالي الوفاض.

أما البيض الذين عوقبوا بموجب التشريع الجديد فكان يتم إعدامهم دون عرضهم على الحشود. لكن مارتن ذكر حالة مزارع أبيض كان قد أوى مجموعة من اللاجئيين الملونين. وعند البحث في أرجاء منزله المحترق كان من المستحيل تمييز جسده عن أجساد أولئك الذين كان يأويهم، فقد قضت النار على تباين ألوان بشرتهم وحولته إلى شيء متساو. تم تعليق الجثث الخمس على الطريق ولم يصدر أي شخص ضجة بشأن خرق أي بروتوكول.

ومع موضوع الاضطهاد الأبيض وصلوا إلى سبب سجنها في العلية. «تفهمين مازقنا». دائمًا ما يهرب دعاة مناهضة العبودية من هذا المكان، قال مارتن.

قد تكون فيرجينيا أو ديلاوير أكثر تسامحًا معهم، أما ولايات القطن فهي مختلفة. مجرد امتلاكك فكر مناهض للعبودية كان كافيًا لإلقاءك في السجن، وبعد أن يطلق سراحك لا يسمح لك بالبقاء في المدينة فترة طويلة. في التعديلات التي أدخلت على دستور الولاية، تركت عقوبة

حيازة كتابات تحريضية، أو مساعدة شخص ملون وتحريضه لتقدير السلطات المحلية. وفي الممارسة العملية كان الحكم هو الموت. حيث سُحب المتهمين من منازلهم. أما أصدقاء العبيد الذين رفضوا الإذعان - بسبب العاطفة أو بسبب أفكارهم الغريبة حول حقوق الملكية - فقد أعدموا، وكذلك المواطنون اللطفاء الذين خبأوا الزوج داخل علياتهم وأقبيتهم وحاويات الفحم خاصتهم.

بعد خمود اعتقالات البيض، زادت بعض المدن من مكافآت تسليم المتعاونين. كان الناس يُبلغون عن المنافسين التجاريين، والأعداء القدماء، والجيران، ويذكرون محادثات قديمة أظهر فيها الخونة التعاطف المحظور. وشى الأطفال بذويهم، وقامت المعلّمة بتدريسهم السّمات المميزة للفتنة. ذكر مارتن قصة رجل في المدينة كان يحاول التخلص من زوجته سنواتٍ دون جدوى. لم تكن تفاصيل جريمتها متماسكة التدقيق، لكنّها دفعت الثمن النهائي. فقد تزوّج الرجل بعد ثلاثة أشهر.

"هل هو سعيد؟" سألت كورا.

"ماذا؟"

لوّحت كورا بيدها. أشعرتها وحشية القصة التي رواها مارتن بفكاهة غريبة.

قبل ذلك، فتشت دوريات الرقيق مباني الملونين بحسب مزاجهم، سواء كانوا أحرارًا أو مستعبدين. وأتاحت لهم سلطاتهم الموسعة طرق باب أي شخص لمتابعة اتهامهم وإجراء الفحوصات العشوائية باسم السلامة العامة.

كان الضباط يظهرون في جميع الأوقات، ويزورون أفقر الصيادين

وأغنى قضاة الصلح على حد سواء. كما أوقفت العربات عند نقاط التفتيش. كان منجم الميكا على بعد بضعة أميال، لكن حتى لو تمكن مارتن من الهرب مع كورا، فإنهما لن يصلا إلى المقاطعة التالية دون تفتيش.

اعتقدت كورا أن البيض سيكونون مشمئذين من التخلي عن حرياتهم، حتى باسم الأمن. بعيدًا عن الاستياء، قال لها مارتن، كان مقدار اجتهاد الدوريات نقطة فخر من مقاطعة إلى مقاطعة. تفاخر الوطنيون بعدد المرات التي تم تفتيشهم فيها ولم يتم إمساك شيء عليهم. وقاد طرق الدراجين الليليين على منازل النساء الشابات الجميلات إلى كثير من الخطوبات السعيدة.

قاموا بتفتيش منزل مارتن وإثيل مرتين قبل ظهور كورا. كان الدراجون لطفاء تمامًا، وأثنوا على كعكة الزنجبيل التي صنعتها إثيل. لم يبدوا مرتابين من العلية، لكن هذا لا يضمن أن الأمور سوف تسير على المنوال نفسه في المرّة القادمة. تسببت الزيارة الثانية في جعل مارتن يستقيل من مهامه في خط السكك الحديدية. لم تكن هناك خطط للمرحلة القادمة من رحلة كورا، ولم ترد أي كلمة من الوكلاء. سيتعين عليهم انتظار الإشارة.

مرة أخرى، اعتذر مارتن عن سلوك زوجته. «تدركين أنها خائفة حتى الموت. نحن تحت رحمة المصير». «أتشعرون بما يشعر به العبيد؟» سألت كورا.

قال مارتن أن إيثل لم تختَر هذه الحياة. «أنت ولدت فيها مثل العبيد الآخرين».

أنهى ذلك محادثتهما لتلك الليلة. وعادت كورا إلى زاويتها من العلية

بطعام طازج ووعاء تبول جديد.

تشكل روتينها بسرعة. لم يكن ليكون الأمر على خلاف ذلك نظرًا للقيود. فبعد أن ضربت رأسها على السقف عشرات المرات، تذكر جسدها القيود المفروضة على حركتها. نامت كورا، واختبأت بين العوارض الخشبية كما لو كانت في مكان ضيق من السفينة. راقبت الحديقة. عملت على تحسين قراءتها، لتلحق ما فاتها من تعليم تسببت ظروفها بقطعه في كارولينا الجنوبية، حدقت من الفتحة في الضوء الخافت. وتساءلت لم يوجد نوعان فقط من الطقس: المشقة في الصباح، والضيق في الليل.

تقيم المدينة مهرجانها كل يوم جمعة وتعود كورا إلى زاويتها الأخرى من العلية.

كانت الحرارة مرتفعة في معظم الأيام. وفي الأيام الأسوأ كانت تلتصق بالفتحة مثل سمكة في دلو. في بعض الأحيان كانت تتعامل مع حصص المياه خاصتها بإهمال، تشرب كثيرًا في الصباح وتحقق بمرارة في النافورة بقية اليوم بينما الكلب اللعين يثب في الرذاذ في الحديقة. عندما تدوخها الحرارة، تستيقظ ورأسها مثبت في العارضة، وعنقها كعنق دجاجة لوتها أليس الطباخة لعمل العشاء. اللحم الذي وُضع على عظامها في كارولينا الجنوبية ذاب بعيدًا. استبدل مضيفها فستانها المتسخ بفستان ابنته الذي تركته وراءها. كانت جين نحيلة وصار الفستان يناسب كورا وربما يتسع عليها قليلًا.

قُرب منتصف الليل، بعد أن تنطفئ جميع الأنوار في المنازل التي تواجه الحديقة وتكون فيونا قد أكملت واجباتها منذ فترة طويلة وعادت إلى المنزل، يجلب مارتن الغذاء. تنزل كورا إلى العلية من زاويتها بجانب

الفتحة، لتمدد وتنفس هواءً مختلفًا. كانا يتحدثان قليلاً، ثم في نقطة معينة يقف مارتن بتعبير رسمي وتتسلق كورا مرة أخرى إلى الزاوية. كل بضعة أيام تسمح إثيل لمارتن أن يصحبها في زيارة قصيرة إلى الحمام. تنام كورا دائماً بعد زيارة مارتن، وأحياناً بعد فاصل من النحيب، وأحياناً بسرعة شديدة مثل شمعة يتم إطفائها. عادت إلى أحلامها العنيفة.

تعقبت كورا المنتظمين في عبورهم اليومي خلال الحديقة، وجمعت الملاحظات والمضاربات في مفكرة. احتفظ مارتن بصحف وكتيبات إلغاء العبودية في الزاوية. فقد شكلت خطراً عليهم؛ وأرادت إثيل التخلص منها، لكنهم كانوا ملكاً لوالده ويسبق تاريخ طباعتهم تاريخ إقامتهم في المنزل، لذلك رأى مارتن أن بإمكانهم إنكار ملكيتها. وبمجرد أن استطاعت كورا استخلاص ما استطاعت من الكتيبات الصفراء، بدأت في قراءة المفكرات القديمة، بإسقاطاتها وتأملاتها حول المد والجزر والنجوم. جلب لها مارتن الكتاب المقدس. خلال الفترات القصيرة التي قضتها في العلية بعيداً عن زاويتها، رأت نسخة من آخر إصدارات مجلة موهيكانز وكانت مبتلة بالماء. جلست بجانب الفتحة في الجدار للحصول على ضوء للقراءة، وفي المساء تكورت حول شمعة. افتتحت كورا زيارة مارتن بالسؤال نفسه: «هل من جديد؟»

توقفت بعد بضعة أشهر. كان الصمت بخصوص السكك الحديدية السرية كاملاً. نشرت الصحف تقاريرًا عن مداهمات، ووكلاء محطات تمّ جلهم إلى المحاكمة، لكن تلك كانت أساطير الولايات التي يكثر فيها العبيد. في السابق، طرق الغرياء باب مارتن مع رسائل متعلقة بالدروب، ومرة واحدة، بأخبار مؤكدة حول راكب أُلقي القبض عليه.

وأبداً لم يطرق الشخص نفسه بابه مرتين. قال مارتن أن أحداً لم يأت منذ فترة طويلة. ومن وجهة نظره لم يكن هناك ما يمكن القيام به في الوقت الحالي.

"لن تدعني أرحل"، قالت كورا. كان ردّه متدمراً: «الوضع جليّ». كان ذلك فخاً للجميع بحسب ما قال. "لن تنجحي في الفرار. سوف يمسكون بك. ثم ستخبرينهم من أنت. وفي مزرعة راندال عندما يرغبون في وضعك في الأغلال، سيضعونك فيها".

"سوف تدمريننا جميعاً"، قال مارتن. «نفسك، أنا، إثيل، وكل من ساعدك على طول الخط». لم تكن خائفة لكنها لم تهتم كثيراً، كانت تشعر بالتبؤ. أعطاهما مارتن نسخة من صحيفة اليوم وأعاد الباب إلى مكانه عندما غادر.

كانت تتجمد مع كل ضجة تصدرها فيونا. بإمكانها تخيل شكل الفتاة الإيرلندية. أحياناً كانت فيونا تجلب خردوات إلى العلية. فيضج الدرج بشدة مع أقل خطوة وكان ذلك هو إنذارها الفعّال. وحالما تغادر الخادمة تعود كورا إلى نشاطاتها ضيقة النطاق. سوقية الفتاة ذكّرت كورا بالمزرعة وتيار الشتائم الذي يطلقه العمال عندما لا تكون عيون السادة عليهم. ثورة الخدم الصغيرة توجد في كل مكان. افترضت كورا أن فيونا كانت تبصق في الحساء.

لم يتضمّن طريق الخادمة إلى المنزل المرور عبر الحديقة. لم تر كورا وجهها حتى بعد أن أصبحت خبيرة بتهدات الفتاة. وضعت كورا صورة لها، فوضوية وحازمة، ناجية من المجاعة والرحلة الصعبة. أخبرها مارتن أنها أتت إلى أمريكا بعد ميثاق كارولينا الشمالية صحبة والدتها وشقيقها. أصيبت الأم بذات الرئة وتوفيت بعد يوم من وصولهم. كان

الصبي صغيرًا جدًا على العمل وذي بنية ضعيفة؛ فتبادل الأيرلنديات المسنات رعايته معظم الأيام. كانت أيرشتاون مماثلة لشوارع الملونين في كارولاينا الجنوبية. عبور شارع واحد يغير الأسلوب الذي يتكلم به الناس، يحدد حجم وحالة المنازل، ويحدد حجم وطابع الأحلام.

في غضون بضعة أشهر سيحين وقت الحصاد. خارج المدينة، في الحقول، سوف يفرق القطن إلى بذور دائرية ويعبأ إلى أكياس، ستلتقطه هذه المرة أيادي بيضاء. هل انزعج الأيرلنديون والألمان من القيام بعمل الزوج، أم أن الأجور تمحو الخزي؟ استولى المعدمون البيض على الطابور من المعدمين السود، عدا عند نهاية الأسبوع، حين لا يكون البيض معدمين. خلأًا لإخوانهم الأشد سوادًا، يمكنهم فسخ عقودهم ودفع الشروط الجزائية من رواتبهم وبدء فصل جديد.

في مزرعة راندال كان جوكي يتحدث عن كيف يقوم تجار العبيد بالتجول أعمق وأعمق في أفريقيا للعثور على المجموعة التالية من العبيد، واختطاف قبيلة تليها قبيلة لإطعام القطن، ما جعل المزارع مزيجًا من الألسنة والعشائر. فكّرت كورا أن موجة جديدة من المهاجرين ستحل محل الأيرلنديين، سيفرون من بلد مختلف لكنه ليس أقل خسارة، وستبدأ العملية من جديد. سيضج المحرك ويئن وسيبقى دائرًا. لقد غيروا بكل بساطة الوقود الذي يحرك المكابس.

كانت الجدران المنحدرة لسجنها قماشًا لاستفساراتها المرّوعة، وخاصة بين غروب الشمس وزيارة مارتن في وقت متأخر من الليل. عندما اقترب سيزر منها، كانت تتصور نتيجتين: حياة مرضية في مدينة شمالية، أو الموت. لن يكون تيرانس ميالًا لمجرد تأديبها بسبب الهروب؛ بل سيجعل حياتها جحيمًا مزخرفًا حتى يشعر بالملل، ثم سيرسلها إلى الموت في

عرض دموي ووحشي .

في تلك الأسابيع الأولى في العلية، كان خيالها الشمالي مجرد رسم. لمحات من أطفال في مطبخ مشرق - دائماً صبي وفتاة - وزوج في الغرفة المجاورة، غير مرئي لكنه مُجِبّ. وبينما امتدت الأيام، ظهرت غرف أخرى قبالة المطبخ. صالون مع أثاث بسيط ولطيف، الأشياء التي رأتها في متاجر البيض في كارولاينا الجنوبية. غرفة نوم. سرير مغطى بالملاءات البيضاء التي تشرق مع الشمس، وأطفالها يتقلبون معها، بينما جسد الزوج يقبع عند الحافة. في مشهد آخر، بعد مرور سنوات، تمشي كورا في شارع مزدحم في مدينتها وتمرّ بجانب والدتها التي كانت تتسوّل في مزارب، امرأة عجوز مكسورة بسبب أخطائها. نظرت مابل نحوها لكنها لم تتعرف على ابنتها. ركلت كورا كوبها الذي تستخدمه للتسول، وتناثرت النقود في الأنحاء، واستمرت في مهام جلب الدقيق لصنع كعكة عيد ميلاد ابنها.

في ذلك المكان، يأتي سيزر في بعض الأحيان لتناول العشاء ويضحكون بشدة حول مزرعة راندال وتجارب هروبهم، وحريرتهم في نهاية المطاف. أخبر سيزر الأطفال كيف حصل على الندبة الصغيرة أعلى حاجبه، ومرر إصبعه عبرها: كان قد ألقى عليه القبض من قِبَل صائد عبيد في كارولاينا الشمالية لكنه تمكن من الهرب.

نادرًا ما فكرت كورا في الصبي الذي قتلته. لم تكن بحاجة للدفاع عن أفعالها في الغابة في تلك الليلة؛ لم يكن لأحد الحق في لمسها. قدم تيرانس راندال نموذجًا للعقل الذي يمكنه تصور نظام كارولاينا الشمالية الجديد، لكن كان من الصعب لحجم العنف أن يترسخ في رأسها. الخوف هو ما قاد هؤلاء الناس، أكثر من أموال القطن. ظلّت اليد

السّوداء التي ستستعيد ما مُنح لها. خطر لها ذات ليلة أنها كانت ضمن الوحوش الانتقامية التي كانوا يخشونها: لقد قتلت صبيًا أبيض. وقد تقتل منهم أحدًا في المرّة المقبلة. وبسبب هذا الخوف، أقاموا سقالة جديدة من القمع على الأساس القاسي الذي وُضع قبل مئات السنين. كان القطن هو ما طلبه تاجر العبيد لحقوله، لكن البذور التي تم نثرها بين تلك الحقول هي العنف والموت، ونما هذا المحصول بسرعة. كان البيض على حق في خوفهم. يومًا ما سينهار النظام بالدم. تمرد الفرد. ابتسمت لحظة، قبل أن تفرض حقائق زنانتها الأخيرة نفسها مرة أخرى. خريشت الجدران مثل الفئران. سواء في الحقول أو تحت الأرض أو في غرفة العلية، أبقته أمريكا مسجونة.

كان ذلك قبل أسبوع من الانقلاب الصيفي. ضغط مارتن أحد الألفحة القديمة في كرسيّ دون مقعد، وغرق فيه عندما زارها. كعادتها طلبت كورا المساعدة في دروس القراءة. هذه المرة كانت تحتاج مساعدة لقراءة الكتاب المقدّس، والذي حققت فيه تقدّمًا غير منهجيّ: النفي، والجشع، والادّخار. اعترف مارتن أنه لا يعرف معنى النفي والجشع. ثمّ، كما لو أنه يتحضّر للموسم الجديد، استعرض سلسلة من الطوالع السيئة.

حدث أولها في الأسبوع السابق، عندما قرعت كورا وعاء التبول. كان الوعاء موضوعًا في زاوية العليّة منذ أربعة أشهر، وأصدرت ضوضاء من قبل. اصطدمت رأسها بالسّقف، أو ركبها بالألواح الخشبيّة. لم تتفاعل فيونا أبدًا، لكنّها هذه المرة كانت في المطبخ عندما قرعت كورا الوعاء بالجدار. عندما تصعد فيونا إلى الطابق العلوي لن تكون قادرة على التغاضي عن صوت التسرّب بين ألواح العليّة، أو ربما الرائحة التّتنة.

كانت صافرة الظهيرة قد دقت حينها. إثيل خارج المنزل. لحسن الحظ جاءت فتاة أخرى من أيرشتاون للزيارة بعد الغداء وظلّتا تثرثران في الصالون فترة طويلة. ثم كان على فيونا الإسراع خلال الأعمال المنزلية.

إمّا أنها لم تلاحظ الزائحة، أو تظاهرت بذلك للتخلّي عن مسؤولية تنظيف عشّ القوارض الذي كان هناك. عندما جاء مارتن في تلك الليلة وقاما بالتنظيف، قال لكورا أنّه من الأفضل ألاّ تعلم إثيل بالأمر. كانت أعصابها هشة، خاصّة مع ارتفاع الرطوبة.

كان إخبار إثيل أمرٌ يعود لمارتن. لم تشاهد كورا المرأة منذ ليلة وصولها. بقدر ما يمكن القول، أن مضيفتها لم تتكلم عنها - حتى عندما تكون فيونا خارج المبنى - عدا مرات نادرة ذكرت فيها تلك المخلوقة. وغالبًا ما يسبق إغلاق باب غرفة النوم بعنف زيارة مارتن للعلية. قرّرت كورا أن الشيء الوحيد الذي منع إثيل من تسليمها كان احتمال أن تُتهم هي بالتواطؤ.

"إثيل امرأة بسيطة"، قال مارتن وهو يغطس في الكرسي الذي أعدّ مقعده. "لم تكن تتوقع كل تلك المشاكل عندما طلبتُ منها المساعدة". عرفت كورا أن مارتن كان على وشك تذكّر تجنيده العرضي في السكّ الحديدية، ما يعني وقتًا أطول بعيدًا عن زاويتها في العلية. مدّت ذراعها وشجّعتة. «كيف استطعت فعلها يا مارتن؟»

"يا إلهي، كيف تمكنت من فعلها"، قال مارتن. لم يكن من الأشخاص المرجحين في المشاركة في موضوع إلغاء العبودية. تذكّر مارتن أن والده دونالد لم ينطق قط برأيه بخصوص المؤسسة الغريبة، رغم أن عائلتهم كانت تقريبًا الوحيدة ضمن دائرتهم التي لا تمتلك العبيد. في أثناء طفولة مارتن، كان عامل مخزن التغذية رجلًا نحيلًا ومحدودبًا يُدعى جيريكو، تم تحريره قبل عدة سنوات، وكان ما يثير استياء والدته أن جيريكو يأتي في كل عيد شكر حاملًا صفيحة من هريس اللفت. كان دونالد يهز رأسه رافضًا أو مصدومًا من مقالات الصحف حول آخر

حوادث العبيد، لكن لم يكن واضحًا ما إذا كان حُكمه يصطَف مع وحشيّة السيّد أو تعنّت العبد.

في الثامنة عشرة من عمره، غادر مارتن كارولينا الشمالية، وبعد فترة من التسكع حصل على منصب كاتب في مكتب الشحن في نورفولك. كان العمل الهادئ وهواء البحر يناسبه. طوّر ولعًا بالمحار فتحسّنت بِنْيَتِه الجسديّة بشكل عام. ظهر وجه إثيل مُشرقًا في أحد الأيام وسط حشدٍ ما. كان لآل دلانيس علاقات قديمة بالمنطقة، لذا جاء منظر شجرة العائلة غير متوازن: أبناء عمومة كثر في الشمال، وأقارب قلائل ومجهولون في الجنوب. نادرًا ما زار مارتن والده. عندما سقط دونالد أثناء تثبيت السقف، لم يكن مارتن قد عاد إلى المنزل منذ خمس سنوات.

لم يتواصل الرجلان بسهولة قط. قبل موتها، بذلت والدة مارتن كثيرًا من الجهد لترجمة المقاطع الناقصة والتعليقات الجانبية التي شكّلت محادثات الأب مع الابن. لكن عند فراش موت دونالد لم يكن هناك مترجم. وجعل مارتن يَعِدُه بإنهاء عمله. افترض مارتن أن الرجل العجوز يقصد تولّي مخزن العلف. وكان ذلك أوّل سوء فهم. والثاني هو أخذ الخريطة التي اكتشفها بين أوراق والده على افتراض أنها تحمل توجيهات إلى مخبأ للذهب. في حياته، اختبأ دونالد في نوع من الهدوء الذي، تبعًا للمراقب، يمكن أن يشير إلى الحماسة أو الغموض. فكّر مارتن أنه سيكون مثل والده، يتصرف مثل فقيرٍ بينما يخبئ ثروة.

بالتأكيد كان الكنز هو السكك الحديدية السرية. بالنسبة للبعض قد تكون الحرية أعزُّ عُملَة، لكنها لم تكن ما توقّعه مارتن. مذكرات دونالد - التي كانت موضوعة داخل برميل في منصة المحطة ومحاطة بأحجار

ملونة مثل المعبد - وصفت كيف كان والده دائم الاشمئزاز من معاملة بلاده للقبائل الإثيوبية. العبودية إهانة للرب، وتجّار العبيد هم وجّه آخر للشيطان. كان دونالد قد قدّم العون خلال حياته كلها، كلما كان ذلك ممكناً وبأيّ وسيلة في متناول اليد، منذ أن كان صبيّاً صغيراً، حتى أنه كان يضلّل بعض صائدي المكافآت عندما يسألونه عن أحد الهاربين. كانت رحلاته العديدة التي اضطلع بها خلال مرحلة طفولة مارتن عبارة عن بعثات لحركة مناهضة العبودية. اجتماعات منتصف الليل، ولقاءات ضفّة النهر، ودسائس مفترق الطرق. كان من المفارقات أنه نظراً لصعوبات الاتصال، فإن دونالد عملَ بمثابة تلغراف بشريّ، ينقل الرسائل على امتداد الساحل. لم يكن لدى س. ح. س (كما أشار إليها في ملاحظاته) محطة توقّف في كارولينا الشمالية حتى جعل دونالد هذا الأمر مهمّته. العمل في الجنوب البعيد كان انتحاراً. مع ذلك أضاف الزوايا الخفية إلى سقف العلية، وقد بنى السقف المستعار بطبقات كي يُبقي حمولته عاليًا.

بحلول ذلك الوقت، كان دونالد قد نقل عشرات النفوس إلى الولايات الحرة. ساعد مارتن عددًا أقل بكثير. فقد عرف مثلما رأت كورا أن شخصيته الفرعة لم تساعدما خلال الخطر الوشيك في الليلة الماضية، عندما - في سوء طالع آخر - طرق الضابط على الباب الأمامي. كان المساء قد حلّ وكانت الحديقة مليئة بالخائفين من العودة إلى ديارهم. وتساءلت كورا عمّ ينتظر هؤلاء ويبقيهم هناك، الناس أنفسهم أسبوعًا بعد أسبوع: الرّجل صاحب الخطوات السريعة الذي يجلس على حافة النافورة، ساحبًا أصابعه خلال شعره الناعم؛ والسيدة الفوضوية كبيرة الفخزين التي ترتدي دائمًا بونيه أسود

وتتمتم لنفسها. لم يكونا هنا لاستنشاق الهواء الليلي أو اختلاس قبلة. هبط هذان الإنسيان على دوائرهما المشتتة، ينظران في هذا الاتجاه وذلك، ولا ينظران أمامهما أبدًا. كما لو يتجنبان عيون جميع الأشباح، والقتلى الذين بنوا مدينتهم. شيد العمال الملونون كل المنازل على جانبي الحديقة، ووضعوا الحجارة في النافورة ورفضوا الممرات. ثم، وبقوة، جاءت المرحلة التي قام فيها الدراجون الليليون بعروضهم الغربية، فنصبت المنصة ذات العجلات التي سلّمت الرجال والنساء المحكوم عليهم للسماء. الشيء الوحيد الذي لم يبينه الملونون هي شجرة الإعدام. الرب صنعها، كي تخضع البلدة للغايات الشريرة.

فكرت كورا أنه ليس من الغريب أن يتجول البيض في الحديقة خلال المساء. كانوا هم ذاتهم أشباحًا، محشورين بين عالمين: حقيقة جرائمهم، والقيامة التي ستزديهم بسبب تلك الجرائم.

علمت كورا بجولات الدراجين من خلال مرورهم عبر الحديقة. تحوّل الحشد المسائي إلى مجموعة صقور تتوجّه نحو أحد المنازل على الجانب الآخر: فتاة صغيرة ذات جدائل سمحت لثلاثة منهم بدخول منزلها. تذكرت كورا أن والد الفتاة واجه مشكلة مع درج الشرفة. لم تره منذ أسابيع. أقفلت الفتاة رداءها على عنقها وأغلقت الباب خلفها. وقف اثنان من الدراجين الليليين طويلي القامة وذوي البنية الجيدة على الشرفة يدخنان الغليون بتراخ وكسل.

وبعد نصف ساعة فُتح الباب، واجتمع الفريق على الرصيف في دائرة حول الفانوس، ونظروا إلى الدفتر. عبروا الحديقة في نهاية المطاف ولم يعودوا في مرمى بصرها خلال فتحة الجدار. أغلقت كورا عينها عندما صدمها طرّقهم الصახب على الباب الأمامي. كانوا واقفين في

الأسفل تمامًا.

تحركت الدقائق التالية ببطء مربع. تكوّرت كورا في زاوية، وحشرت نفسها وراء اللوح الخشبي الأخير. أبانت الأصوات تفاصيل ما يحدث في الأسفل. استقبلت إثيل الدراجين الليليين بحرارة؛ كل من يعرفها سيكون متأكدًا من أنها تُخفي شيئًا. قام مارتن بجولة سريعة في العلية للتأكد من أن كل شيء في مكانه، ثم انضم إلى الجميع في الطابق السفلي. أجاب مارتن وإيثيل على أسئلتهم بسرعة بينما يتجولون مع المجموعة. يضم المنزل الاثنین فقط. تعيش ابنتهما في مكان آخر. (فتش الدراجون الليليون المطبخ والصالون). فيونا الخادمة هي الوحيدة التي تملك مفاتيح المنزل. (صعدوا الدرج). لم يزرهم غرباء، ولم يسمعا أي أصوات غريبة، ولم يلاحظا شيئًا غير مألوف. (بحثوا في غرفتي النوم). لم يكن هناك شيء مفقود. لم يكن هناك قبو – بالتأكيد كانوا يعرفون الآن أن منازل الحديقة ليس فيها أقبية. كان مارتن في العلية بعد ظهر اليوم ولم يلاحظ أي شيء.

"هل تمانع لو صعدنا للأعلى؟" كان الصوت أجشًا ومنخفضًا. ربطت كورا الصوت بالدراج القصير صاحب اللحية. كانت أصوات خطواتهم على درج العلية قوية. نظروا خلال الخردوات. أجفل حديث أحدهم كورا – كان رأسه على بُعد بضعة أقدام تحتها. فحبت أنفاسها. كان الرجال مثل قروش يحركون أنوفهم أسفل سفينة، يبحثون عن الطعام الذي اشتموه على مقربة. ألواح رقيقة فقط تفصل الصياد عن الفريسة.

"لا نأتي إلى هنا كثيرًا منذ بنت حيوانات الراكون أوكارها"، قال مارتن. "يمكنك أن تشتم فوضاها"، قال الدراج الآخر. رحل الدراجون.

وتخلف مارتن عن جولته المسائية في العلية لأنه كان متخوفًا من أنهم ينصبون لهم فخًا. ربتت كورا في ظلّمها المريحة على الجدار السميك: لقد أبقاها آمنة.

لقد نجوا من حادثتي وعاء التبول والدراجين. لكن سوء الطالع الأخير بالنسبة لمارتن حدث في ذلك الصباح: شنق حشدٌ رجلًا وزوجته لأنهما أخفيا صبيين ملوّنين في حظيرتهما. وكانت ابنتهما هي من وشت عليهما بدافع غيرتها من اهتمامهما. رغم صغر سنهما انضمّ الصبيان إلى المعرض المُقرّف لطريق الحرية. واحدة من جارات إثيل أخبرتها عن الأمر في المتجر فأغمي عليها، وسقطت على صفّ من المعلّبات.

ازدادت عمليات البحث في المنازل. «لقد نجحوا في القبض على كثير من الأشخاص والآن يتعين عليهم العمل بجدّ لتلبية المتطلبات الجديدة»، قال مارتن.

اقترحت كورا أنّه من الجيد أن الدراجين أتوا وفتشوا المنزل – لأن ذلك يعني أنهم لن يعودوا قريبًا. أي أنهم كسبوا مزيدًا من الوقت للتواصل مع السكك الحديدية أو العثور على فرصة أخرى.

يتململ مارتن دائمًا عندما تثير كورا فكرة المبادرة. كان يحمل واحدة من ألعاب طفولته في يديه، بطة خشبية. كان قد انقشع عنها الطلاء بسبب قلق الأشهر الأخيرة. «ربما يعني الأمر تضاعف صعوبة عبور الطُرق»، قال. «سيكون الأولاد جائعين للهدايا التذكارية»، أشرق وجهه. «الجشع- أعتقد أنّه يعني الجوع الشديد».

أحسّت كورا بشعور سيئ طوال اليوم. تمنّت لنفسها ليلة سعيدة وتسلمت زاويتها. حتى في حال حدوث هجمات مفاجئة، كانت في المكان ذاته الذي عاشت فيه عدّة أشهر: ثابتة. وبين المغادرة والوصول كانت

عابرة دائمة. حالما تستقرّ الرياح ستتحرك مرة أخرى، لكن في الوقت
الراهن كان هناك فقط البحر الفارغ واللا نهائي.

يا له من عالم، فكّرت كورا، الذي يجعل من سجن العيش ملاذك
الوحيد. هل كانت خارج العبودية أم في شبكتها: كيف تصف حالة
الهارب؟ كانت الحرّية شيئًا يتحوّل كلّما نظرت إليه، بالطريقة التي
تكون الغابات فيها كثيفة الأشجار عن قُرب، لكنّها من الخارج مروجّ
فارغة، ترى حدودها الحقيقية. أن تكون حرّاً ليس أمرًا ذي علاقة
بالأغلال أو حجم المساحة التي تمتلكها. في المزرعة لم تكن حرّة، لكنها
تنقلّت دون قيود خلال قطعة أرضها، تذوّقت الهواء وتعقّبت النجوم
الصيفية. كان المكان كبيرًا في صغر حجمه. هنا، كانت حرّة لكنها
انحشرت في مأربة صغيرة جدًا لدرجة أنها لا تستطيع الوقوف.

لم تترك كورا الطوابق العليا من المنزل أشهرًا متعاقبة، لكن إدراكها
تجوّل في نطاق واسع. كان لكارولينا الشمالية جاستس هيل (تلة
العدالة) الخاصة بها. نظرت إلى الأسفل نحو عالم الحديقة، رأت
البلدة تنجرف حيث أرادت، وتغتسل بأشعة الشمس في المقاعد
الحجرية، وتفتر في ظلال شجرة الإعدام. لكنهم كانوا سجناء مثلها،
مغلولين بالخوف. كان مارتن وإثيل مرتعنين من العيون الساهرة
وراء كل نافذة مظلمة. تجتمع البلدة معًا في ليالي الجمعة على أمل أن
عدهم سيحجب الأشياء في الظلام: القبيلة السوداء المتزايدة؛ العدو
الذي يثير الاتهامات؛ الطفل الذي يقوم بانتقام رائع بسبب التوبيخ
ويحطم المنزل. من الأفضل أن تختبئ في العلية أكثر بدلًا من مواجهة ما
يقف وراء وجوه الجيران والأصدقاء والعائلة.

كانت الحديقة سبب استدامتهم، الميناء الأخضر الذي يحافظون عليه

بينما تتمدد المدينة ذاتها إلى الخارج، حيًا بعد حيٍّ ومنزلًا تلو منزل. فكّرت كورا في قطعة أرضها في مزرعة راندال، الأرض التي اعتّرت بها. الآن رأت كم كانت غبيّة - مربع صغير من التراب أقنعها أنها تملك شيئًا. كانت تملك، مثل القطن الذي قطفته والأعشاب الضارة، تملك أيضًا الاختيار. أرضها كانت ظلًا لشيء عاش في أماكن أخرى، بعيدًا عن الأنظار. الطريقة التي كان يتلوها مايكل المسكين إعلان الاستقلال كانت صدئ لشيء موجود في أماكن أخرى. الآن بعد أن هربت ورأت جزءًا من البلاد، لم تكن كورا متأكدة من أن الوثيقة وصفت أي شيء حقيقي على الإطلاق. كانت أمريكا شبّحًا في الظلام، مثلها.

مرضت كورا تلك الليلة. أيقظتها تشنّجات في بطنها. تمايلت الزواية واهتّرت في هذيانها. فقدت السيطرة على أمعائها ومحتويات معدتها في تلك المساحة المحدودة. حاصرت الحرارة الغرفة الصّغيرة، وانطلق الهواء داخل جلدها. بطريقة أو بأخرى تمكّنت من النجاة حتى الصباح. كانت الحديدية ما تزال هناك. في الليل كانت تحلم أنها في البحر مغلولة أسفل السفينة. بجانبها أسير آخر، ثم آخر، مئات منهم يبكون برعب. السفينة الضّخمة تسبح وتضرب في سندان الماء. سمعت خُطى على الدّرج، صوت أحدهم يفتح الباب الخفيّ لزاويتها الصغيرة، وأغلقت عينها.

استيقظت كورا في غرفة بيضاء وملاءات ناعمة تحيط جسدها. أدخلت النافذة أكثر من خيط بخيل من أشعة الشمس. كان ضجيج الحديدية هو طريقها في معرفة التوقيت: كانوا في وقت متأخر من الظهر. جلست إثيل عند الزاوية في غرفة طفولة زوجها. وأدوات حياكتها في حجرها، نظرت إلى كورا. لمست جبين مريضتها. «أفضل»، قالت إثيل.

صهبت لها كوب ماء ثم أحضرت زبدية من مرق اللحم البقري .
تحسّن تعامل إثيل خلال فترة مرض كورا . أصدرت الهاربة كثيرًا من
الضوضاء في الليل وكانت مريضة جدًا عندما أنزلها من زاوية العلية
واضطروا إلى السماح لفيونا بالتغيب بضعة أيام . أخبروا الفتاة
الإيرلندية أن مارتن يعاني الجدري الفنزويلي بسبب كيس ملوث من
الأعلاف ، وأن الطبيب منع أي شخص من دخول المنزل لحين علاجه .
قرأ مارتن عن حَجْرٍ صحيّ مشابه في مجلة ، وكان هذا أول عذر جاء إلى
رأسه . دفعوا للفتاة أجرَ أسبوع . دسّت فيونا المال في محفظتها ولم
تكن بحاجة إلى مزيدٍ من الأسئلة .

حلّ دور مارتن كي يغيب بينما تتولى إثيل رعاية ضيفتهم ، وممارسة
كورا خلال يومين من الحمى والتشنجات . كان الزوجان قد حصلا
على بعض الأصدقاء خلال فترة وجودهم في الولاية ، ما سهّل غيابهما
عن حياة المدينة . وبينما تتلوّى كورا في هذيانها ، قرأت إثيل من الكتاب
المقدس لتسرع شفائها . دخل صوت المرأة أحلامها . أصبح الصوت
الصارم الذي سمعته كورا في ليلة خروجها من المنجم يحتوي الآن على
شيء من الرقة . حلمت أن المرأة قبّلت جبينها بأوموية . استمعت كورا
إلى قصصها وهي تنجرف . أحضرت السفينة من يستحقون ، وجليبتهم
إلى الجانب الآخر من الكارثة . امتدت البرية أربعين عامًا قبل أن يجد
الآخرون أرضهم الموعودة .

مدّدت الظهيرة الظلال مثل الحلوى وتناقص عدد رواد الحديقة مع
اقتراب موعد العشاء . جلست إثيل على كرسيّ هزاز ، ابتسمت ، ونظرت
في الكتاب المقدس ، مُحاولَةً العثور على القسم المناسب . الآن ، وبما أنها
استيقظت ويمكنها التحدث ، أخبرت كورا مضيفتها أنه ليس هناك

ضرورة للآيات.

أطبقت إثيل فمها. أغلقت الكتاب، ووضعت إصبعها على الصفحة التي توقفت عندها. "نحن جميعًا في حاجة إلى نعمة مُخلّصنا"، قالت إثيل. «لن يكون تصرّفي مسيحيًا جدًّا إذا أدخلتُ وثنيًّا إلى منزلي، ولم أشارك كلمته».

"لقد شاركتهما"، قالت كورا.

كان الكتاب المقدس الذي منحه مارتن إلى كورا يخص إثيل في صغرها، وعليه لطخات أصابعها. استجوبت إثيل كورا، مشكّكة في مدى مقدرة ضيفتهم على القراءة والفهم. بالتأكيد لم تكن كورا مؤمنة، فقد قطعت تعليمها في وقت مبكر جدًّا.

في العلية كانت تعاني مع الكلمات، وتضغط على نفسها، وتعيد قراءة المقاطع الصعبة. أزعجتها التناقضات، حتى تلك التي لم تفهمها بالكامل. "لم أفهم عندما قال: وَمَنْ سَرَقَ إِنْسَانًا وَبَاعَهُ، أَوْ وُجِدَ فِي يَدِهِ، يُقْتَلُ قَتْلًا"، قالت كورا. «ثم جاء وقال لاحقًا: وَالْعَبِيدَ أَنْ يَخَضَعُوا لِسَادَتِهِمْ، وَيُرْضَوْهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، غَيْرَ مُنَاقِضِينَ. فإمّا أن يكون احتفاظك بشخص آخر كملكيتية بمثابة خطيئة، أو تكون نعمة خاصة من الرب. لكن أن تكون مباركًا بالإضافة إلى ذلك؟ لا بدّ أن أحد تُجار العبيد تسلل إلى مكتب الطباعة ودسّ تلك الآية هناك!"

"إنه يعني ما قاله"، قالت إثيل. «... يعني أن العبري لا يستعبد العبري. لكن أبناء حام ليسوا من تلك القبيلة. كانوا ملعونين، لهم جلود سوداء وذبول. وعندما تحدّث الكتاب المقدس عن العبودية، لم يكن يقصد استعباد الزوج».

"أحملُ جلدًا أسود، لكن ليس لدي ذيل. بقدر ما أعرف - لم أفكر قط

في التحقّق من الأمر»، قالت كورا.

"العبودية لعنة، هذا صحيح. العبودية خطيئة عندما يقع البيض تحت نيرها، لكن ليس الأفارقة. جميع الرجال خلّقوا متساوين، إلا إذا قرّرنا أنّك لست رجلاً".

تحت شمس جورجيا، كان كونيلي يتلو الآيات بينما يجلد العمال بسبب المخالفات. «أيها الزوج، أطيعوا سادة الأرض في كل شيء ولا تفعلوا ذلك فقط عندما تكون أعينهم عليكم، واكسبوا ودهم من خلال صدق القلب وتبجيل الرب». وكانت كلّ جُلدة من السّوط وكل صرخة من الضحية ترقم مقطّعا. تذكرت كورا مقاطع أخرى عن العبودية في الكتاب المقدس وشاركتها مع مضيفتها. قالت إثيل إنها لم تستيقظ ذلك الصباح للدخول في جدال لاهوتيّ.

استمتعت كورا برفقة المرأة وعبست عندما غادرت. من جانبها، حمّلت كورا اللوم على الناس الذين دوّنوا الكتاب. الناس دائما يفهمون الأمور بطريقة خاطئة، أكأنّ عن قصد أو عن طريق الصدفة، بالقدر نفسه. في صباح اليوم التالي طلبت كورا إحصار الرّوزنامة من العليّة.

كانت الرّوزنامة القديمة تحوي تدوينات طقس العام الماضي، لكن كورا أحبّتها لاحتوائها على العالم بأسره. لم يكونوا بحاجة إلى أناس آخرين غيرهم ليكتبوا ما يريدون قوله. ولا تُمكن إساءة فهم تلك الجداول والحقائق أو تحويلها إلى ما ليست عليه. المقالات القصيرة والمحاكاة الساخرة بين الجداول القمرية وتقارير الأحوال الجوية - عن الأرامل العجائز الغامضات والملوّنين البسطاء - أربكتها بقدر الدروس الأخلاقية في الكتاب المقدس. كلاهما يصفان السلوك البشري خارج حدود معرفتها. ما الذي عرفته، أو ما الذي احتاجت لمعرفته، عن

عادات الزفاف الفاخرة، أو نقل قطيع من الحملان عبر الصحراء؟ على الأقل قد تستخدم في يوم من الأيام تعليمات الروزنامة. نشيد للطقس، نشيد لأشجار كاكاو الجزر الجنوبية. لم تكن قد سمعت عن النشيد أو الطقس من قبل، لكن بينما تقلب خلال الصفحات أخذت هذه المخلوقات مكانًا في عقلها. هل عليها أن تشتري حذاءً عالي الرقبة؟ هي تعرف الآن خدعة الشحم والشَّمع التي تُطيل من عُمر استخدامه. إذا أصيبت إحدى دجاجتها بالمرض يومًا ما، فإن فرك الحلتيت بالزبدة على أنفها سيجعلها تتحسن.

كان والد مارتن في حاجة إلى الروزنامة للتخطيط للقمر الكامل - الكتب كانت تصليّ لحماية الهاربين. تغيّر شكل القمر، كان هناك انقلاب شمسي، أول البرد، وأمطار الربيع. كل تلك الأمور استمرّت دون تدخل الرّجل. حاولت أن تتخيل كيف يبدو المدّ والجزر، يأتي ويذهب، ويشمّ الرّمال مثل كلب صغير، غير مهتمّ بالناس ومكائدهم. استردّت كورا عافيتها.

لم يكن بإمكانها فهم الكلمات كلّها بمفردها. سألت كورا إثيل، «هل يمكنك قراءة بعضها لي؟»

تدمرت إثيل. لكنها فتحت الروزنامة حيث توقّفت كورا واستخدمت النبرة نفسها التي تستخدمها لقراءة الكتاب المقدس. «زرع النبات دائمة الخضرة. ليس مهمًا سواء زرعت الأشجار دائمة الخضرة في أبريل أو مايو أو يونيو...»

عندما حل يوم الجمعة، تحسنت كورا كثيرًا. كان من المقرر أن تعود فيونا يوم الاثنين. واتفقا على أن تعود كورا إلى الزاوية في الصباح. كان مارتن وإيثيل سيدعوان جازًا أو اثنين لتناول الكعك لإبطال أي ثرثرة

أو تخمينات. تدرّب مارتن على التصرف بوهن. ربما حتى يستضيفون شخصًا للمهرجان الجمعة. كان موقع شرفتهم مثاليًا.

في ذلك المساء تركت إثيل كورا تنام في غرفة النوم الإضافية، شريطة أن تُبقي الغرفة مظلمة وتبقى بعيدة عن النافذة. لم تكن كورا تحمل أيّ نيّةٍ لمتابعة مشهد الحديقة الأسبوعي، تطلّعت فقط إلى تمديدٍ أخير في السرير قبل العودة إلى العليّة الضيّقة. في النهاية، اعتقد مارتن وإثيل أنّه من الأفضل عدم دعوة الناس إلى البيت، وبالتالي فإن الضيوف الوحيدين هم الدراجون غير المدعويين الذين خرجوا من الحشد في بداية عرض الراكون.

أراد الدراجون تفتيش المنزل. توقّف الأداء. طنّت البلدة حول الضجّة على جانب الحديقة. حاولت إثيل ملاحظة الدراجين، لكنهم اندفعوا خلفها هي ومارتن. حاولت كورا صعود الدرج لكنهما حذراها في كثير من الأحيان خلال الأشهر القليلة الماضية، أنها لن تكون قادرة على فعلها في اللحظة المناسبة. زحفت أسفل سرير مارتن القديم. وهناك وجدوها. أمسكوا بكاحلها بقبضات حديدية وسحبوها. قذفوها إلى أسفل الدرج. اصطدمت كتفها بسياج الدرج في الأسفل. فسمعت طنينًا في أذنها.

نظرت إلى شرفة مارتن وإثيل. كانت هذه هي مرحلة الإمساك بها. فرقةٌ أخرى هبّت لتسلية المدينة بينما هي ملقاة على الأرض بين أقدام أربعة من الدراجين في زيّهم الأبيض والأسود. أمسك أربعة آخرون بمارتن وإثيل. ووقف رجل آخر على الشرفة، يرتدي سترة منقوشة وسروالًا رماديًا. كان واحدًا من أطول الرجال الذين رأتهم كورا مطلقًا، بنيته قويّة ونظرتة مخيفة. استطلع المشهد وابتسم بتراخٍ.

كان سُكَّانُ البلدة يملؤون الرصيف والشارع، يتدافعون لرؤية هذا الترفيه الجديد. شقت فتاة ذات شعر أحمر طريقها بين الناس وهي تقول «جُدْرِيّ فنزوليّ! قلت لك أن لديهم شخص ما هناك!»
هذه هي فيونا، أخيرًا. عدلت كورا نفسها لإلقاء نظرة على الفتاة التي عرفتها جيدًا لكن لم يسبق أن رأتها. «سوف تحصلين على مكافأتك»، قال الدراج صاحب اللحية.

لقد كان من بين الدراجين الذين فحصوا المنزل في المرة السابقة. «لقد قلت أيها الكسول»، قالت فيونا. «لقد قلت أنك فحصت العلية في المرة الأخيرة، لكنك لم تفعل، أليس كذلك؟» حولت نظرها نحو سكان المدينة لتحصل على شهود لمطالبتها. «لقد رأيتكم جميعكم، إنها مكافأتي. كل ذلك الطعام المفقود؟» ركلت فيونا كورا بقدمها. «كانت إثيل تُعدّ لحمًا مشويًا كثيرًا ثم في اليوم التالي يختفي كله. مَنْ يأكل كل ذاك الطعام؟ كانا ينظران دائمًا إلى السقف. إلام كانا ينظران؟»

فكرت كورا أن الفتاة صغيرة جدًا. وجهها دائريّ ومنمّش، لكن هناك صلابة في عينيها. كان من الصعب عليها تصديق أن السباب واللعنات التي سمعتها خلال الأشهر الماضية قد خرجت من ذاك الفم الصغير، لكن العيون كانت دليلًا كافيًا. «لقد عاملناك بلطف»، قال مارتن. «كلاكما يتصرف بطريقة غريبة»، قالت فيونا. «وأنتما تستحقان كل ما ستنالانه».

شهدت تنفيذ العدالة عدة مرات، لكن إصدار الحكم أمامهم كان تجربة جديدة. جعلهم الأمر مضطربين. هل هم هيئة محلفين الآن، بالإضافة إلى مدراء معرض المشنوقين؟ نظر بعضهم إلى بعض للحصول على إشارات. كوّر عجوز كفه في شكل مخروط وعوى ببعض الهراء

عبرها. ضربت تفاحة مأكولة معدة كورا. وعلى المنصة وقف الممثلون منكمشين يحملون قبعاتهم الشعثاء في أيديهم.

ظهر جاميسون وهو يفرك جبهته بمنديل أحمر. لم تشاهده كورا منذ الليلة الأولى، لكنها سمعت كل خطابات ختام أيام الجمعة. كل نكتة ومطالبة هائلة، تلك النداءات بالعرق الأبيض والدولة، ومن ثم الأمر بقتل الضحية. كان انقطاع الإجراءات يُريكه. بعيدًا عن صوته المتبجح المعتاد، كان صوت جاميسون مصدومًا هذه المرة. «هذا شيء غريب»، قال. «ألسَتَ ابن دونالد؟»

أوما مارتن وارتعد جسده الناعم بتنهيدات هادئة. «أعرف أن والدك كان ليكون خجلًا»، قال جاميسون. «لم يكن لدي أي فكرة عما كان يفعله»، قالت إثيل. واتكأت على أحد الدراجين الذين كانوا يمسكون بها. «لقد فعل ذلك بنفسه! لم أكن أعرف أي شيء!»

نظر مارتن بعيدًا، بعيدًا عن الناس الواقفين على الشرفة، وعن المدينة. صوّب وجهه شمالًا باتجاه فيرجينيا، حيث كان متحرّرًا من مسقط رأسه فترة من الزمن.

أوما جاميسون فسحب الدراجون مارتن وإثيل إلى الحديقة. نظر المزارع إلى كورا. وقال جاميسون «هدية لطيفة». كانت الضحية المجدولة لذلك اليوم موضوعة في مكان ما. «هل ينبغي أن ننفذ الحكم عليهما معًا؟»

قال الرجل طويل القامة: «إنها لي. لقد أوضحت ذلك». تغير تعبير وجه جاميسون. لم يكن معتادًا على أن يعامله أحد بهذه الطريقة. سأل عن اسم الغريب.

"ريدجواي"، قال الرجل. "صائد العبيد. قد تجدني هنا، أو تجدني

هناك. لقد كنت أطارد هذه الفتاة فترة طويلة. قاضيك يعرف كل شيء عني.»

"لا يمكنك أن تأتي إلى هنا وتستعرض عضلاتك". كان جاميسون يعلم أن جمهوره المعتاد يراقبه بتوقعات غير محددة. وبعد أن قال تلك الكلمات، تقدّم اثنان من الدراجين الشباب إلى الأمام لمحاصرة ريدجواي.

لم يُبدِ ريدجواي أي تدمر من هذا العرض. «لديكم عاداتكم المحلية الجارية - لقد فهمت ذلك. وتبحثون عن تسلياتكم الخاصة». قال كلمة تسلية مثل واعظ معتدل. «لكن هذه الفتاة لا تنتمي إليكم. قانون العبيد الهاربين يقول إن لديّ الحق في إعادة هذه الممتلكات لأصحابها. هذا ما أهدف إلى القيام به».

نشجت كورا ولمست رأسها. كانت تشعر بالدوار، مثل ذاك الذي أحسّت به عندما ضربها تيرانس. كان هذا الرجل سيعيدها إليه. كحّ الدراج الليلي الذي ألقى كورا أسفل الدرج، وشرح لجاميسون أن صائد العبيد هو من قادهم إلى المنزل. كان الرجل قد زار القاضي تينيسون بعد ظهر اليوم وقدم طلبًا رسميًا، على الرغم من أن القاضي كان يحتسي ويسكي الجمعة، وربما لن يتذكّر ما دار بينهما. لم يكن بينهم شخص يحرص على تنفيذ الغارة خلال المهرجان، لكن ريدجواي أصر. بصق ريدجواي التبغ على الرصيف، عند أقدام بعض المتفرجين. «يمكنك الاحتفاظ بالمكافأة»، قال لفيونا. انحنى قليلاً ورفع كورا من ذراعها. «لا يجب أن تخافي يا كورا. أنت ذاهبة إلى المنزل».

مرّ صبي صغير ملوّن، يبلغ من العمر حوالي عشر سنوات، وهو يقود عربة في الشارع خلال الحشد صارخًا في الخيول. في أيّ مناسبة أخرى

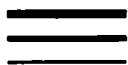
ستكون رؤيته في بذلته السوداء المزخرفة وقبعته سببًا في الحيرة. لكن بعد القبض الدراماتيكي على المتعاطفين والهاربة، دفع ظهوره الليلية نحو عالم الخيال. اعتقد كثيرون أن ما حدث توًّا هو فقرة جديدة أضيفت إلى وسائل ترفيه يوم الجمعة، أداءً مُخطَّطً له بعناية لمواجهة رتابة التمثيليات الأسبوعية والقتل الوحشي الذي، ولنكن صادقين، أصبح من السهل التنبؤ به.

عند سفح الشرفة، وقفت فيونا مع مجموعة من فتيات إيرشتاون. وقالت «على الفتاة أن ترعى مصالحها إذا كانت تريد المضي قدمًا في هذا البلد».

بالإضافة إلى الصبيّ، ركب العربة ريدجواي مع رجل آخر أبيض فارغ القامة ذي شعر بني طويل ويرتدي قلادة مصنوعة من أذانٍ بشرية حول عنقه. قام زميله بربط كاحليّ كورا، ثم مرّر الأغلال خلال حلقة موضوعة في أرضية العربة. جلسّت على المقعد، رأسها ينبض في عذاب مع كل دقة من قلبها. وبينما يتعدون، رأت مارتن وإثيل.

كانا مربوطين إلى شجرة الإعدام. يتهدان ويتألمان في أغلالهما. ركض العمدة في دوائر جنونية عند أقدامهم. التقطت فتاة شقراء صخرة وألقته على إثيل، فضربتة على وجهها. ضحك جزء من سكان البلدة على صرخات إثيل البائسة. التقط طفلان آخران الصخور وألقوا بها على الزوجين. كان العمدة يزمجر ويقفز كلما زاد عدد الناس المنحنين على الأرض. ارتفعت أذرعهم بالحجارة. ثم اختفت المدينة ولم يعد بوسع كورا رؤيتهما بعد ذلك.

إثيل



منذ أن رأَت منحوتةً خشبيّةً تُصوِّر رسالةً تبشيريّةً يُحيط بها مستوطنو الغابات، اعتقدت إثيل أن خدمة الرب في أفريقيا المُظلمة ستكون مُشيعةً روحيًا، طالما ستهدي الرّاع إلى النور. حلمت بالسفينة التي ستأخذها، سفينة رائعة بأشعة مثل أجنحة الملائكة، تعبر البحر العنيف. الرحلة المحفوفة بالمخاطر إلى المناطق الداخليّة، الأنهار المرتفعة، والممرّات الجبلية، والوحوش: الأسود، والثعابين، والنباتات التي تقتل الإنسان، والأدلة. ومن ثم القرية، حيث سيُعتبرها السكان الأصليون مبعوثه الرب، أداة للحضارة. وبفعل الامتنان يرفعونها نحو السماء، منشدين اسمها: إثيل، إثيل!

كانت في الثامنة من عمرها. احتوت صحف والدها على حكايات المستكشفين، وأراضٍ غير معروفة، وشعوبٍ وأقزام. أقرب ما يمكن أن تحصل عليه من صورة في الصحيفة كان لعب دور المبشرة والزنجية مع جاسمين. كانت جاسمين مثل شقيقة لها. لم تكن اللعبة تستمر طويلاً قبل أن تتحول إلى لعبة الزوج والزوجة، كانتا تتدربان على القبلات والجدالات في قبو منزل إثيل. وبالنظر إلى لون بشرتهما، لم يذُر الشكّ حول الدور الذي تؤدّيانه في اللعبة، هذا رغم اعتياد إثيل على فرك السخام على وجهها. وبعد تلوين وجهها باللون الأسود كانت

تقف أمام المرآة تتدرب على تعابير الاندهاش والعجب لمعرفة ما عليها توقعه عندما تقابل الوثنيين الأفارقة.

عاشت جاسمين في غرفة في الطابق العلوي مع والدتها، فيليس. امتلكت عائلة ديلاي فيليس منذ بلوغ إدغار ديلاي العاشرة، حيث أُهديت له. الآن بعد أن صار رجلاً، عرف إدغار أنّ فيليس كانت مُعجزة، تهمّ بشؤون منزله كما لو أنها وُلدت لفعل ذلك. كان يذكر حكمها الداكنة على سبيل الروتين، ويشارك أمثالها حول الطبيعة البشرية مع الضيوف كلما اختفت في المطبخ بحيث عندما تعود تكون وجوههم متوهّجة بالموّدة والغيرة. كان يعطيها أذونات لزيارة مزرعة باركر. وُلدت جاسمين بعد تسعة أشهر من إحدى الزيارات، والآن يمتلك آل ديلاي عبدتين.

اعتقدت إثيل أن العبد هو شخص يعيش في منزلك مثل بقية أفراد الأسرة لكنّه ليس من الأسرة. أوضح لها والدها أصل الزنجي ليُبعد هذه الفكرة المهيجّة عن عقلها. اقترح البعض أن الزنوج هم بقايا قبيلة عمالقة كانوا يحكمون الأرض في وقت قديم، لكن إدغار ديلاي عرف أنهم كانوا أحفاد حام الأسود الذين نجوا من الطوفان بالانزواء في قمة جبل في أفريقيا. اعتقدت إثيل أنهم إذا كانوا ملعونين، فإنهم يحتاجون التوجيه المسيحي أكثر من أيّ شعبٍ آخر.

في عيد ميلادها الثامن، كان والد إثيل يمنعها من اللعب مع جاسمين حتى لا تعرف الحالة الطبيعية للعلاقات بين الأجناس. لم تكن إثيل تكوّن صداقات بسهولة، حتى في ذلك الوقت. كانت تنتحب وتتذمر لأيام. كانت جاسمين أكثر فُدرّة على التكيّف. تولّت جاسمين واجبات بسيطة في أنحاء الأسرة ومألت مكان والدتها عندما تعب قلب فيليس

وأصبيت بالبكم والشلل. رقدت فيليس في السرير عدّة أشهر، بفم مفتوح وردّي، وعيون ضبابية، فأمر والد إثيل بنقلها. لم تلاحظ إثيل وجود أيّ اضطراب في وجه زميلتها القديمة في اللعب عندما حُملت والدتها إلى العربة. وبحلول ذلك الوقت لم تتكلّم عن شيء لا يخصّ المسائل المنزلية.

بُني المنزل قبل خمسين عامًا، وكان الدرج يُصدر صريرًا. كان بإمكان أيّ همسٍ في الغرفة الانتقال إلى الغرفتين المجاورتين. في معظم الليالي بعد العشاء والصلاة، سمعت إثيل والدها يصعد الدرج الملتوي مسترشداً بضوء شمعة. وأحياناً كانت تتسلّل إلى باب غرفة نومها، وتلمح بيجامته البيضاء تختفي في الممر.

"إلى أين أنت ذاهب يا أبي؟" سألته ذات ليلة. كانت فيليس قد رحلت منذ عامين. وكانت جاسمين في الرابعة عشرة من عمرها.

"إلى الطابق العلوي"، أصبح لديهما مصطلح لزياراته الليلية. كان ذاهباً إلى الطابق العلوي - لا يؤدي الدرج إلى مكان آخر؟ قدم والدها تفسيراً واحدًا لفصل الأعراق في العقاب بين الأشقاء. رحلاته الليلية صارت مرتبة أكثر. عاش البيض في الطابق السفلي والسود في الطابق العلوي، وَصُلّ ذلك الانفصال كان هو ما سيُشفي جُرحِ الكتاب المقدّس.

كانت والدتها تبدي رأيًا سيئًا حول صعود زوجها إلى الطابق العلوي ولم يكن ذلك دون أسباب. عندما باعت أسرتهم جاسمين إلى النخّاس على الجانب الآخر من المدينة، عرفت إثيل أنه تدبير والدتها. لا مزيد من الذهاب إلى الطابق العلوي عندما جاءت العبدة الجديدة. كانت نانسي جدّة، بطيئة في خطواتها ونصف عمياء. شخيرها هو الذي يخترق الجدران الآن، لا الخطوات وأصوات السوائل. لم يعد المنزل شديد

النظافة والتنظيم كما كان قبل رحيل فيليس؛ فقد كانت جاسمين نشطة رغم أنها مشتتة. يقع منزل جاسمين الجديد عبر الطريق في بلدة للملّونين. همس الجميع أن الطفل الذي ولدته يحمل عيني والده.

ذات يوم على مائدة الغداء أعلنت إثيل عن عزمها نشر كلمة المسيح في أفريقيا عندما تكبّر بما فيه الكفاية. سَخِرَ والدها. لم يكن هذا شيئاً قد تقوله شابة صالحة من فيرجينيا. "إذا كنتِ ترغبين في مساعدة الهمجيين،" قال والدها، "فالتصبيحي مدرّسة. إن دماغ طفل يبلغ من العمر خمسة أعوام هو أكثر وحشية من أكبر زنجي همجي." ولذلك تمّ تعيين مسارها، حيث شغلت إثيل مكان المعلّمة ذات الدوام الكامل عندما تمرّض الأخيرة. كان الأطفال البيض بدائيين بطريقتهم الخاصة، ثرثارين وغير متحضّرين بما يكفي. لكن لم تشعر أن ما تفعله يُماقل ما قد تفعله نشر كلمة المسيح بين الأفارقة. فقد ظلّت أفكارها عن الغابة وحلقة المعجبين الزوج محفوظة داخلها.

كان الاستياء هو أساس شخصيتها. تصرفت شابات دائرتها الاجتماعية بعادات دخيلة، لا يمكن تفسيرها. لكنها لم تُعر الصبيان كبير اهتمام، وفي وقت لاحق الرّجال أيضًا. وعندما ظهر مارتن، الذي قدّمه لها أحد أبناء عمومته ممّن عملوا في شركة الشحن، كانت قد تعبت من الشائعات حولها وتخلّت عن السعادة منذ فترة طويلة. طاردها مارتن وفي النهاية تزوجها. لم تكن لعبة الزوج والزوجة ممتعة كما هو مفترض. وعندما ولدت جين جاءت كرحمة غير متوقعة فحملتها مثل باقة زهور مشدّبة بين ذراعيها. مع مرور السنين تحوّل ملل الحياة اليومي في شارع أوركاد إلى ارتياح. كانت تتظاهر أنها لا ترى جاسمين عندما تعبر الشارع، خاصة حين تكون زميلة للعب القديمة بصحبة

ابنها الذي يحمل وجهًا كأنه مرآة سوداء.

ثم استُدعي مارتن إلى كارولينا الشماليّة. تمّ ترتيب جنازة دونالد في أكثر أيام العام سخونة؛ وعندما أغمي على إثيل اعتقد البعض أن الحزن هو السبب، لكن السبب الحقيقي كان تلك الرطوبة البربريّة. وعدها مارتن الانتهاء من الأمر بمجرد أن يجدا مَنْ يشتري متجر الأعلاف، ليعودا إلى فرجينيا. كان المكان متخلفًا. إن لم يكن بسبب الحرارة، فبسبب الذباب؛ وإن لم يكن الذباب فالفئران، ثم الناس. في فرجينيا على الأقل حافظ الغوغاء على ستارٍ من التلقائيّة. لم يشنقوا الناس عمليًا في حديقتك الأمامية، في الوقت نفسه كل أسبوع، مثلها مثل الكنيسة. كانت كارولينا الشماليّة محطة قصيرة، أو هذا ما اعتقدته حتى رأت زنجيًّا في مطبخها.

كان جورج قد نزل من العلية لجلب بعض الطعام، حيث ساعد مارتن العبد التّحيف قبل وصول الفتاة. وكان ذلك قبل أسبوع على دخول القوانين الجديدة حيّز التنفيذ، عندما ازداد العنف ضد السكان الملّونين. مُدّرة على عتبة بابهم أرشدت مارتن إلى منجم الميكا. انتظره جورج، كان جائعًا وغازبًا. ظلّ عامل التبغ في العلية مدّة أسبوع قبل أن يأخذه وكيل السكّة الحديديّة إلى مسار رحلته القادمة، ويضعه داخل مؤخّرة عربته من الباب الأمامي. كانت إثيل غاضبة، ثم يائسة - وكان جورج بمثابة منفذ وصية دونالد، وألقى الضوء على الميراث السريّ لمارتن. وعندما جاءهم كان قد قطع ثلاثة أصابع من كفّه أثناء تقطيعه القصب في المزرعة التي كان عبدًا فيها.

العبودية باعتبارها قضية أخلاقية لم تهّم إثيل قط. فإذا لم يُرد الربّ للأفارقة أن يُستعبدوا لما كانوا مغلولين كالآن. ومع ذلك، كانت لديها

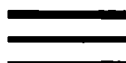
أفكار جريئة بشأن ألا تُقتل بسبب ما يعتقدّه الآخرون. تجادلت هي ومارتن حول السكك الحديدية السرية كما لم يتجادلا منذ وقت طويل، كان ذلك قبل ظهور القوانين الوحشية الجديدة. من خلال كورا - تلك الأَرْضة الموجودة في العليّة - أتى دونالد من وراء قبره لمعاقبها على نكتتها التي أطلقها منذ سنوات عدّة. عندما اجتمعت أسرهم للمرة الأولى، أدلت إثيل بملاحظة حول بذلة دونالد الريفية البسيطة. كانت تحاول استرعاء الانتباه على الأفكار المختلفة للعائلتين حول الملابس المناسبة، كي تُريح ضميرها ويتمكّنوا جميعًا من التمتع بالوجبة التي استغرقت إثيل كثيرًا من الوقت للتخطيط لها. فيما بعد أخبرت مارتن أن دونالد لم يغفر لها أبدًا، وقالت إنّها على يقين من ذلك، والآن كانا في طريقهما للشّرق على فروع الشجرة التي تقع مباشرة أمام بابهم الأمامي.

عندما ذهب مارتن إلى الطابق العلوي لمساعدة الفتاة لم يكن يحمل الغرض نفسه الذي كان والدها يحمله إلى طابقهم العلوي، لكن كلا الرجلين ينزلان بهيئة تختلف عمّا صعدا بها. قاما بتأويل الصّدع التوراتي لغرضٍ أنانيّ.

إذا استطاعا فعل ذلك، فلم لا يمكنها فعل الشيء نفسه؟ كل شيء حُرّم على إثيل خلال مُجمل حياتها: التبشير والمساعدة، وإعطاء الحب بالطريقة التي تريد. وعندما مرضت الفتاة، أتت اللحظة التي انتظرتها إثيل فترة طويلة. في النهاية لم تذهب إلى أفريقيا، بل أفريقيا هي من أتتها. ذهبت إثيل إلى الطابق العلوي، مثلما فعل والدها، لمواجهة الغريب الذي عاش في منزلها كفرد من العائلة. كانت الفتاة ترقد على الملاءات منحنية مثل نهرٍ بدائيّ. نظفت إثيل الفتاة، وغسلت قذارتها. قبلتها على جبينها وعانقها في نومها المضطرب ينتابها شعوران مختلطان

في تلك القبلات. لقد أعطتها الكلمة المقدسة.
أخيراً بات عندها همجيّةٌ تخصّها، لتمهدها.

تینیس





مكافأة بقيمة 25 دولارًا

في تاريخ 6 فبراير من الماضي، هربت من الموقع أدناه فتاة زنجية تُدعى بيغي، تبلغ من العمر 16 عامًا، وهي خلاسية، ومتوسطة الطول، وشعرها ناعم، وذات ملامح مقبولة - تحمل ندبةً خشنة على رقبته بسبب الحرق. لا شك أنها ستحاول المرور كأنها فتاة حرة، ومن المرجح أنها حصلت على تصريح مجاني. تُبدي نظرة غريبة عند الحديث معها، وليست ذكية بشكل ملحوظ. تتحدث بسرعة وبصوت صاخب.

جون دارك

مقاطعة شاثام، ١٧ مايو



"احملي يا يسوع إلى الوطن، الوطن الذي في تلك الأرض..."
لم يكن جاسبر يتوقف عن الغناء. صرخ عليه ريدجواي من أعلى العربة الصغيرة لإغلاق فمه، وتوقفوا أحياناً ليتمكن بوسمان من ضرب الهارب على رأسه. راقب جاسبر الندوب على أصابعه فترة قصيرة، ثم استأنف غناءه. يهدوء في البداية بحيث تسمعه كورا فقط. لكن سرعان ما غنى بصوت عالٍ مرة أخرى، لأسرته المفقودة، لإلهه، لكل من قُتلوا في المحاكمات. يجب عليه أن يتعلم الانضباط مرة أخرى. ميّزت كورا بعض التراتيل. واشتهت في أنه اخترع كثيراً منها؛ بسبب القوافي التي جاءت ملتوية. لم تكن لتمانع كثيراً في حال كان لجاسبر صوت أفضل، لكن يسوع لم يباركه في تلك النقطة، أو في الشكل - كان له وجه ضفدع غير متوازن وأذرعاً رقيقة بشكل غريب بالنسبة لعامل حقل - أولم يُباركه في الحظ... الحظ كان أقلها جميعاً.
ذلك هو القاسم المشترك بينهما.

فقبل ثلاثة أيام من وصولهم كارولينا الشماليّة أمسكوا جاسبر. كان جاسبر عبارة عن تسليم. هرب من حقول قصب في فلوريدا وبلغ تينيسي قبل أن يقبض عليه سمكريّ وهو يسرق الطعام من مخزنه. بعد بضعة أسابيع حدّدت السلطات مكان صاحبه، لكن السمكريّ

لم يملك وسيلة نقل. كان ريدجواي وبوسمان يشريان في حانة قريبة من السجن بينما هومر الصغير ينتظر مع كورا والعربة. اقترب كاتب المدينة من صياد العبيد الشهير، وكان ريدجواي ممسكًا بالزنجى مربوطًا بالأغلال في العربة. لم يكن يحسب أن الفتى مُغْنً.

طقطقت قطرات المطر على المظلة. استمتعت كورا بالنسيم ثم شعرت بالخجل من استمتاعها. وعند توقف المطر توقفوا لتناول الطعام. صفع بوسمان جاسبر، وضحك، ثم فكَّ أغلال الهاربين من أرضية العربة. قدّم عروضًا مبتذلة بينما ينحني أمام كورا. ظل معصبي وكاحلي جاسبر مصفدين، وكذلك كورا. كانت تلك أطول فترة ظلت فيها مغلولة.

حلقت الغريان من فوقهم. كان العالم محروقًا ومسلوبًا على مدّ بصرهم. بحر من الرماد والفحم من الحقول المسطحة حتى التلال والجبال. أشجار سوداء مائلة تقف مثل أذرع واهنة تشير إلى مكان بعيد لم يمسه اللهب. مروا بجانب أعداد لا حصر لها من المنازل والحظائر المحروقة، والمداخن التي تقف مثل شواهد القبور، والجدران الحجرية المقشّرة للمطاحن ومخازن الحبوب. الأسيجة المحروقة التي كانت الماشية ترعى فيها؛ لم تكن نجاة الحيوانات واردة. بعد يومين من القيادة خلال تلك الحرائق كان السخام يغطّهم بالسواد. قال ريدجواي إن ذلك جعله يشعر وكأنه في المنزل! فهو ابنُ حدّاد.

هذا ما رآته كورا: لا مكان للاختباء. لا ملجأ بين تلك الفروع السوداء، حتى لو لم تكن مقيّدة، حتى لو حازت فرصة للهرب.

رجل أبيض عجوز يرتدي معطفًا رماديًا أسرع بجانبهم على حصان غامق اللون. ومثل المسافرين الآخرين الذين يمرون على الطريق

الأسود، تباطأ في فضول. رؤية عبيد كبيرين كان أمراً شائعاً بما فيه الكفاية. لكن الصبيّ الملون في بذلته السوداء والذي يقود العربة مع ابتسامة غريبة، أغضب مرآه الغريباء. ارتدى بوسمان سترته الحمراء وقلادة مزينة بقطع من الجلد المجعد. وعندما يرى أن المازة اكتشفوا أن تلك القلادة مكوّنة من آذان بشرية يبتسم في وجوههم بأسنان ملتوية ومصفرة بسبب التبغ. قام الرجل الأبيض أكبرهم في السن (ريدجواي) بتثبيط كل المحادثات بنظرته الحادة. انعطف المسافر العجوز حول المنحنى حيث الطريق محصور بين التلال الجرداء.

فرش لهم هومر لحاقاً للجلوس ووزّع حصصهم من الطعام على أطباق قصديرية. سمح صياد العبيد لسجنائه بحصص متساوية من المواد الغذائية، وهو عُرفّ يعود تاريخه إلى أيامه الأولى في العمل. فذلك يقلل من الشكاوى ويضيف تكلفته إلى فاتورة العميل. على حافة الحقل أكلوا لحم الخنزير المملح والفاصولياء التي أعدها بوسيمان، وكان الذباب يدور حولهم في موجات.

حرّك المطر رائحة النار، ما جعل الهواء لاذعاً. كل لقمة من الطعام جاءت بنكهة الدخان، كل رشفة ماء. غنى جاسبر، «قال المخلص اقفز! اقفز، اقفز لو أردت أن ترى وجهه!»

"هالولياه!" صاح بوسيمان. «يا يسوع الطفل!» تردد صدى كلماته ورقص، رش بقدميه الماء الداكن. «إنه لا يأكل»، قالت كورا. كان جاسبر قد فوّت الوجبات القليلة الماضية، وقام بشد فمه وضم ذراعيه. «إذن فهو لا يأكل»، قال ريدجواي. انتظرها لتقول شيئاً، لأنه اعتاد نقيقتها حول تصريحاته.

كانا يتجادلان دائماً. ظلت كورا صامته لكسر نمطهما. وهروول هومر كي

يحظى بحصّة طعام جاسبر. استشعر أن كورا تحدد في وجهه، فكشّر دون أن ينظر نحوها.

كان سائق العربة عفرينًا صغيرًا غريبًا. عمره عشرة سنوات، مثل تشيستر، لكنه مشبّع بالكياسة المحزنة لعبيد المنزل، ومجموعة الإيماءات التي تدرّب عليها. كان شديد الحساسية حول بذلته السوداء وقبعته، يستخرج الوبر من النسيج ويحمله فيه كما لو كان سمّ عنكبوت، ثم يطيره. نادرًا ما تحدّث هومر عن شيء عدا قيادته الخيول. لم يُعطي أي إشارة حول التقارب العرقي أو التعاطف. لم تكن كورا وجاسبر مرئيين أيضًا بالنسبة له، كانا أصغر من وبر بذلته.

شملت واجبات هومر قيادة الفريق، والصيانة المتنوعة، وما وصفه ريدجواي بعملية «حفظ الدفاتر». حافظ هومر على حسابات الأعمال وسجلّ قصص ريدجواي في دفتر صغير يدسّه في جيب معطفه. لم تستطع كورا تمييز ما يجعل هذا أو ذاك من بين كلام صياد العبيد جديرًا بالتدوين. كان الصبي يحفظ البديهيات الدنيوية والملاحظات الواقعية حول الطقس بحماس مساوٍ.

مدفوعًا من قبل كورا ذات ليلة، صرّح ريدجواي أنه لم يملك عبدًا في حياته، باستثناء أربع عشرة ساعة كان فيها هومر من بين ممتلكاته. «لَمْ لا؟» سألته. «لماذا؟». كان ريدجواي يقود في ضواحي أتلانطا، وقد سلّم زوجًا وزوجته إلى مالكهما، وذلك على طول الطريق من نيويورك - عندما جاء إلى جزّار لتحصيل ديون قمار. كانت عائلة زوجة الجزّار قد أعطتهم أمّ الصبي هدية زفاف. لكن الجزّار باعها بسبب سوء حظّ سابق في مقامرة. والآن جاء دور الصبي. أعطى الجزّار هومر لريدجواي كمقايضة لديون القمار.

حساسية الصبي الغربية حركت ريدجواي. أضافت عينا هومر السّاطعة إلى وجهه المستدير وحشيّة وهدوءًا على حد سواء. روحٌ طيّبة. اشتراه ريدجواي مقابل خمسة دولارات، وعتقه في اليوم التالي. بقي هومر إلى جانبه على الرغم من محاولات ريدجواي العديدة لإبعاده. لم يكن لدى الجزّار آراء قويّة ضد موضوع تعليم الملونين، وقد سمح للصبيّ أن يدرس مع بعض الأطفال الأحرار. ساعده ريدجواي في تعلّم الكتابة بدافع الملل. وعندما يلائمه الأمر كان هومر يزعم أنه من أصول إيطالية ويترك مستجوبيه لحيرتهم. تطوّرت ملابسه غير التقليدية مع مرور الوقت؛ لكن تصرفاته ظلّت دون تغيير.

"إذا كان حُرًّا، لم لا يذهب؟"

"إلى أين؟" سأل ريدجواي. «لقد رأى ما يكفي لمعرفة أن صبيًّا أسود ليس له مستقبل، سواء امتلك صكوك حرّية أم لا. ليس في هذا البلد. ربما يختطفه بعض الأشخاص فيضعونه في مزاد ما. بصحبتى يمكنه تعلّم أمور كثيرة عن العالم. ويجد هدفًا».

كل ليلة يفتح هومر حقيبته بعناية شديدة ويُخرج مجموعة من الأناجيل. يقيّد نفسه إلى مقعد السائق، ويضع المفتاح في جيبه، ويغلق عينيه. رأى ريدجواي كورا وهي تحدق بالفتى. «إنها الطريقة الوحيدة التي يستطيع النوم بها».

كان هومر يشخر كلّ ليلة مثل ثريّ عجوز. أمّا بوسمان فقد كان يعمل مع ريدجواي منذ ثلاث سنوات. كان مقامرًا من كارولينا الجنوبية ووجد طريقه إلى اصطيد العبيد بعد التنقّل بين كثير من الأعمال: عامل ميناء، ووكيل، وحافر قبور. لم يكن بوسمان الزميل الأكثر ذكاء

لكنه يمتلك موهبة في توقّع رغبات ريدجواي بطريقة حيوية وغريبة. صار عدد أعضاء عصابة ريدجواي خمسة عندما انضمّ بوسيمان إليه، لكن موظفوه غادروا واحدًا تلو الآخر. لم يتّضح السبب على الفور لكورا.

مالك عقد الأذان البشرية السابق كان هنديًا يُدعى سترونغ. وكان سترونغ قد رقى نفسه باعتباره متعقّبًا، لكن المخلوق الوحيد الذي تعقّبه بشكل موثوق كان شراب الويسكي. فاز عليه بوسمان في مسابقة مصارعة، وعندما اعترض سترونغ على شروط المباراة، ضرب بوسمان الرجل الأحمر بمجرّفة. فقدّ سترونغ سمّعه وترك العصابة للعمل في مديّعة في كندا، أو هكذا قالت الشائعات. على الرغم من أن الأذان كانت جافّة وذابلة، لكنها كانت تجذب الذباب عندما يكون الجوّ ساخنًا. أحبّ بوسمان هذا التذكّار منه، واعتبر الاشمئزاز الذي يعلو وجه العميل الجديد عندما يراها لذيذًا جدًّا. لم يضايق الذباب الهندي عندما كان يرتديه، ذكّره ريدجواي بذلك من وقت لآخر.

حدق بوسمان في التلال بين قضيمة وأخرى وكان يطلق تهديدات حزينة بشكل غير معهود. سارع للتبول، وعندما عاد قال: «قديمًا مرّ أبي من هنا، كما أعتقد. قال إنها كانت غابة حينذاك. وعند عودته، تمّ تطهيرها بالكامل من قبل المستوطنين».

"الآن تم تطهيرها بشكل مضاعف"، أجاب ريدجواي. «صحيح ما تقوله. كان هذا طريق أحصنة. في المرة القادمة التي تحتاج فيها إلى صنع طريق يا بوسيمان، تأكد من أن لديك عشرة آلاف هنديًا شيروكيًّا جائع لتطهيرها لك. هذا يوفر الوقت».

"أين ذهبوا؟" سألت كورا. بعد ليلتها مع مارتن، صارت لديها خبرة

شعورية عندما يرغب الرجال البيض في رواية قصة . منحها ذلك الوقت للنظر في خياراتها.

كان ريدجواي قارئًا متحمسًا للصحف. فقد جعلت نشرات الهاربين من الصحف شرطًا في أداء عمله - احتفظ هومر بمجموعة شاملة - وأيدت الأخبار المتداولة في الصحف عموم نظرياته عن المجتمع والحيوان البشري. ساعدته نوعية الأفراد العمالين في وظيفته على اعتياد شرح الحقائق الأوليّة مقرونةً بالتواريخ. وبالكاد كان بوسعه أن يتوقع من عبدة معرفة معنى ما يدور حولهم.

جلسوا على ما كانت في يوم أرضًا لهنود الشيروكي، أرض آباءهم الحُمَر، حتى قرر الرئيس خلاف ذلك وأمر بإبعادهم. قال ريدجواي إن المستوطنين يحتاجون الأرض، وإذا لم يتعلم الهنود آنذاك أن معاهدات الرجل الأبيض لا قيمة لها تمامًا، فإنهم يستحقون ما حدث لهم. كان لديه أصدقاء في الجيش حينها. قاموا بجمع الهنود في مخيمات، النساء والأطفال، وكل ما يمكن حمله على ظهورهم، ونقلوهم إلى الغرب من مسيسيبي. لا يخلو طريق الدموع والموت، كما وصفه حكيمٌ شيروكي في وقت لاحق، من قضية، ولا من الميل الهنديّ للبلادة. المرض وسوء التغذية، ناهيك عن شتاء تلك السنة التي ذكرها ريدجواي نفسه دون عزاء، قادوا إلى موت آلاف منهم. عند وصولهم أو كلاهما كان هناك مزيد من البيض ينتظرونهم، ويحتكرون الأرض التي وُعد بها الهنود في أحدث معاهدة تافهة. كانوا حفنة من بطيئي التعلم. لكن ها هم الآن على هذا الطريق. أصبحت الرحلة إلى ميسوري أكثر راحة مما كانت عليه سابقًا، بعد أن قامت قدم حمراء صغيرة بتسوية الأرض.

"التقدم"، قال ريدجواي. «ابن عمي كان محظوظًا وفاز ببعض أراضي

الهنود في يانصيب، تقع في الجزء الشمالي من تينيسي. يزرعها الآن ذرة". هزت كورا رأسها بأسى. «يا لحظه». في طريقهم، قال ريديجواي أن ضربة البرق غالبًا هي ما بدأت الحريق. ملأ الدخان السماء مئات الأميال، ولون غروب الشمس بكدمات رائعة من ألوان قرمزية أرجوانية. كانت تلك تينيسي تعلن نفسها: وحوش رائعة تتلوى في بركان. لأول مرة، عبرت إلى ولاية أخرى دون استخدام السكك السريّة. كانت الأنفاق تحميها. قال السيد لومبلي وكيل المحطة أن كل ولاية عبارة عن مجموعة من الاحتمالات، بعاداتها الخاصّة. جعلتها السماء الحمراء ترتعب من قواعد هذا الإقليم المُقبل. وبينما كانوا يتجهون صوب الدخان، ألهم غروب الشمس جاسبر لغناء مجموعة من التراتيل التي كان موضوعها الرئيسي غضب الرب والتهديدات التي تنتظر الأشرار. قام بوسمان برحلات متكررة إلى داخل العربة.

أطراف المدينة التي لم تصلها النار كانت مليئة بالهاريين. «الهاريون»، أعلنت كورا واستدار هومر في مقعده ليغمز لها. تجمهرت الأسر البيضاء في معسكر قبالة الشارع الرئيسي، حزانى ومندهشين، تتكدّس تحت أقدامهم الممتلكات الهزيلة التي كانوا قادرين على إنقاذها. كان الناس متناثرين عبر الشارع بتعبيرات حمقاء، وأعين بريّة، وملابس محترقة، وخرقٍ مربوطة حول الحروق. اعتادت كورا بشكل جيّد على صراخ الأطفال الملونين بسبب العذاب والجوع والألم. أمّا سماع صراخ كثير من الأطفال البيض فقد كان جديدًا. ظلّ تعاطفها محصورًا بالأطفال الملونين.

رَحبت رفوف المتجر الفارغة بريديجواي وبوسيمان. قال صاحب المتجر لريديجواي أن المزارعين بدؤوا إشعال النار بينما كانوا يحاولون

التخلص من بعض الأشجار المنخفضة. لكن الحريق امتد والتهم هذه الأرض بجوعٍ لا نهائي حتى وصلت الأمطار أخيرًا. "ثلاثة ملايين فدّان،" قال صاحب المتجر. "وعدت الحكومة بالإغاثة لكن لا أحد يستطيع معرفة متى تأتي. إنها أكبر كارثة حدثت."

فكرت كورا عندما تحدث ريدجواي مع صاحب المتجر أن للسكان الأصليين قائمة أكثر شمولًا حول حرائق الغابات والفيضانات والأعاصير. لكنهم لم يكونوا هنا للمساهمة بمعرفتهم. ليس لها علم عن القبيلة التي كانت تمتلك هذه الأرض، لكنها عرفت أنها كانت أرضًا هندية. أليست كل الأراضي هنا هندية؟ لم تكن قد تعلمت التاريخ بشكل صحيح، لكن في بعض الأحيان تصبح عيون المرء هي المعلم الأكثر كفاءة.

"لا بد أنهم فعلوا شيئًا لإغضاب الرب"، قال بوسيمان. «مجرد شرارة خرجت عن السيطرة هذا كل ما في الأمر»، قال ريدجواي. كانوا يقفون على الطريق بعد تناول وجبة الغداء، بينما وقف الرجلان الأبيضان يدخان الغليون بجانب الخيول ويستغرقان في ذكريات حول مغامراتهما. في أحاديثه كلّها عمّا حدث خلال الفترة التي كان يطار خلالها كورا، لم يعبر ريدجواي عن إلحاح حول تسليم كورا إلى تيرانس راندال. ولم تكن ملاحظتها هذه نابعة من توقعها إلى لمّ الشمل مع ملاكها. مشّت كورا نحو الحقل المحترق. تعلّمت المشي مع الأغلال. كان من الصعب لكورا تصديق أن الأمر استغرق كل ذلك الوقت الطويل. كانت كورا تشفق دائمًا على صفوف العبيد المكبلين الذين يتم أخذهم إلى المزادات والذين كانت تراهم من مرزعة راندال. أنظر إليها الآن. كان الدرس غامضًا. فمن جانب كانت قد نجت من الأمر سنوات

عدّة. ومن جانب آخر، انتظرت سوء الحظ قليلاً من الوقت: ليس من فرصة للهرب. انتشرت التقرّحات على جلدها تحت الحديد. لم يُعرها الرجل الأبيض أي اهتمام بينما مشت نحو الأشجار السوداء. بحلول ذلك الوقت كانت قد هربت عدّة مرّات. في أحدها، عندما توقّفوا لجلب الإمدادات وانشغل بوسمان بموكب جنازة عند الزاوية، ابتعدت بضعة ياردات قبل أن يتعثر صبيّ بها. أضافوا طَوْقًا إلى رقبتهَا، ووصلاتٍ حديديةٍ تتدلّى حتى معصمها مثل الطاحلب. أصبحت مشيتها تشبه مشية المتسوّل أو حشرة فرس النبي. ركضت عندما توقف الرجال للراحة على جانب الطريق وابتعدت قليلاً تلك المرّة. ركضت مرّة عند الغسق قُربَ جدول، وكانت المياه تتحرّك. جعلتها الحجارة تتعثّر في الماء، وضربها ريدجواي. فتوقفت عن الهرب.

نادرًا ما تحدثوا في الأيام الأولى بعد مغادرتهم كارولينا الشمالية. كانت تعتقد أن مواجهة الغوغاء قد استنفدتهم بقدر ما استنفدتها، لكن الصمت كان سياستها بشكل عام - حتى أصبح جاسبر بمعيتهم. كان بوسمان يهمس لها باقتراحاته البذيئة، ويعود هومر إلى مؤخرة العربة ليوجه نحوها ابتسامة مقلقة خلال جدول المشحون بالعمل. أمّا صياد العبيد فقد حافظ على المسافة بينهما. وفي بعض الأحيان كان يصقّر.

أدركت كورا أنهم يتّجهون غربًا بدلًا من الجنوب. لم تكن تولي اهتمامًا لعادات الشمس قبل سيزر. قال لها إنّ الشمس قد تساعدهم في الهروب. توقّفوا عند بلدة في صباح أحد الأيام، ووقفوا خارج مخبز. عدلت كورا جلستها وسألّت ريدجواي عن خطّطه.

اتّسعت عيناه كأنه كان ينتظر سؤالها. بعد هذه المحادثة الأولى شملها ريدجواي في خططهم كما لو كان لها حق التصويت. «لقد فاجأني»، قال ريدجواي. «لكن لا تقلقي، سوف تصلين المنزل قريبًا».

أخبرها أنها مُحقّقة، فقد كانوا يتجهون نحو الغرب، حيثُ مُزارع جورجيّ يُدعى هينتون كلّف ريدجواي بإرجاع أحد عبيده. كان الزنجي المعنيّ مراوغيًا ومحتالًا ولديه أقارب في واحدة من مستوطنات الملونين في ميسوري؛ أكدت معلومات موثوقة أن نلسون بدأ يعمل كصيّاد في وضح النهار، دون قلق القصّاص. كان هينتون مزارعًا محترمًا ومعروفًا وهو ابن عم المحافظ. ولسوء الحظ، ثرثر أحد مشرفيه بالأمر مع عبدة، فعرض سلوك نيلسون مالّكّه للسخريّة على أرضه. كان هينتون يستعدّ لجعل الصبيّ مدرّبًا. ووعده ريدجواي بمكافأة سخية، حتى أنه كان ينوي منحه عقدًا في حفل افتتاح. وكان شاهدهم عجوز زنجيّ.

وبالنظر إلى نفاذ صبر هينتون، كان المسار الأكثر منطقية هو السفر إلى ميسوري. «حالمًا نقبض على رجلنا»، قال ريدجواي، «يمكنك العودة إلى سيّدك. ومما رأيته، أعتقد أنّه يُعدّ لك ترحيبًا لائقًا».

لم يخفي ريدجواي ازدراءه لتيرانس راندال؛ كان لدى الرجل ما أسماه بالخيال «المُزخرف» عندما يتعلّق الأمر بانضباط الزنجيّ. وهو ما وضّح له بمجرد دخول العصابة المزرعة ورؤية المشانق الثلاث. فقد تمّ تثبيت الفتاة الصغيرة وتمير مسمار معدنيّ كبير متدلّ خلال ضلوعها. الأوساخ اختلطت بدمها. بينما المُشْنَقَتَان كانا في الانتظار.

"لو لم أكن محتجزًا في شمال المدينة"، قال ريدجواي، «متأكد من أنني كنت سأقبض على ثلاثتكم قبل أن يبرد الطريق حتى. لوفي، هل كان ذلك اسمها؟"

غطت كورا قمها كي لا تصرخ. لكنها فشلت. انتظر ريدجواي عشر دقائق لتستعيد هدوءها. نظر سكان البلدة إلى الفتاة الملوثة التي انهارت على الأرض وعبروا فوقها لدخول المخبز. رائحة الوجبات الخفيفة ملأت الشارع، كانت لذيذة ومضلّلة.

قال ريدجواي أن بوسمان وهومر انتظرا في العربة بينما يتحدّث إلى سيّد المنزل. كان المنزل حيويًا ومرحبًا عندما كان الأب على قيد الحياة - نعم، ذهب إلى هناك من قَبْل للبحث عن والدة كورا وعاد خالي الوفاض. دقيقة واحدة مع تيرانس وأصبح الجوّ رهيب واضحًا. كان الابن لثيمًا، ذاك النوع من اللؤم الذي يُفسّر الجوّ الكثيب في المكان. كان ضوء النهار رماديًا وبطيئًا بسبب الرّعد، وكان عبيد المنزل بطيئين ومتجهمين.

أحبّت الصُّحُف دعم الصورة الخياليّة في المزرعة، صورة المزرعة السعيدة والعبد القانع الذي يغني ويرقص ويحبّ سيّده. وأحب الناس هذا النوع من الأشياء فقد كانت مفيدة سياسيًا بسبب الحرب مع الولايات الشمالية وحركة مناهضة العبودية. عرف ريدجواي أن الصورة كاذبة - لم يحتجّ إلى النفاق حول تجارة العبودية - لكن خطر مزرعة راندال كان حقيقيًا. كان المكان مسكونًا. مَنْ يستطيع إلقاء اللوم على العبيد وحزّهم مع تلك الجثّة المعلقة على خطاف في الخارج؟ التقى تيرانس بريدجواي في صالة الاستقبال. كان سكرانًا ولم يكلف نفسه عناء ارتداء ملابس، راقدًا على الأريكة في رداءٍ أحمر. قال ريدجواي إنه من المحزن رؤية الانحطاط الذي يمكن أن يحدث خلال جيل واحد، لكن المال يفعل ذلك في الأسر المالكة في بعض الأحيان. يُبرز الشوائب. تذكر تيرانس ريدجواي من زيارته السابقة، عندما اختفت

مايل في المستنقع، تمامًا مثل هذا الثلاثي الأخير. وأخير ريدجواي أن والده قدّر مجيئه شخصيًا للاعتذار عن عدم كفايته.

"كنت لأصفع ابن راندال ذاك مرتين على وجهه دون أن أخسر العقد"، قال ريدجواي. «لكني قرّرت الانتظار حتى أجذك أنت والآخر وأقبض عليكما. وهو شيء تطلّعت إليه». لقد افترض من خلال حرص تيرانس وحجم المكافأة أن كورا كانت محظية سيّدها.

هزّت كورا رأسها. كانت قد توقفت عن الانتحاب ووقفت الآن، تحكّمت في ارتعاشاتها وضمت قبضتها.

توقّف ريدجواي. «شيء آخر. لقد تركت تأثيرًا قويًا على أيّ حال». واستأنف قصّة زيارته لراندال. أطلع تيرانس صياد العبيد على الأحوال منذ القبض على لوفي. في ذلك الصباح فقط أبلغه رجله كونيلى أن سيزر كان يتردّد على مقرّ صاحب متجر محليّ - كان الرجل يبيع المشغولات الخشبية التي يصنعها الصبيّ الزنجي. ربما على صياد العبيد أن يزور السيد فليتشر للنظر في الأمر. أراد تيرانس إعادة الفتاة حيّة لكنه لم يهتم بالصبيّ الآخر. هل عرف ريدجواي أن الولد جاء من فرجينيا أصلًا؟

لم يعلم ريدجواي بذلك. بدا هذا كما لو كان محاولة مزيدة حول الانتماء إلى ولايته فرجينيا. لقد أغلقت النوافذ، لكن رائحة غير مقبولة انتقلت إلى الغرفة.

"هذا هو المكان الذي تعلّم فيه عاداته السيئة"، قال تيرانس. «إنهم ليّنو العريكة هناك في فرجينيا. تأكّد من تعليمه كيف نقوم بالأشياء في جورجيا». أراد إبعاد القانون عن الأمر. كان الهاربون مطلوبين لقتل صبيّ أبيض، ولو علّم الغوغاء بإلقاء القبض عليهم فلن يسمحوا

بإعادتهم إليه. وتُركت المكافأة لتقديره.

غادر صياد العبيد. كان محور العجلة الفارغة يئنّ كما يفعل دائماً عندما لا تكون هناك حمولة لموازنته. وعد ريدجواي نفسه أن العربة لن تكون فارغة عند عودته. لن يعتذر لراندا لآخر، خاصّة هذا الابن الحقير الذي يُدير المكان الآن. سمع صوتاً وعاد إلى المنزل. كان الصوت قادمًا من الفتاة، لوفي. ارتعشت ذراعها. لم تكن ميتة. «ظَلت حياة نصف يوم آخر، هذا ما سمعت».

انهارت كذبة فليتش على الفور – فهو واحد من أولئك الأشخاص المتديّنين الضعفاء – وكشف اسم زميله في السكك الحديدية السرية، رجل يُدعى لومبلي. لم يعرف أحد مكان لومبلي. لأنه لم يُعد أبدًا بعد أخذ كورا وسيزار خارج الولاية. «ذهبتُم إلى كارولينا الجنوبية أليس كذلك؟» سأل ريدجواي. «هل كان هو أيضًا الشخص الذي نقل أمك شمالاً؟»

صمتت كورا. لم يكن من الصعب تصوّر مصير فليتش، وربما زوجته أيضًا. على الأقل نجا لومبلي. ولم يكتشفوا النفق تحت الحظيرة. ربما ستستخدم روحُ يائسة أخرى ذاك الطريق يومًا ما نحو نتيجة أفضل بمشيئة الحظ.

أومأ ريدجواي. «لا يهمّ. لدينا كثير من الوقت لتبادل التفاصيل. إنها رحلة طويلة إلى ميسوري». أمسك رجال القانون بوكيل محطة رئيسية في جنوب فرجينيا، والذي كشف عن اسم والد مارتن. كان دونالد ميتا، لكن ريدجواي أراد أن يعرف طريقة عمل الرّجل إذا استطاع، من أجل فهم جوانب المؤامرة الأكبر. لم يكن يتوقّع أن يجد كورا، لكنّه كان سعيدًا تمامًا.

قيدها بوسمان إلى أرضية العربة. كانت تعرف صوت القفل الآن. لأنه كان يعلّق لحظات قبل أن يستقرّ في مكانه. انضمّ إليهم جاسبر في اليوم التالي. كان جسده يرتعش مثل كلب مُصاب. حاولت كورا إشراكه في الحديث، سألته عن المكان الذي هرب منه، وتجارة قصب السكر، وكيف أخذ الرحلة. استجاب جاسبر بالتراتيل والصلوات.

كان ذلك قبل أربعة أيام. أما الآن فهي تقف في المراعى السوداء لتينيسي المنحوسة، والخشب المحترق المتفحم تحت قدميها. هبت الرياح والمطر. وانتهى توقفهم. نظّف هومر نفسه بعد وجبة الطعام. دخن ريدجواي وبوسمان غليونهما، وصفرّ لها الرجل الأصغر لتعود. ارتفعت تلال وجبال تينيسي حول كورا مثل جوانب وعاء أسود. لا بد أن النيران كانت فضيحة جدًّا وشرسة لتصنع مثل ذلك الخراب. نحن نزحف في وعاء من الرماد. ما الذي يتبقى عندما ينتهي كل شيء جدير بالاهتمام سوى مسحوق داكن تأخذه الرياح؟

مرّر بوسمان أغلالها خلال حلقة في الأرضية وأقفلها. عشر حلقات رُبطت إلى أرضية العربة. صقّان منها، يتكوّن كل واحد من خمس حلقات، ما يكفي لربط مجموعة كبيرة في بعض الأحيان. وقد كانت كافية لهذين الاثنين. جلس جاسبر في مكانه المفضّل على المقعد يفتي بصوت عال، كما لو أنه التهم وليمة عيد الميلاد. «عندما يدعوك المخلّص، سوف تتخلّص من همومك، تتخلّص من همومك...»

"بوسمان" قال ريدجواي بهدوء. «سوف ينظر إلى روحك ويرى ما فعلته أيها الآثم، سوف ينظر إلى روحك ويرى ما فعلت». قال بوسيمان، «أوه».

دخل صياد العبيد إلى العربة للمرة الأولى منذ أن أمسك كورا. حمل

مسدس بوسمان في يده وأطلق النار على جاسبر في وجهه. غطى الدم والعظام الجزء الداخلي من العربة، وتناثر الرذاذ على فستان كورا القذر.

مسح ريدجواي وجهه وشرح منطقته. كانت مكافأة القبض على جاسبر خمسين دولارًا، خمسة عشر منها للسمكري الذي جلب الهارب إلى السجن. من ميسوري والعودة إلى الشرق صوب جورجيا - ستمر أسابيع قبل تسليم الرجل إلى صاحبه. نصيبي ثلاثة وثلاثون دولارًا على ثلاثة أسابيع، ناقصة حصة بوسيمان، إذن المكافأة الضائعة ذات ثمن صغير جدًا يجب دفعه مقابل الصمت وراحة البال. فتح هومر دفتر الملاحظات وفحص أرقام رئيسه. "إنه مُحق"، قال.

شهدت تينيسي سلسلة من الكوارث. التهم الحريق البلديتين التاليتين على الطريق المتعرج. وفي الصباح ظهر زُفَات مستوطنة صغيرة حول التلة، نَسَقُّ من الأخشاب المحروقة والحجارة السوداء. في البدء، أساسات المنازل التي حوت ذات مرة أحلام ساكنيها، ومن ثم المدينة المنتظمة في خط من الهياكل المدمرة. المدينة التالية أكبر لكنها نافستها في الدمار. كان قلب الدمار تقاطعًا واسعًا حيث تلاقت الطرق المدمرة في مغامرة، وقد اختفى الآن. بدا قرن الخباز في أنقاض متجره مثل طوطم قاتم، بينما البقايا البشرية جاثمة خلف حديد زنزانة السجن.

لم تتمكن كورا من استبانة معلّم واحد في المشهد يُقنع المستوطنين بزراعة مستقبلهم أو تخصيص أرضهم أو مياهم أو آفاقهم. فقد تم محو كل شيء. وإذا عاد الناجون فسيكون ذلك من أجل تأكيد قرار إعادة المحاولة في مكان آخر، أو العودة إلى الشرق أو الغرب. لا قيامة هنا. لقد هربوا من نيران الحرائق. تذبذبت أشجار البتولا والأعشاب البرية بألوان استثنائية، معدنية ومعززة بعد الوقت الذي قضته في الأرض المحترقة. قلد بوسمان طريقة غناء جاسبر مازحًا لتغيير أمزجتهم؛ حيث أتر المشهد الأسود عليهم أكثر مما ظنّوا. أشار طول

قصب ذرة الحقول القوية إلى اقتراب موعد حصادها؛ وبقوة متساوية أعلنت الأراضي المدمرة تصفية الحساب القادم.

أمر ريدجواي بتوقف موجز بعد الظهر. وغضب صياد العبيد عندما قرأ بصوت عال اللافتة على مفترق الطرق. فالمدينة التالية على الطريق كانت تسيطر عليها الحمى الصفراء. تم تحذير جميع المسافرين بأن يسلكوا دربًا بديلة، أصغر وغير مستوية، تؤدي إلى الجنوب الغربي. لاحظ ريدجواي ما إذا كانت اللافتة جديدة. على الأرجح لم يكمل المرض دورته بعد.

قال بوسمان "مات شقيقاي بالحمى الصفراء". نشأ بوسمان في ميسيسيبي، حيث كانت الحمى تزورهم عندما يصير الطقس حارًا. أصبحت بشرة شقيقه الصغيرين ملتهبة وشمعية، ونزفت أعينهما، وحطمت النوبات جسديهما الصغيرين. ثم أخذ بعض الرجال جثتهما في عربة مسطحة. «إنه موت بائس»، هكذا انتزعت نكاته منه مرة أخرى.

عرف ريدجواي المدينة. كان عمدتها شخصًا فاسدًا، وتسبب الطعام هناك بالإصابة بالإسهال، لكنه تمنى الأفضل لمن يعيشون هناك حاليًا. التحول إلى الطريق الجديد سيضيف وقتًا طويلاً لرحلتهم. «تأتي الحمى على متن القوارب»، قال ريدجواي. من جزر الهند الغربية، على طول الطريق من القارة المظلمة في أعقاب التجارة. وأضاف «إنها ضريبة تقدم البشرية».

"من هو محصل الضرائب الذي سيجمعها؟" قال بوسيمان. «لم أره قط». جعله خوفه جفولًا وحاذًا. لم يكن يريد البقاء، فقد كان مفترق الطرق هذا شديد القرب من الحمى. لم ينتظر أمر ريدجواي - أو

يمثل لإشارة مشتركة فقط بين صياد العبيد والصبي السكرتير - قاد هومر العربية بعيدًا عن المدينة الملعونة.

لافتتان أخرتان على طول المسار الجنوبي الغربي حملتا التحذير نفسه. لم تظهر الطرق التي تؤدي نحو المدن التي تم عزلها أي دليل على الخطر الذي سيواجههم. وقد جعل السفر الطويل خلال ما خلّفته النيران الخطرَ الخفيّ أشدَّ رُعبًا. المرّة التالية التي توقفوا فيها كانت في وقت متأخّر من الليل. فحظيت كورا بوقتٍ كافٍ لتُقيم رحلة هربها من مزرعة راندال وتصنع جديدة سميكة من مصائبها.

قائمة بعد قائمة امتلأت بها دفاتر العبودية. جمعت أولًا الأسماء على الساحل الأفريقي في عشرات الآلاف من القوائم. تلك البضائع البشرية. أسماء القتلى لا تقل أهمية عن أسماء الأحياء، مثل كل خسارة بسبب المرض والانتحار - وغيرها من الحوادث المسماة على هذا النحو لأغراض المحاسبة - يجب أن تكون مبررة لأرباب العمل. في المزداد العلني قاموا بجمع الأرواح التي تم شراؤها في كل مزاد، وفي المزارع احتفظ المشرفون بأسماء العمال في دفاتر صغيرة. كل اسم هو أصل، رأس مال يتنفس، والريح يشكّل الجسد.

الوضع الغريب جعل كورا تصنع القوائم أيضًا. في قائمتها عن فقدان لم يخفّض الناس إلى حواصل جمع ولكنهم ضوعفوا بسبب لطفهم. الناس الذين أحببتهم، والناس الذين ساعدوها. نساء الفرن، لوفي، مارتن وإثيل، فليتش. أولئك الذين اختفوا: سيرز وسام ولومبلي. جاسبر لم يكن مسؤوليتها، لكن ربما تمثل بقع دمه على العربية وملابسها موتها أيضًا.

تينيسي ملعونة. في البداية أرجعت كورا دمار تينيسي - الحريق والمرض

- إلى العدالة. حصل البيض على ما يستحقونه. بسبب استعباد شعبيها، وقتل عرق آخر، وسرقة الأرض ذاتها. دعهم يحترقون بالنار أو الحمى، دع الدمار يبدأ هنا فدانًا بعد فدان حتى ينتقم الموتى. لكن إذا كان الناس يتلقون حصتهم من سوء الحظ، فماذا فعلت هي لجلب المشاكل على نفسها؟ في قائمة أخرى، وصفت كورا القرارات التي أدت بها إلى هذه العربة وحلقاتها الحديدية. كان هناك الصبي تشيستر، وكيف قامت بحمايته. كان الجلد هو العقوبة القاسية للعصيان. كان للهروب تجاوزات كبيرة جدًا لدرجة أن العقاب طال كل روح سخية ساعدتها في جولتها القصيرة نحو الحرية.

خلال الارتداد على نابضات العربة اشتمت رائحة الأرض الرطبة والأشجار العالية. كيف نجا هذا الحقل في حين احترق آخر على بعد خمسة أميال؟ كانت عدالة المزارع منحنّة وثابتة، لكن العالم كان عشوائيًا. خارجًا في العالم، هرب الأشرار من القصاص العادل ووقف الطيبون في أماكنهم على شجرة الجلد بالسياط. كانت كوارث تينيسي ثمرة طبيعة غير مبالية، دون أن ترتبط بجرائم المستوطنين. أو كيف عاش الهنود حياتهم.

مثل شرارة ذوت بعيدًا.

لا توجد أغلال تستطيع ربط مصائب كورا بشخصيتها أو أفعالها. كانت بشرتها سوداء وهكذا عامل العالم السود. لا أكثر ولا أقل. "كل ولاية مختلفة"، قال لومبلي. وإذا كان لتينيسي طابع، فسيكون مشابهاً لشخصية العالم الظلامية، بذائقة للعقاب التعسفي. لم ينبج أحد، بغض النظر عن شكل أحلامهم أو لون بشرتهم.

مرّ بهم شاب شعره بنيّ مجعّد وعيونه غائرة، تظهر تحت قبعته القشّية

وهو يقود مجموعة من خيول العمل من ناحية الغرب. كانت حدوده حمراء بسبب حرارة الشمس. أوقفَ عصابة ريدجواي. وأطلعهم أن هناك مستوطنة كبيرة تنتظرهم وتتميّز بروح متطرفة، وهي خالية من الحصى الصفراء اعتبارًا من ذلك الصباح. أخبر ريدجواي الرّجلَ عمّا ينتظره في الاتجاه الآخر وقدّم شكره.

على الفور استؤنفت حركة المرور على الطريق الرئيسية، حتى الحيوانات والحشرات ساهمت في النشاط. عاد المسافرون الأربعة إلى المعالم والأصوات وروائح الحضارة. وعلى مشارف البلدة، كانت المصاييح متوهجة في البيوت الزراعية والأكواخ، وجلست العائلات على الشرفات خلال المساء. انتصبت المدينة أمامهم، أكبر مدينة رأتها كورا منذ مغادرتهم كارولينا الشمالية. كان الشارع الرئيسي الطويل يحوي مضرفين وصفاً صاخبًا من الحانات أعادها إلى أيام المهجع. لم تُعطِ المدينة أيّ إشارة على الهدوء الليلي، فالمحلات التجارية مفتوحة، والمواطنون كلهم على الأرصفة الخشبيّة. كان بوسمان يُصرّ على عدم قضاء الليلة هنا. فإذا كانت الحصى قريبة جدًا فقد تضرب هذا المكان، وربما انتقلت بالفعل إلى أجساد سكّان المدينة. غضب ريدجواي لكنه استسلم للأمر، رغم تفويته سريرًا ملائمًا للراحة الليلة. خيموا على الطريق بعد أن تزوّدوا بالموءن.

ظلت كورا مقيدة بالأغلال إلى العربة بينما كان الرّجال يتابعون المهمّات. رأى راكبو العربات وجهها من خلال فتحات في القماش وأشاحوا بعيدًا. كانت لهم وجوه قاسية. وكانت ملابسهم خشنة وصوفية، أقل جودة من الملابس البيض في المدن الشرقيّة، ملابس المستوطنين، وليست ملابس المستعمرين.

صعد هومر إلى العربة وهو يصفرّ واحدة من أناشيد جاسبر الرتيبة. كان العبد الميت ما زال بينهم. حمل الصبيّ حزمة ملفوفة في ورقة بنية، وقال «هذا لك».

كان فستاناً أزرق داكناً بأزوار بيضاء من القطن الناعم تفوح منه رائحة طيبة. وضعت الفستان فوقها ليغطي البقع الدموية على القماش، والتي كانت صارخة على النسيج بسبب أعمدة الإنارة في الخارج.

"ارتديه يا كورا"، قال هومر. رفعت كورا يديها، وأصدرت الأغلال ضجة. فكّ كاحليها ومعصمها. ومثلما فعلت في كل مرة، فكّرت كورا في فرص الهرب، لكن لم تكن النتائج جيّدة. بلدة خام وبريّة كتلك ستكون عاجّة بالغوغاء. هل وصلت أخبار صبيّ جورجيا إلى هذا المكان؟ ذلك الحادث الذي لم تفكّر به ولم تُدرجه ضمن قائمة التجاوزات. فقد انتهى الصبيّ إلى قائمته الخاصة - لكن ما هي شروط تلك القائمة؟

شاهدها هومر بينما تخلع ملابسها، مثل خادم ينتظرها منذ المهد. "أنا مستغربة"، قالت كورا. «لقد اخترت أن تكون معه». بدا هوميروس محتاراً. أخرج دفتر ملاحظاته، وتحول إلى الصفحة الأخيرة، وكتب شيئاً. وعندما انتهى أعاد قيودها مرة أخرى. أعطاها أحذية خشبية سيئة. كان على وشك ربط أغلال كورا إلى العربة عندما أمره ريدجواي بجلبها إلى الخارج.

بوسمان ما يزال في الخارج يبحث عن حلاق ومكان استحمام. سلّم صياد العبيد الجرائد ونشرات الهاريين التي جمعها من نائب السجن إلى هومر. «سأخذ كورا لتناول العشاء»، قال ريدجواي، وقادها نحو الضوضاء. ألقى هومر بفستانها القدر في المزراب، وتسربّ الدم الجاف إلى الطين.

كانت الأحذية الخشبية تؤلمها. لم يغير ريدجواي مشيته ليوكب وتيرة كورا المعيقة، سار أمامها دون التفكير في أنها قد تهرب. فأغلالها أشبه بجرس البقرة. لم يعرها بيض تينيسي أي اهتمام. الشخص الوحيد الذي لاحظ وجودها كان شابًا زنجيًا يقف قبالة جدار إسطنبول. ومن مظهره عرفت أنه حرّ، حيث كان يرتدي سروالًا رماديًا مخططًا وسترة جلدية. شاهدها وهي تتحرك كما كانت تشاهد الزنوج المكبلين على الطريق من مزرعة راندال. أن ترى الأغلال على شخص آخر فتسعد أنها ليست عليك - الحظ الجيد المسموح به للملونين يحدّده مدى سوء ما يمكن أن يحدث في أي لحظة. وإذا اجتمعت عينك مع ملوّن آخر فيجب أن تشيحا ببصركما سريعًا. لكن هذا الرجل لم يفعل ذلك. بل أومأ لها قبل أن يراه المازّة.

كانت كورا قد رأت حانة سام في كارولينا الشمالية من الداخل لكنها لم تتجاوز العتبة أبدًا. حتى لو بدت غريبة في وسطهم، فنظرة واحدة من ريدجواي جعلت الجميع يعود إلى شؤونه الخاصة. لف الرجل البدين الذي يقف عند البار سيجارة وأخذ يحدق في الجزء الخلفي من رأس ريدجواي.

قادها ريدجواي إلى طاولة متهاكة قبالة الجدار الخلفي. ارتفعت رائحة اللحم المطهي فوق رائحة البيرة القديمة التي امتصتها ألواح الأرضية والجدران والسقف. كانت الفتاة التي تخدمهم ذات جدلية طويلة وأكتاف عريضة وأذرع مفتولة بسبب قَطْف القطن. طلب ريدجواي الطعام.

"لم يكن الحذاء خيارى الأول"، أخبر كورا. «لكن الفستان يناسبك.»
"إنه نظيف"، قالت كورا.

"لا يمكننا ترك كورا العزيزة تبدو مثل متجر جزّار". كان يقصد أن يُثير ردّ فعل. رفضت كورا. من الحانة المجاورة جاء عزف بيانو. بدا وكأن راكوثًا يركض جيئةً وذهابًا، ويهرس المفاتيح. "لم تسألني ولا مرة عن شريكك طوال هذا الوقت"، قال ريدجواي. «سيزر»

هل وصلت أخباره إلى صحف كارولاينا الشمالية؟ كان يريد تقديم أداء مسرحي إذن، مثل مسابقات ليالي الجمعة في الحديقة. لقد ألبسها لأجل ليلة في المسرح. انتظرتَه يُكمل حديثه.

"الذهاب إلى كارولاينا الجنوبية أمر غريب للغاية"، قال ريدجواي. بعد نظامهم الجديد. كان قد حصل على عددٍ من المباحج هناك في الأيام الخوالي. لكن الأيام الخوالي ليست بعيدة جدًا. لأنه برغم الحديث عن رفع الزنبي وتمدّن الهمجيّ، ما زالت كارولاينا الجنوبية المكان الجائع نفسه دائمًا.

قدّمت الخادمة خبزًا وطاسات مليئة بلحم البقر وحساء لبطاطس. همس لها ريدجواي بينما ينظر إلى كورا بشيء لم تستطع سماعه. ضحكت الفتاة. أدركت كورا أنه كان ثملًا.

شرب ريدجواي جرعات كبيرة. «ذهبنا إلى المصنع مع نهاية مناوبته. تسلل الخوف إلى قلوب أولئك الملونيين العجائز عندما ظنوا أننا نسعى وراء أحدهم. في البداية، لم تكن هناك ضجة كبيرة. تم القبض على هارب آخر. ثم انتشرت أنباء أن سيزر كان مطلوبًا بسبب قتله صبيًا صغيرًا»

"ليس صغيرًا"، قالت كورا.

أكمل ريدجواي. «لقد اقتحموا السجن. وكي أكون صادقًا، فإنّ

الضابط هو من فتح لهم الباب، لكن هذا لم يكن دراماتيكيًا مثل الحدث التالي. اقتحموا السجن ومزقوا جسده إلى قطع صغيرة. شعب كارولاينا الجنوبية المتحضر بمدارسه وشركات ائتمانه".

عندما أخبرها عمًا حدث مع لوفي انهارت أمامه. لكن ليس هذه المرة. كانت مستعدة - أشرفت عيناه عندما كان يروي الجزء المتعلق بطريقة قتله الوحشية. فقد كانت تعرف منذ فترة طويلة أن سيزر مات. لا حاجة للسؤال عن مصيره. تبدّأ لها الأمر ذات ليلة في العلية مثل شرارة، حقيقة صغيرة وبسيطة: سيزر لم ينج. لم يكن هناك في الشمال يرتدي بذلة جديدة، وأحذية جديدة، وابتسامة جديدة. جلست كورا في الظلام على العوارض الخشبية وفهمت أنها أصبحت وحدها مرة أخرى. لقد أمسكوا به. كانت قد انتهت من الحداد عليه عندما جاء ريدجواي يطرق باب مارتن.

التقط ريدجواي قطعة غضروف بقريّ من فمه. «على أية حال جنيتُ بعض المال من اعتقاله، وأعدت صبيًا آخر إلى سيده في الطريق. لقد ربحت في النهاية».

"أنت تركض مثل ملوّن عجوز خلف أموال راندال"، قالت كورا. وضع ريدجواي يده الكبيرة على الطاولة فمالت إلى جانبها. تحرك الحساء على حافة الطاسات. «يجب أن يصلحوا هذه الطاولة»، قال. كان الحساء متكثلاً بسبب كثافة الطحين. هرست كورا الكتل بلسانها بالطريقة التي كانت تفعل عندما تُعدّ إحدى مساعدات أليس الطعام بدلاً عنها. ومن خلال الجدار لعب عازف البيانو أغنية متفائلة. وانطلق زوجان مخموران نحو الباب الآخر للرقص.

"لم يُقتل جاسبر من قبل الغوغاء"، قالت كورا. "هناك نفقات غير

متوقعة دائمًا."

قال ريدجواي. «لن أحصل على تعويض عن جميع المواد الغذائية التي قدّمتهأ له."

"أنت تبحث عن أسباب وحسب"، قالت كورا. "وتسمّي الأشياء بأسماء أخرى كما لو أن هذا يغير حالتها. لكن ذلك لا يصنع حقيقة. لقد قتلت جاسبر بدم بارد».

"كانت هذه مسألة شخصية"، اعترف ريدجواي، "ليس هذا ما أتحدث عنه هنا. أنت وصديقك قتلتما صبيًا. ولديك مبرراتك الخاصة".
"كنت أريد الهرب. هذا كل ما أتحدث عنه، النجاة".

"هل تشعرين بالسوء حيال ذلك؟"

كانت وفاة الصبيّ إحدى تعقيدات هروبها، مثل غياب القمر الكامل أو فقدانها الأسبقية بسبب اكتشاف غياب لوفي عن مقصورتها. لكن المصارع كانت تتأرجح داخلها ورأت الصبي يرتجف على سريرته، ووالدته تبكي على قبره. كانت كورا حزينة لأجله أيضًا، دون معرفة ذلك. شخص آخر خسر حياته في هذه المغامرة المتعلقة بالعبد والسيد. نقلت الصبيّ من القائمة التي كان فيها وحيّدًا وسجّلته تحت أسماء مارتن وإثيل، على الرغم من أنها لا تعرف اسمه، فدعته (X) كما كانت توقّع اسمها قبل أن تتعلم الكتابة.

ومع ذلك. أخبرت ريدجواي، «لا».

"بالطبع لا تفعلين. من الأفضل أن تشعرني بالسوء لأجل أحد الحقول المحروقة تلك، أو اللحم الذي يسبح في حساءنا. يقوم المرء بما هو مطلوب للنجاة وحسب،" ثم مسح شفّيته. «لكن شكواك حقيقية تمامًا فنحن نخلق كل الأحاديث لإخفاء أشياء معينة. كما هو الحال

مع صحف الوقت الحاضر، حيث جميع الرجال الأذكيا يتحدثون عن القنر كما لو كان فكرة جديدة! أنت لا تعرفين ما أتحدث عنه، أليس كذلك؟» سأله ريدجواي.

تراجعت كورا في مقعدها. «مزيد من الكلمات لتجميل الأشياء. الأمر يعني أخذ ما هو لك، ما هو ملكك، مهما كانت ماهيته. يأخذ الجميع المكان المخصص له للسماح لك بأخذ مكانك. سواء كانوا هنودًا أو أفارقة، يتخلون عن أنفسهم، يعطون أنفسهم، حتى تتمكن من الحصول على ما هو حق لنا. حتى فرنسا وضعت جانبًا مطالباتها الإقليمية. البريطانيون والإسبان انسلوا بعيدًا».

"لقد أحب والدي حديثه الهندي عن الروح العظيمة"، قال ريدجواي. «بعد كل هذه السنوات، أفضل الروح الأمريكية، تلك التي دعتنا من العالم القديم إلى الجديد، لنقهر ونبني حضارة وتدمير ما يحتاج إلى تدميره. لرفع الأعراق الأقل. وفي حال لم ترتفع، يتم إخضاعها. وإذا لم تخضع، تتم إبادتها. شكل مصيرنا عن طريق وصفة إلهية - إنها الحتمية الأمريكية».

"أحتاج الذهاب إلى الحمام"، قالت كورا. ضم زوايا فمه. وأومأ لها بأن تمشي أمامه. كانت الخطوات إلى الزقاق الخلفي زلقة مع انتشار القيء فأمسك كوعها ليثبتها. إغلاق الباب الخارجي وانتظاره في الخارج كانت المتعة التي انتظرتها منذ فترة طويلة.

واصل ريدجواي حديثه. «خذي أمك على سبيل المثال»، قال صياد العبيد. «مايل. سُرقت من سيدها بواسطة بيض مضللين وأفراد ملونين في مؤامرة جنائية. بقيتُ أبحث عنها طوال الوقت، قلبتُ بوسطن ونيويورك رأسًا على عقب، كل المستوطنات الملونة. سيراكيوز.

نورثامبتون. إنها في كندا، تضحك على راندال وعليّ. أعتبر الأمر إهانة شخصية. لهذا السبب اشتريت لك هذا الفستان. لمساعدتي على تصوّرها هديةً لسيدها".

كان يكره والدتها بقدر ما فعلت هي. ذلك، إضافة إلى أنهما تحملان العينين نفسيهما في رأسيهما، عنت أن بين كورا وريدجواي أمورًا مشتركة.

سكت ريدجواي - كان هناك شخص ثمل يحتاج استعمال المرحاض، لكنه زجره بعيدًا. «لقد فررت عشرة أشهر»، قال. «وهذا مهين بما فيه الكفاية. أنت وأمك سلاله يتوجّب إخمادها. لقد قضينا أسبوعًا معًا وأنت مربوطة بأغلال، لكنك تجادليني رغم ذلك دون نهاية حتى وأنت في طريقك إلى استقبال دمويّ. يجب على لوي مناهضة العبودية بأن يعرض نوعك هذا من أجل إلقاء الخُطب على الناس البيض الذين ليست لديهم فكرة عن كيف يعمل العالم".

كان صيّد العبيد مخطئًا. لو أنها أكملت نحو الشمال لكانت اختفت في حياة أخرى خارج شروطهم. مثل والدتها. وهو الشيء الوحيد الذي نقلته المرأة إليها.

قال ريدجواي «نحن نؤدي دورنا، العبيد وصيادو العبيد، السيّد ورئيس الملونين، الوافدون الجدد يتدفقون إلى المرافق والسياسيون والضباط والصحف والأمهات يربّون أبناء أقوياء. أمثالك أنت وأمك هم الأفضل في عرقك. تم عزل الضعفاء من قبائلكم، وماتوا في سفن العبيد، ماتوا بسبب الجدريّ الأوروبي، وفي الحقول وهم يقطفون القطن ونبات النيلي. أنتم تحتاجون لأن تكونوا أقوياء للنجاة خلال العمل ولجعلنا نصبح أعظم. نحن نسمن الخنازير، ليس لأننا نحب ذلك لكن لأننا

بحاجة الخنازير للبقاء على قيد الحياة. لكن لا يمكن أن نسمح لكم أن تصبحوا أذكيا جدًا. لا يمكن أن نسمح لكم أن تصبحوا لائقين جدًا فبدلك ستفوقون علينا".

قضت كورا حاجتها واختارت نشره حول هارب بين كومة الورق لمسح مؤخرتها. ثم انتظرت. مهلة هزيلة، لكنها تخصها.

"لابد أنك سمعت اسمي عندما كنت فتاة صغيرة"، قال. «اسم العقاب، الاسم الذي يتبع كل خطوة هارب وكل فكرة هروب. فمع كل عبد أعيده إلى المنزل، يتخلى عشرون آخرون عن مخططات فرارهم. أنا فكرة النظام. العبد الذي يختفي - هو فكرة الأمل أيضًا. ولو تراجعت عما أفعله فإن عبدًا في المزرعة القادمة ستراوده فكرة الفرار. وإذا سمحنا بذلك، فإننا نقبل الخلل حتمًا. وأنا أرفض ذلك".

جاءت الموسيقى من الباب المجاور بطيئة الآن. جاء الأزواج وهم يمسكون بعضهم بعضًا للرقص. الرقص ببطء مع شخص آخر هو المحادثة الحقيقية، وليس كل تلك الكلمات. كانت تعلم ذلك، على الرغم من أنها لم ترقص بهذه الطريقة مع شخص آخر ورفضت طلب سيزر عندما سألها. الشخص الوحيد الذي مد لها يده وقال "اقتربي أكثر". فكّرت كورا، ربما كل ما قاله صياد العبيد كان صحيحًا ومبررًا، وأبناء حام كانوا ملعونين فعلاً والأسياذ ينفذون إرادة الرب. وربما كان ريدجواي مجرد رجل يتحدث إلى باب خارجي، في انتظار شخص يمسح مؤخرته في الداخل.

عادت كورا وريدجواي إلى العربة ووجدوا هومر يفرك إبهامه الصغير على اللجام بينما يحتسي بوسمان الويسكي من زجاجة. «هذه المدينة مريضة»، قال بوسيمان. «أستطيع أن أشم رائحة المرض». قادهم

الشاب الصغير خارج إلى المدينة وشاركهم خيبة أمله. بدا أن الحلاقة والاستحمام قد سارا بشكل جيد. فقد بدا وجهه بريئاً تقريباً، لكنه لم يتمكن من إظهار رجولته في الماخور. «كانت السيّدة تعرق مثل خنزير وكنت أعرف أن لديها حقى، هي وعاهراتها». سمح له ريدجواي بأن يقرّر المكان المناسب للتخميم.

كانت قد نامت فترة قصيرة عندما تسلّل بوسمان ووضع يده فوق فمها. كانت مستعدّة.

وضع بوسمان أصابعه على شفاهها. أمأت كورا بقدر ما سمحت لها قبضته: لن تصرخ. يمكنها أن تصدر الآن ضجة وتوقظ ريدجواي؛ وسوف يُعطيه بوسمان بعض الأعذار وستكون تلك نهاية الأمر. لكنها فكرت في هذه اللحظة أيّاماً، عندما سيسمح بوسمان لغريزته بالتحكم فيه. كان ثملاً للغاية أكثر من كلّ المرات السابقة منذ غادروا كارولينا الشمالية. كان قد أثنى على فستانها عندما توقفوا سابقاً. عدلت كورا جلستها. لو استطاعت إقناعه بأن يفكّ أغلالها سيكون ذلك جيّداً، لأن ليلة مظلمة كهذه خلّقت للهرب.

شخر هومر بشدة. سحب بوسمان أغلالها من الحلقة الحديدية برفق حتى لا تصدر ضجة كبيرة.

فك بوسمان كاحليها وأرخی أغلال معصمها لتخفيف ضجّتها. نزل أولاً ومن ثم ساعد كورا. كان بإمكانها تمييز الطريق بضغّ ياردات فقط لأن الظلام كان دامساً. ضرب ريدجواي بوسمان وأسقطه بشدة على الأرض وبدأ يركله. حاول بوسمان الدفاع عن نفسه لكن ريدجواي ركله في فمه. كادت كورا أن تركض. كادت أن تفعل ذلك. لكن سرعة العنف ودمويّته أجفلتها. أخافها ريدجواي. عندما جاء هومر إلى

الجزء الخلفي من العربة وهو يحمل فانوسًا وكشف وجهه ريدجواي، كان صبياد العبيد يحدّق في وجهها بغضب عارم. كان بإمكانها الهرب لكن الفرصة ضاعت، وبالنظر إلى وجهه فقد كان مرتاحًا.

"ما الذي ستفعله الآن يا ريدجواي؟" بكى بوسيمان.

كان يتكئ على عجلة العربة ليدعم جسده. نظر إلى الدم على يديه. قُطعت قلاذته وبدت الأذان وهي ملقاة على الأرض وكأن التراب يرخي سمعه. «ريدجواي المجنون، يفعل ما يشاء. أنا آخر من تبقى. وسيتبقى هومر فقط لتضربه عندما أذهب»، قال. "وأعتقد أنه سيحب ذلك". ضحك هومر. وأحضر أغلال كورا من العربة.

فرك ريدجواي أصابع يديه، وتنفس بصعوبة. «إنه ثوب جميل»، قال بوسيمان. وسحب سنًا من فمه. «سيكون هناك مزيد من الأسنان إذا تحرك واحد منكم»، قال الرجل. واقترب ثلاثهم من ضوء الفانوس. كان المتحدث هو الشاب الزنجي الذي رآته في المدينة وأوما لها. لم يكن ينظر إليها الآن أثناء تفحصه ريدجواي. عكست نظاراته المؤطرة توهج الفانوس، كما لو أن اللهب يحترق داخله. وكان مسدسه يتحول بين الرجلين الأبيضين مثل عصا التنقيب.

ظهر رجل آخر يحمل بندقية. طويل القامة قوي البنية، يرتدي ملابس عمل ثقيلة. كان يحمل وجهًا عريضًا وشعرًا طويلًا بتي اللون مرجلاً بشكل دائري فبدا مثل أسد. دلّت وقفة الرجل أنه لا يحب الأوامر، والجرأة في عينيه لم تكن جرأة عبد، لم تكن وقفته عاجزة، بل بدت كحقيقة صعبة. لوح الرجل الثالث بسكين. كان جسده يرتعد بتوتر، وملأت أنفاسه المتثاقلة صوت الليلة بين حديث زميليه. ميزت كورا طريقته. كانت طريقة هارب غير متأكد من المنعطف الجديد في هروبه.

رأتها من قبل في سيزر، وفي أجساد القادمين الجدد إلى المهاجع المشتركة، واختبرتها في نفسها مرات عدّة. وجّه الشاب السكين باتجاه هومر. لم تكن قد رأت رجالاً ملونين يحملون بنادقاً من قبل. أدهشها المشهد، فقد كانت فكرة جديدة لا يتسع عقلها لاستيعابها. «هل أنتم تائهون أيها الفتية؟» قال ريدجواي. لم يكن يحمل سلاحاً. «نعم تائهون في كرهنا لتينيسي ورغبتنا في العودة إلى المنزل»، قال القائد. «أنت تبدو تائهاً أيضًا».

كخّ بوسمان وتبادل نظرة مع ريدجواي. وقف وتشنّج. واتّجهت البندقيتان صوبه. قال القائد «سنكمل طريقنا لكننا فكّرنا بدءاً في سؤال السيّدة عمّا إذا رغبت في الدّهاب معنا. نحن نشكّل رفقة أفضل».

"من أين أنتم؟" قال ريدجواي. قالها بطريقة جعلت كورا تشعر أنه يخطّط لمكيدة.

"من كلّ مكان"، قال الرّجل. كان الشّمال يسكن صوته، كانت لهجته تشبه الشمال مثل سيزر. «لكننا وجدنا بعضنا وصرنا نعمل سوياً الآن لذا إهدأ يا سيد ريدجواي». حرّك رأسه ببطء. «لقد سمعته يدعوك كورا. هل هذا اسمك؟» أوّمأت. «إنها كورا»، قال ريدجواي. «وأنتم تعرفوني. وهذا بوسمان وهذا هومر».

رمى هومر الفانوس على الرّجل الذي يحمل السكين فور نطق اسمه. لم ينكسر زجاج الفانوس إلا بعد أن ارتد عن صدر الرّجل ولامس الأرض. فانتشرت النيران. أطلق القائد النار على ريدجواي وأخطأه. توجّه صائد العبيد نحوه وتدحرجا على الأرض. كان الرّجل صاحب الشعر البنيّ يصوّب بشكل أفضل. طار بوسمان إلى الورااء بينما وردة

سوداء تفتتح فجأة في بطنه .

ركض هومر ليُحضر مسدسًا فتبعه الرجل الذي يحمل بندقية. سقطت قُبعة الفتى في النار. كان ريدجواي وخصمه يتصارعان على الأرض وهما ينخران ويصرخان. تصارعا حتى حافة الزيت المشتعل. عاود كورا الخوف الذي راودها منذ دقائق - كان ريدجواي قد درّبها جيدًا. تفوّق ريدجواي على خصمه وثبته على الأرض .

يمكنها أن تركض . لم تكن هناك أغلال سوى على رسغها .

قفزت كورا على ظهر ريدجواي وخنقته بأغلالها وضغطتها بشدّة على جلده . أتت صرخاتها من مكان عميق داخل روحها . جذبت بعنف وضغطت . ألقى صائد العبيد ثقلَ جسده كلّه كي يرميها على الأرض . وعندما تمكن من إلقتها بعيدًا كان الفتى قد استعاد مسدسه مجددًا . ساعد الهارب كورا على الوقوف على قدميها مجددًا ، وقال ، «من هو ذاك الفتى؟» لم يعد هومر والرجل الذي يحمل البندقية . أمر القائد الرّجل بالذهاب لإلقاء نظرة بينما يُبقي المسدس موجّهًا نحو ريدجواي . فرك صائد العبيد أصابعه السميكة في عنقه المصاب . لم ينظر إلى كورا ، فشعرت بالخوف مرة أخرى . ارتعش بوسيمان ، وتمتم قائلاً «سوف ينظر في روحك ويرى ما فعلته أيها الأثم...» . كان ضوء الحريق متقلّبًا ، ولكنهم لم يواجهوا صعوبة في رؤية بركة الدم الكبيرة .

"سوف يترّف حتى الموت" ، قال ريدجواي . «إنها بلد حرّة» ، قال القائد .
"إنها ليست ملكيتك" ، قال ريدجواي .

"هذا ما يقوله القانون . قانون البيض . لكن هناك قوانين أخرى" .
تحدّث مع كورا بنبرة أكثر نعومة . «لو أردت أنستي يمكنكني أن أطلق

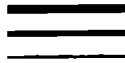
النار عليه لأجلك،" كان وجهه هادئًا.

أرادت كل شيء سيئ لريدجواي وبوسيمان. وهو مر؟ لم تعرف ما أرادته قلبها للفتى الأسود الغريب، والذي بدا مثل جاسوس من بلادٍ أخرى. قال الرجل قبل أن تتمكن من الحديث، «رغم أننا نفضل تكبيلهما». رفعت كورا نظاراته عن الأرض ونظفتها بكمّها وانتظر ثلاثتهم. عاد رفاقه خاليّ الوفاض.

ابتسم ريدجواي بينما يمرّ الرجل أغلاله خلال الحلقة الدائرية في أرضية العربية.

"ذلك الفتى الصّغير مخادع"، قال القائد. «يمكنني تمييز ذلك. يجب علينا المضيّ قدمًا». نظر إلى كورا. «هل ستأتين معنا؟» ركلت كورا ريدجواي ثلاث مرات على وجهه بحذاءها الخشبيّ الجديد. فكّرت أن العالم إذا لم يتحرّك لمعاقبة الشيطان فلا يجب على أحد إيقافها. قالت لاحقًا أن الثلاث ركلات كانت من أجل ثلاث جرائم قتل: لوفي، وسيزر وجاسبر. وذلك كي تجعلهم يعيشون مجددًا ولو وقتًا قليلًا في كلماتها. لكن ذلك لم يكن حقيقيًا. فقد كانت تلك الركلات كلّها من أجلها.

سیزر



سمحت إثارة عيد ميلاد جوكي لسيزر بزيارة ملجئه الوحيد داخل أرض راندال. مبنى المدرسة المتداعي بجانب الأسطبلات، الذي كان خاليًا. في الليل يتسلل العشاق إلى هناك، لكنه لم يذهب إلى هناك ليلاً - لأن المكان كان يحتاج إلى الإضاءة، لكنه لم يكن ليخطر بإضاءة شمعة. ذهب إلى مبنى المدرسة لقراءة كتاب أعطاه إياه فليتش بعد اعتراض كبير؛ كان يذهب عندما يشعر بالضيق؛ ليبيكي على أعبائه؛ كان يذهب لمشاهدة العبيد الآخرين يتحركون في المزرعة. فمن النافذة بدا وكأنه لم يكن واحدًا من قبيلتهم المنحوسة، بل شخصًا يراقب تجارتهم، كما يمكن للمرء أن يراقب الغرياء وهم يمشون قبالة بابه الأمامي. في مبنى المدرسة كان كما لو أنه لم يكن هناك على الإطلاق. مستعبد. خائف. محكوم عليه بالإعدام.

إذا أتى مخططه بثماره، فستكون هذه آخر مرة يحتفل فيها بعيد ميلاد جوكي. بمشيئة الرب. كان يعرف أن الرجل قادرٌ على الإعلان عن عيد ميلاد آخر في الشهر المقبل. كان العبيد يتهللون بشدة من الملمات الصغيرة التي يحصلون عليها سوياً في مزرعة راندال. عيد ميلاد مخترع، رقصة تتلو الكدّ في العمل على ضوء قمر الحصاد. في فيرجينيا كانت الاحتفالات مذهلة. كان سيزر وعائلته يقودون عربة الأرملة إلى مزارع

الأحرار، يزورون أقاربهم في المقاطعة للاحتفال بأعياد الرب وعيد رأس السنة الميلادية. لحم الخنازير وشرائح لحم الغزال، فطائر الزنجبيل وكعك الذرة. والألعاب التي تستمر طوال اليوم حتى ينهار سيزر ورفاقه من التعب. كان السادة في فرجينيا يبقون بعيدين خلال أيام المهرجان. كيف يمكن لعبيد راندال أن يستمتعوا حقًا بأنفسهم وذلك الوحش الغبيّ ينتظرهم في الهامش، مستعدّ للانقضاض؟ لم يكونوا يعرفون أعياد ميلادهم لذلك توجب عليهم أن يخترعوها. نصف هؤلاء الناس لا يعرفون أمهاتهم ولا آباءهم.

لقد وُلدتُ في الرابع عشر من أغسطس. اسم والدي ليلي جين. والدي جيروم. لا أعرف أين هم. من خلال نافذة مبنى المدرسة، بدت كورا وهي واقفة بين كوخين قديمين - تحوّل بياضهما إلى اللون الرمادي، وبهتتا مثل أولئك الذين ينامون داخلهما - بجانب الطفل المفضّل لديها في خطّ بداية السباق: تشيستر، الصبيّ الذي يملأ المكان ببهجة يحسد عليها. ومن الواضح أنه لم يتعرّض للضرب أبدًا.

أشاح الصبي رأسه خجلًا بسبب شيء قالته كورا. ابتسمت بسرعة. ابتسمت لتشيستر، وللوفي ولنساء كوخوا بإيجاز وكفاءة. يشبه ذلك رؤيتك لظلّ طائر على الأرض وعندما ترفع بصرك نحو السماء لا تجد شيئًا. كانت تقتصد في حصص إعاشتها، في كل شيء. لم يتحدث سيزر معها قط لكنه عرف الأمر. كان شيئًا محسوسًا: كانت تعرف قيمة تلك الأشياء الصغيرة التي تملكها. أفراحها، أرضها، كتلة القيقب السكري التي تجثم عليها مثل نسر. ذات ليلة كان يحتسي ويسكي الذرة مع مارتن في الدور العلوي من الحظيرة - لم يقل الصبي من أين حصل على الإبريق - عندما شرعا حديثًا عن نساء مزرعة راندال، اللاتي على

الأرجح سيسحقن وجهك على أئدائهن، وسيصرخن بصوت عالٍ حتى يسمعن الجميع. سأل سيزر عن كورا.

"لا تعبت مع واحدة من نساء الفرن أيها الزنجي" قال مارتن. "سوف يقطعن رجوليتك ويعددن منها حساء". أخبره القصة القديمة عن كورا وأرضها وبيت كلب بليك، وفكر سيزر، إنها تبدو محقّة. ثم قال مارتن إنها تحبّ التسلّل لترني مع حيوانات المستنقع، وأدرك سيزر أن جامع القطن هذا كان أكثر غباءً مما اعتقد.

لم تضمّ مزرعة راندال رجالاً يحملون الذكاء الكافي. المكان أفسدهم. كانوا يمزحون ويعملون بسرعة عندما تكون عيون الرؤساء عليهم، ويتصرفون بخشونة، لكن في الليل في الأكواخ كانوا يبكون، يصرخون من الكوايبس والذكريات البائسة. في كوخ سيزر، في الكوخ التالي، وفي كل قرية عبيد قريبة أو بعيدة. عندما ينتهي العمل، وعقوبات النهار، يبقى الليل ميداناً لوحدتهم ويأسهم الحقيقي.

بالبهتافات والصيحات - انتهى سباق آخر. وضعت كورا يديها على وركيها، وأمالت رأسها كما لو أنها تطارد لحناً يخبئ في الضوضاء. كيف بإمكانه نحت هذا المشهد في الخشب، والحفاظ على جمالها وقوتها، لأنه لم يكن يثق أنه لن يُفسده. كان القطف قد أفسد نعومة يديه ولم تعودا مناسبتين لعمل النّحت الدّقيق على الخشب. كيف سينحت منحدر خدّها، وشفاهها وهي تهمس. كانت ذراعاه ترتعشان في نهاية اليوم، وترتج عضلاته.

لقد كذبت عليهم تلك العجوز البيضاء! كان ينبغي أن يعيش مع والدته وأبيه في كوخهم، ويعمل في تدوير البراميل للتّجار أو التدرّب مع جرّفيّ آخر في المدينة. كان على يقين من أن آفاقه محدودة بسبب عرقه،

لكن سيزر نشأ وهو يؤمن بحريّة اختيار مصيره. «يمكنك أن تصبح ما تريد»، قال والده. «أيمكنني الذهاب إلى ريتشموند؟» بدت ريتشموند بعيدة ورائعة بحسب كل التقارير التي وردت حولها.

"حتى ريتشموند، إذا أردت". لكن المرأة العجوز كذبت والآن تقلّص مفترق طرقه إلى وجهة واحدة، موت بطيء في جورجيا، له ولعائلته بأكملها. كانت والدته رقيقة وحساسة ولم تُخلق لعمل الحقول، إنها امرأة أشدّ طيبة من أن تحتل قسوة المزرعة. سيتحمل والده فترة أطول، كان معتادًا على العمل، لكن ليس كثيرًا. المرأة العجوز دمرت عائلته على نحو شامل لدرجة أن ذلك لا يمكن أن يكون عرضيًا. لم يكن الأمر متعلقًا بجشع ابنة أخيها - فقد خدعتهم المرأة العجوز طوال الوقت. كانت تشدّ العقدة في كل مرّة تُجلسه في حضنها وتعلّمه كلمة.

تخيّل سيزر والده يقطع القصب في جحيم فلوريدا، ويحرق لحمه بينما ينحني على غلايات السكر المنصهر الكبيرة. تخيّل السوط وهو ينزل على ظهر والدته عندما تفشل في الحفاظ على الوتيرة المناسبة. ينكسر العنيد عندما لا ينحني، وقد قضت أسرته كثيرًا من الوقت مع البيض اللطفاء في الشمال. لطفاء لأنهم يرون أنه ليس من المناسب قتلك بسرعة. الشيء المختلف في الجنوب، أن الناس لم يكونوا صبورين في قتل الزوج. رأى ما ينتظر أمّه وأباه من خلال الرجال والنساء المشلولين في المزارع. ما الذي سيحدث له مع مرور الوقت. في الليل، كان على يقين أنهما ماتا؛ وفي ضوء النهار، كانا مشوهين وبالكدأ أحياء. وفي كلتا الحالتين كان وحده في العالم.

اقترب منها سيزر بعد انتهاء السباق. بالطبع أبعده. لم تكن تعرفه. قد تكون تلك مزحة، أو فخًا وضعه راندال بدافع الملل. كان الهرب

فكرة كبيرة جدًا - عليك التفكير فيها بعض الوقت، وتدوير الأمر في رأسك. استغرق الأمر سيزر أشهرًا لإدخالها في أفكاره، وكان بحاجة إلى تشجيع فليتشر لجعلها تتخمر. تحتاج شخصًا آخر لمساعدتك على طول الطريق. حتى لو لم تكن تعرف أنها ستوافق فقد عرف هو ذلك. أخبرها أنه يريد لها لجلب الحظ السعيد - فوالدتها هي الوحيدة التي تمكنت من الهرب. ربما يكون هذا خاطئًا وربما ستعتبره إهانة لشخص مثلها. فهي ليست قَدَم أرنبٍ لتحملها معك في الرحلة، بل هي القاطرة نفسها. لن يستطيع فعل ذلك دونها.

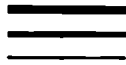
الحادث الرهيب في فقرة الرقص أثبت الأمر. أخبره أحد عبيد المنزل أن الإخوة كانوا يشربون في المنزل الكبير. اعتبر سيزر الأمر كطالع سيئ. عندما حمل الصبي الفانوس، وتبعه السادة، أصبح العنف مضمونًا. لم يتعرض تشيستر للضرب قط. لكنه تعرض له الآن، وغدًا سيجلد لأول مرة. لا مزيد من ألعاب الأطفال، السباقات والاختباء، سيسلك الدروب القادمة للعبيد. لم يبق أحد آخر في القرية بخطوة لمساعدة الصبي - كيف بإمكانهم فعل ذلك؟ لقد رأوا ذلك مئات المرات من قبل، كضحية أو شهود، وسيرونه مئات المرات أيضًا حتى يموتوا. لكن كورا فعلت. حَمَت الصبي بجسدها وتلقت الضربات بدلًا عنه. كانت ضالة تمامًا، بعيدة جدًا عن المسار كما لو أنها هربت بالفعل منذ فترة طويلة. بعد حادثة الضرب زار سيزر مبنى المدرسة للمرة الأولى خلال الليل. ليتمكن من حمل الكتاب في يديه فقط. ليتأكد من أنه ما يزال هناك، كتذكارة لفترة امتلك فيها كل الكتب التي أرادها، وكل الوقت لقراءتها.

ما الذي حلَّ برفاقي في القارب، وأولئك الذين هربوا على الصخرة، أو تركوا في السفينة، لا أعرف؛ لكنه استنتج أنهم ماتوا جميعًا. حذره فليتشر أن

هذا الكتاب سيتسبب في قتله. خبأ سيزر كتاب السفر في حفرة داخل مبنى المدرسة، ولفه بقطعتي خيش. أخبره صاحب المتجر أن ينتظر قليلاً ليتمكنوا من اتخاذ الاستعدادات لهروبه. من ثمّ يمكنه الحصول على أيّ كتاب يريده. لكن ما لم يقرأ سيكون عبداً. قبل الكتاب كان الشيء الوحيد الذي يقرأه هو المكتوب على كيس الأرز. واسم الشركة التي صنعت أغلالهم مطبوعاً في المعدن كوعد باستمرار الأمل.

قراءة صفحة هنا وهناك في ضوء الظهيرة الذهبي ساعدته على البقاء. جاب الرجل الأبيض في الكتاب والذي كان يُدعى غوليفر من خطرٍ إلى خطر، كل جزيرة جديدة كانت مأزقاً جديداً ليحلّه قبل أن يتمكن من العودة إلى دياره. تلك كانت مشكلة الرّجل الحقيقية، وليست الحضارات الوحشيّة والخارقة التي واجهها - ظل ينسى ما كان لديه. كان ذلك طنّيع البيض في جميع الأماكن: بينون مدرسة ويتركونها تتعفن، بينون منزلاً ثم يتشردون. إذا وجد سيزر الطريق إلى المنزل، فإنه لن يسافر مرة أخرى إلى الأبد. فدون ذلك يصبح عُرضة للتنقل من جزيرة مزعجة إلى أخرى، دون معرفة أين كان، وهكذا حتى ينتهي العالم. إلا إذا جاءت معه. فمع كورا، سيجد الطريق إلى المنزل.

إنديانا





مكافأة بقيمة 50 دولارًا

غادرت منزلي مساء الجمعة الموافق 26 سبتمبر حوالي الساعة 10 مساءً (دون أن يثير شيء غضبها) فتاة زنجية تدعى سوكي. تبلغ من العمر حوالي 28 عامًا، بشرتها فاتحة، عظام خديها عالية، رقيقة، ونظيفة جدًا في مظهرها. كانت ترتدي فستانًا مخططًا عندما غادرت. كانت سوكي مملوكة في الآونة الأخيرة من قبل المحترم ل. ب. بيرس. وانتمت سابقًا إلى ورثة وليام. م، المتوفي. في الوقت الحاضر (من مظهرها) هي عضو ملتزم في الكنيسة الميثودية في هذا المكان، ولا شك أنها معروفة لأغلبية الأعضاء.

جيمس أيكرويد

٤ أكتوبر



أصبحت الآن متخلفة في دروسها ويحيط بها أطفال متبرّمون. كانت كورا فخورة بالتقدم الذي أحرزته في قدرتها على القراءة في كارولينا الجنوبية وغرفة العليّة. البداية المتعثرة مع كل كلمة جديدة، وكل جملة غير معروفة لتناضل خلالها حرفاً بحرف. اعتبرت كلّ جولة في روزنامات دونالد بمثابة انتصار، لتعود دائماً إلى الصفحة الأولى لجولة أخرى.

كشفت فصول جورجينا الدراسية صغراً إنجازاتها. فهي لم تميّز إعلان الاستقلال في اليوم الذي انضمت فيه إلى دار الاجتماع. كان نُطق الأطفال نَصيراً وناضجاً، وشديد البُعد عن قراءة مايكل القاسية في مزرعة راندال. الآن تعيش موسيقى الكلمات، ويتأكد اللحن ذاته بينما يأخذ كل طفل دوره بجرأة وثقة. وقف الفتیان والفتيات أمام المقاعد، قلبوا الورق وهم يقرؤون الكلمات، وغنّوا وُعودَ الآباء المؤسسين.

بلغ عدد الطلاب الآخرين خمسة وعشرين بجانب كورا. أعفي صغار السن - الذين تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وسبع - من القراءة. كانوا يهمسون ويضجّون بين المقاعد حتى أسكتتهم جورجينا. لم تشارك كورا، كونها جديدة على الصف، سكّان المزرعة وطريقتهم في القيام بهذه الأمور. شعرت أنها بارزة، أكبر منهم جميعاً ومتأخرة كثيراً

مقارنة بهم. فهمت كورا لماذا بكى هوارد العجوز في مدرسة الأنسة هاندلر. لقد كان متطفلاً، مثل القوارض التي تمضغ خلال الجدار. رنّ أحد الطهاة الجرس، معلناً نهاية الدرس. سيعود الطلاب الأصغر بعد وجبة الطعام إلى دروسهم بينما يقوم الأكبر سنًا بأعمالهم الروتينية. في طريقهم للخروج من منزل الاجتماعات، أوقفت كورا جورجينا وقالت: «من المؤكد أنك علمت أولئك الزوج الصغار النطق الصحيح». نظرت المعلمة للتأكد من أن طلابها لم يسمعوا كورا. وقالت: «هنا نسميهم الأطفال». شعرت كورا بالخجل. أضافت بسرعة أنها لم تكن قادرة على معرفة معنى تلك الكلمة مطلقًا. هل كانوا يعرفون معنى كل تلك الكلمات الكبيرة في إعلان الاستقلال؟

كانت جورجينا من ديلاوير، تتحدث بالطريقة المزعجة لسيدات ديلاوير. التقت كورا عددًا قليلاً منهم في مزرعة فالنتين، ولم تهتم بهذه الخصلة الإقليمية، حتى لو كانوا يعرفون كيف يصنعون خبز فطيرة جيدة. قالت جورجينا أن الأطفال يفهمون ما يمكنهم فهمه. وما لا يفهمونه اليوم، قد يفهمونه غدًا. «الإعلان مثل خريطة. تثق في أنه صحيح، لكنك تتأكد فقط بعد خروجك واختبار ذلك بنفسك».

" هل تعتقدين ذلك؟" سألت كورا. ولم تعرف كيف تفسر كلام المعلمة من خلال تعابير وجهها.

مرت أربعة أشهر منذ أول حصّة حضرتها في الصّف. وقد انتهى موسم الحصاد. وصل أعضاء جدد إلى مزرعة فالنتين ولم تعد كورا المبتدئة التي تتلعثم بعد الآن. انضم رجلان في عمر كورا إلى الدروس في بيت الاجتماع، هاريون متحمسون وأكثر جهلاً منها. كانا يمرران أصابعهما على الكتب كما لو كانت الأشياء ستتحامق وتتفافز بطريقة سحرية.

عرفت كورا كيف تتعامل مع المكان. متى تعد وجبتها بنفسها لأن الطباخة التي تعمل في وردية اليوم سوف تلوث الحساء، ومتى تجلب شالاً لأن ليالي إنديانا أكثر برودة مما خبرته من قبل. وأين هي الأماكن الهادئة لتكون وحيدة؟

في هذه الأيام كانت كورا تجلس في الجزء الأمامي من الصف، ولم تعد تتذاكى - في فن الخط أو علم الحساب أو الخطابة - عندما تصوّبها جورجينا. كانتا صديقتين. تفانت جورجينا في النّميمة بحيث وفّرت الدروس تقاريراً مستمرة عما يحدث في المزارع. ذلك الرجل الضخم من فيرجينيا له مظهر مزعج، ألا تظنون ذلك؟ أكلت باتريشيا كل أقدام الخنازير عندما أدرنا ظهورنا. تحبّ النساء في ديلاوير مضغ العلكة، كان هذا شيئاً آخر.

في تلك الظهيرة، خرجت كورا حلماً رنّ الجرس. كانت تسكن في كوخ مع فتاة ووالدتها. تبلغ مولي من العمر عشر سنوات، عيناها لوزيتان، متحفظة وحذرة في عواطفها. لديها عدد من الأصدقاء لكنها فضلت البقاء خارج الدائرة. حفظت الفتاة جرّة خضراء في غرفتها من أجلكنوزها - الرخام، السّهام، مُدلاة دون وجه - كانت تستمتع أكثر بنشرها على أرضية الكوخ، والشعور ببرودة حجر الكوارتز الأزرق على خدها، بدل اللعب في الخارج.

هذا هو السبب في أن روتين حياتهم المتأخر أسعد كورا. تبدأ كورا في جدلٍ شعر الفتاة في الصباح عندما تغادر والدتها للعمل في وقت مبكر، وفي الأيام القليلة الماضية كانت مولي تمسك يدها بعد انتهاء الدوام المدرسي. شيء جديد يحدث بينهما. كانت مولي تسحبها، وتضغط بشدة على يدها، واستمتعت كورا بأن تتم قيادتها. لم يحاول شخص

صغير مصادقتها منذ تشيستر.

لم تُعد وجبة الظهيرة بسبب عشاء السبت الكبير في تلك الليلة، ودفعت الرائحة الطلاب إلى حُفرة الشواء. كان الرجال المسؤولون عن الشواء يطبخون الخنازير منذ منتصف الليل، وعمّت الرائحة كل أرجاء المزرعة. حلم كثير من المقيمين أنهم التهموا بالفعل تلك المأدبة الرائعة، لكنهم استيقظوا خائبين، فما زالت هناك عدة ساعات متبقية. انضمت كورا ومولي إلى المتفرجين الجوعى.

علقت عصاتان طويلتان على الفحم الخشبيّ الدخانيّ وثُبت عليهما خنزيران. كان جيبي هو المسؤول عن الحفرة. نشأ والده في جامايكا، ونقل إليه أسرار النار عند قبائل المارون. لمس جيبي اللحوم المحمّصة بأصابعه، وقلب الفحم، كان يطوف حول النار كمن يحاول تحجيم شريكٍ يُصارعه. كان واحدًا من أكبر سكان المزرعة سنًا، نشأ في السابق في كارولينا الشمالية وشهد المذابح، وكان يفضّل أن تذوب لحومه بنعومة بسبب فمه الخالي إلا من سنين فقط.

هز واحد من متدربيه إبريقًا من الخل والفلفل. ثم نادى فتاة صغيرة لتقوم بمسح الخليط بيديها على الجزء الداخلي من الخنزير. برزت الشقوق على الفحم. تصاعدت أعمدة بيضاء من الدخان أبعدت الحشْد مرّة أخرى واشتكت الفتاة. ستكون وجبة جيدة.

كان لدى كورا ومولي موعد في المنزل. يبعد المنزل مسافة قصيرة. مثلما هو حال معظم مباني المزرعة. الأكواخ القديمة تمّ تجميعها على الحافة الشرقية وبدا وكأنها بُنيّت على عجل قبل أن يعرفوا مدى امتداد حجم المجتمع. جاء الناس من جميع الأنحاء، وفضّل المزارعون ترتيبات

مختلفة للمساكن، وبالتالي جاءت الأكواخ بأشكال مختلفة. أحدثها - التي بناها الرّجال الآن بعد قطف الذرة - اتبعت نمطًا مماثلاً، مع غرف أكثر اتساعًا، لكن تم توزيعها على الأرض بعناية أكثر.

منذ زواج هارييت وانتقالها، أصبحت كورا ومولي وسيبيل الساكنات الوحيديات في كوخهن، وكنّ ينعنّ في الغرفتين قبالة غرفة المعيشة الرئيسية. عمومًا، يضم كل منزل ثلاث عائلات. ومن وقت لآخر يتشارك الزوار الجدد والوافدون غرفة كورا، لكن في معظم الأحيان تكون الأسرة الأخرى فارغة. غرفة خاصة بها. هدية مفاجئة أخرى من مزرعة فالنتين بعد كل السجنون التي عاشت فيها.

كانت سيبيل وابنتها فخورتين بمنزلهما. وقامتا بدهنه من الخارج باللون الوردى. جعل الطلاء الأصفر ذو الخطوط البيضاء الغرفة الأمامية تُشرق في ضوء الشمس، وقد زينتاهما بالزهور البرية في الصيف، وظلت الغرفة ممتعة في الخريف مع أكاليل من الأوراق الحمراء والذهبية. هناك ستائر أرجوانية مزخرفة على النوافذ. قام اثنان من التجارين الذين يعيشان في المزرعة بتنجيد الأثاث مرارًا وتكرارًا - عاملا سيبيل بلطف وأبقيا أيديهما مشغولة ليصرفا تفكيرهما عن لامبالتهما. صبغت سيبيل بعض أكياس الخيش لصنع سجادة، كانت كورا تستلقي عليها عندما يداهما الصداع أحيانًا. كان النسيم لطيفًا في الغرفة الأمامية ويخفّف من آلام الصداع.

نادت مولي والدتها عندما وصلوا الشرفة. طغت رائحة نبات الفشاغ الذي غلّته سيبيل لإحدى مقوياتها على رائحة اللحوم المشوية. وتوجهت كورا مباشرة إلى الكرسي الهزاز، الذي كانت تحتله منذ يومها الأول. لم تمنع مولي وسيبيل. كان يُصدر صريرًا دائمًا، وقد صنعه أحد

عشاق سيبييل الأقل موهبة. أغفلت سيبييل أنه ربما جعل صوته عاليًا عن قصد، لتذكيرها بتفانيه.

ظهرت سيبييل من الخلف، ووضعت يديها على مئزرها. «يعمل جيبي بجدّ هناك»، قالت، وهزّت رأسها بجوع. «أنا متشوقة جدًّا»، قالت مولي. فتحت الفتاة الصندوق الخشبي بجانب الموقد ليبدأوا في تضريب اللحف⁽¹²⁾. كانت مصممة على الانتهاء من آخر مشاريعها قبل موعد العشاء.

شرعن في الأمر. منذ هروب مابل لم تمسك كورا إبرةً ما عدا من أجل عمل إصلاحات بسيطة. حاولت بعض نساء القرن تعليمها لكن دون جدوى. واصلت كورا النظر إلى رفيقتها للحصول على توجيهات مثلما فعلت في الفصول الدراسية. قصّت شكل طائر الكاردينال؛ وبدا مثل شيء تقالت عليه الكلاب. شجّعها سيبييل ومولي - حاولتا جرّها إلى هوايتهما - لكن اللحاف كان سيئًا. وجدت البراغيث ما ستضرب به، قالت بإصرار. تجعدت الفراغات بين الخيوط، واهترأت العُقَد عند الزوايا. فضح اللحاف التواء تفكيرها: ووضعت على سارية كأنه علم وطنها البري. أرادت أن تضعه جانبًا لكن سيبييل منعتها. «ستبدأين شيئًا آخر عندما تنتهين من هذا»، قالت سيبييل. «لكن هذا لم ينته بعد».

لم تحتج كورا إلى نصيحة بشأن فضائل المثابرة. لكنها التقطت المخلوق الذي صنعته في حضنها وبدأت من حيث توقفت. كانت سيبييل تكبرها باثني عشر عامًا. جعلتها ثيابها تبدو ممتلئة قليلًا، وعرفت كورا

(12) تُعد عملية تضريب اللحف إحدى طرق الخياطة التي تُستخدَم في ضم طبقتين أو أكثر من مادةٍ ما معًا لتكوين مادة مُبطّنة أكثر سُمكًا. ويُطلق على أي شخص يعمل في هذا المجال اسم صانع اللُحف. ويمكن تضريب اللُحف يدويًا أو بواسطة آلة خياطة أو ماكينة تضريب الذراع الطويلة المخصّصة لذلك الشّأن. م.

أن الوقت الذي قضته المرأة بعيدًا عن عمل المزارع أفادها: حياتها الجديدة تتطلب نوعًا مختلفًا من القوة. كانت دقيقة في وقفها وتمشي بسرعة، بالطريقة نفسها التي يمشي بها من اعتادوا الانحناء وقرروا عدم الانحناء مرة أخرى. أخبرت سيبييل كورا أن سيدها كان رجلًا فظيئًا، وهو مزارع تبغ يتنافس مع المزارعين المجاورين كل عام على أكبر محصول. وقد دفعه عدم نجاح مسعاه إلى تعمّد الأذى. «كان يجعلنا نكدّ في العمل»، قالت، وانجرفت أفكارها إلى البؤس القديم. أتت مولي صاحبة وجلست في حضنها.

عملن بصمت فترةً من الوقت. ومن جهة حُفرة الشواء تصاعدت الهتافات، كما يحدث في كل مرة يقَلَّبون فيها الخنازير على النار. كانت كورا مشتتة جدًّا لتصحيح أخطائها في اللحاف. المسرح الصامت لمحبة سيبييل ومولي كان يحركها على الدوام. الطريقة التي تطلب بها الطفلة المساعدة دون كلام، وإشارات الأم وإيماءاتها لطفلتها لتصحيح الخطأ. لم تكن كورا معتادة على كوخ هادئ - في مزرعة راندال هناك دائمًا صرخة أو بكاء أو تهيدة تكسر اللحظة - وبالتأكيد لم تكن معتادة على هذا الأداء الأموميّ.

هربت سيبييل مع مولي عندما كان عمر ابنتها عامين فقط، حملت طفلتها على طول الطريق. وردت شائعات من المنزل الكبير أن سيدهن يريد التخلص من بعض الممتلكات لتغطية ديون المحصول المخيب للآمال. كانت سيبييل ستعرض في مزادٍ عام. وفي تلك الليلة غادرت - منحها القمر المكتمل مباركتته وإرشاده خلال الغابة. «لم تُصدر مولي أي صوت»، قالت سيبييل. «كانت تعرف ما نقوم به». على بُعد ثلاثة أميال على حدود بنسلفانيا خاطرتنا بزيارة كوخ مُزارعٍ ملوّن. قام الرجل

بإطعامهما، وجلب اللعب للفتاة الصغيرة، ومن خلال سلسلة وسطاء، اتصلوا بالسكة الحديدية. بعد وقفة قصيرة في ورشستر والعمل في طاحونة، أكملت سيبيل ومولي طريقهما إلى إنديانا. فقد انتشرت أخبار مزرعة فالنتين.

مر كثير من الهاربين خلال مزرعة فالنتين - لم يكن بالإمكان معرفة عدد الذين قضوا الوقت هناك. هل التقت سيبيل بامرأة من جورجيا؟ سألتها كورا ذات مساء. كانت كورا معهم منذ بضعة أسابيع. لم تكن تنام ليلاً بشكل متواصل، لكنها اكتسبت بعض الوزن الذي خسرت في العلية تلك. أوقف الذباب الجاف ضوضاءه، وترك مكاناً في الليلة لسؤال. امرأة من جورجيا، تستخدم اسم مابل، وربما لا؟ هزّت سيبيل رأسها بالنفي.

بالطبع لم تكن لتستخدم هذا الاسم. لأن المرأة التي ترك ابنتها خلفها تصبح شخصاً آخر لتُخفي عارها. لكن عاجلاً أم آجلاً ستسأل كورا جميع من في المزرعة، كانت المزرعة بمثابة محطتها الخاصة لأنها تجذب الذين يرتحلون بين الأماكن. سألت كورا أولئك الذين كانوا في مزرعة فالنتين منذ سنوات، سألت كل الأشخاص الجدد، سألت الزوّار الذين جاءوا إلى المزرعة لمعرفة ما إذا كان ما سمعوه صحيحاً. الرجال والنساء الأحرار، الهاربون الذين بقوا وأولئك الذين انتقلوا. سألتهم في حقل الذرة بين أغاني العمل، وهي جالسة في الجزء الخلفي من عربة في الطريق إلى المدينة: عيونها رمادية، لديها ندبة في الجزء الخلفي من يدها اليمنى بسبب حرق، ربما تستخدم اسم مابل، وربما لا؟

"ربما كانت في كنتا"، أجابت ليندسي عندما قررت كورا أن دورها قد حان. كانت ليندسي امرأة ضئيلة وطنانة أتت حديثاً من تينيسي،

كانت مبتهجة بطريقة لم تستطع كورا فهمها. فقد رأت في تينيسي النار والمرض والعنف. رغم أنه المكان الذي أنقذها فيه رويال والآخرون. «كثيرٌ من الناس مولعون بكندا الآن»، قالت ميغان. «على الرغم من أنها شديدة البرودة».

ليال باردة لقلوب باردة.

طوت كورا لحافها وذهبت إلى غرفتها. التفت حول نفسها وفكرت كثيرًا في الأمهات والبنات. متدمرة حول تأخر رويال ثلاثة أيام. عاودها الصداع مثل الرعد. وضعت وجهها مقابل الجدار ولم تتحرك.

عُقد العشاء خارج مبنى الاجتماعات، أكبر مبنى في المُلْكِيَّة. تقول الأسطورة إنه تم بناؤه في يوم واحد، قبل واحد من التجمعات الكبيرة الأولى، عندما أدركوا أن التجمعات لم تعد مناسبة داخل بيت فالنتين الريفي. معظم الأيام يُستخدم المبنى كمدرسة. ويوم الأحد يكون الكنيسة. في أمسيات السبت يجتمع سكان المزرعة معًا لتناول وجبة مشتركة. يأتي البناؤون الذين يعملون في مبنى المحكمة في المدينة جوعى، وتعود الخيَّاطات من عملهن النهاري للسيدات البيض وترتدين فساتينهن الجميلة. كان الرُّهد هو القاعدة باستثناء ليلة السبت، عندما يبدأ أولئك الذين يُحِبُّون الروحانيات بتناول وجباتهم ويصبح لديهم شيء للتفكير فيه خلال موعظة صباح اليوم التالي.

يبدأ التجهيز للمأدبة دائمًا بالخنازير، تُقَطَّع على الطاولة الخشبية الطويلة وتُغَطَّى بصلصة الشواء. الكرنب المدخن، اللفت، فطيرة البطاطا الحلوة، وبقية أصناف المطبخ توضع في أطباق فالنتين الجميلة. كان السكان متحفظين في العادة، باستثناء ليلة شواء جيبي - تستخدم السيدات المتزمتات مرافقهن، ويُطَاطُءُ جيبي رأسه مع كل

معاملة، ويفكر في التحسينات التي يمكن إدخالها على الشواء المُقبِل. في مناورة طيبة أخذت كورا الأذن المقرمشة، الجزء المفضّل لدى مولي، وقدمته لها.

لم يعد فالنتين يحسب عدد العائلات التي تعيش على أرضه. مائة نفس هي رقم كبير للوقوف عنده - لقد كان صاحب شخصية رائعة بكلّ المقاييس - ما فعله لم يخطر ببال أيّ من المزارعين الملوّنين الذين اشتروا الأراضي المجاورة وبدأوا العمل على تجارتهم الخاصة. بين الأطفال الذين بلغ عددهم الخمسين، كانت الأغلبية دون سنّ الخامسة. «الحرية تجعل الجسم خصبًا»، قالت جورجينا. وأضافت كورا، هذا، بالإضافة إلى معرفة أنهم لن يُباعوا. اعتقدت النساء في مهاجع الملوّنين بكارولاينا الجنوبية أنهن يعرفن معنى الحرية، لكن سكاكين الجراحين أثبتت خلاف ذلك.

بمجرّد الانتهاء من تناول الخنازير، أخذت جورجينا وبعض النساء الأصغر سنًا الأطفال إلى الحظيرة للعب والغناء. لم يجلس الأطفال هادئين خلال كل الاجتماعات. غيابهم خفف من حصص المناقشات؛ في نهاية المطاف، كانت تلك المناقشات لصالح أولئك الصغار. حتى لو تحرّر الكبار من الأغلال التي احتجزتهم بسرعة، فإن العبودية قد سرقت منهم كثيرًا من الوقت. الأطفال فقط هم من يمكنهم الاستفادة بالكامل من أحلامهم. إذا سمح لهم الرجال البيض بذلك.

امتلاً منزل الاجتماعات. انضمت كورا إلى سيبيل. بدت هذه الليلة كشأنٍ خاسر. في الشهر المقبل ستستضيف المزرعة أهم اجتماع سيحدث في المكان، لمعالجة الجدل الأخير حول جمع المحاصيل. فقد حقّف آل فالنتين فقرات ترفيه ليلة السبت. الطقس اللطيف

– والتحذيرات من شتاء إنديانا القادم، والذي أخاف أولئك الذين لم يسبق لهم رؤية الثلوج – أبقاهم مشغولين. تحولت رحلات المدينة إلى بعثات مرحة. أصبحت الدعوات الاجتماعية حاليًا تمتد حتى المساء، حيث بدأ كثيرٌ من المستوطنين الملّونين الاستقرار بشكل دائم، وشكلوا طليعةً للهجرة الكبرى.

كثيرٌ من قادة المزرعة كانوا خارج المدينة. فالنتين نفسه كان في شيكاغو في اجتماع مع أحد البنوك، وقد بدأ ولداه الآن العمل بما أنهما كُبرا بما فيه الكفاية للمساعدة في شؤون المزرعة. سافر لاندنر مع واحدة من جمعيات مناهضة العبودية الجديدة الكائنة في نيويورك، في جولة خطابية في نيو انغلاند؛ وأبقاه الأمر مشغولاً. ما تعلّمه خلال هذه الرحلة الأخيرة في البلاد سيشكلّ دون شك إسهامه في الاجتماع الكبير. نظرت كورا إلى بقية الجَمْع. كانت تأمل أن تُغري مآدبة جيبي رويال بالعودة في الوقت المناسب، لكنه وشركاؤه ما يزالون يؤدّون مهامهم في السكك الحديدية السرية. لم تُرد أخبارًا عنهم. فقد وصلت أخبارٌ شنيعة إلى المزرعة تتعلق بشنق بعض المشاغبين الملّونين في الليلة السابقة. حدث ذلك على بعد ثلاثين ميلاً من الولاية، ويفترض أن الضحايا عملوا لصالح السكك الحديدية، هكذا دون تفاصيل. حكّت امرأة ذات نمش لم ترها كورا من قبل – هناك كثير من الغرباء في هذه الأيام – عن عمليات الإعدام بصوت عالٍ. استدارت سيبييل نحوها وأسكتتها، ثم عانقت كورا سريعًا بينما خطت غلوريا فالنتين داخل المكان.

كانت غلوريا عاملة غسيل في مزرعة نبات النيلي عندما التقى بها جون فالنتين. «أكثر منظر لذيد رأته هذه العيون قبلاً»، أحب فالنتين أن

يخبر الوافدين الجدد بذلك، وكان يلفظ كلمة «لذيذ» كما لو يصب الكراميل الساخن. لم يكن فالتنين يزور تجّار العبيد في تلك الأيام، لكنه كان يتاجر في شحنة من الأعلاف مع مالك غلوريا. وبحلول نهاية الأسبوع كان قد اشترى حرّيتها. وبعد أسبوع من ذلك تزوّجا. كانت ما تزال لذيذة، ورشيقة ومتناسقة كما لو أنها ذهبت إلى مدرسة تهذيب سلوك للسيدات البيض. احتجّت على أنها لا تحب أن تحل مكان زوجها عندما يسافر، لكن هدوءها أمام الحشد أنبأ بخلاف ذلك. عملت غلوريا بجدّ في القضاء على أسلوب حديثها الذي اكتسبته من فترة عملها في المزرعة قديمًا - سمعَها كورا تهفو عندما أخذت المحادثة منعطفًا شعبيًّا - لكنها كانت مثيرة للإعجاب بشكل طبيعي، سواء تحدثت بطريقة الملونين أو البيض. وقد كانت غلوريا تتدخل عندما تتخذ خطب فالتنين لهجة صارمة، ويغلب تصرّفه العمليّ على كرمه، لتُلطّف الأمور.

"هل كان يومكم لطيفًا؟" قالت غلوريا عندما هدأت الغرفة. "كنتُ في قبو الجذور طوال اليوم، ثم أتيت لرؤية الهدية التي أعطانا إيّاها الرب اليوم. تلك السماء. وهذه الخنازير..." واعتذرت عن غياب زوجها. أراد جون فالتنين الاستفادة من الحصاد الكبير لإعادة التفاوض بشأن قرضهم البنكي. "يعلم الرب أن هناك كثيرًا في الخارج، ومن الجميل أن نحصل على قليل من راحة البال". انحنّت أمام مينغو، الذي جلس في المقدّمة، بجانب المساحة الفارغة التي تُترك في العادة لفالتنين. كان مينغو رجلًا سمينًا ذا قامة متوسطة، مع بشرة تُشبه بشرة شعوب الهند الغربيّة والتي بدت مُشرقة مع بذلته الحمراء. بارك كلماتها ثم التفت كي يومئ لحلفائه في منزل الاجتماعات.

نتهت سبيل كورا للمنازعات السياسية في المزرعة، نزاع يُضفي الشرعية على وضع مينغو. كان هناك حديث متكرر الآن عن الاتجاه غربًا، حيث ظهرت مدنٌ للملونين على الجانب الآخر من نهر أركنساس. الفكرة هي الانتقال إلى أماكن لم تتقاسم حدودًا مع ولايات العبيد، ولم تقترف قط رجس العبودية. اقترح مينغو البقاء في إنديانا، مع خفض عدد الأشخاص الذين يؤوونهم: الهاربين الضالين، أمثال كورا. نشر موكب الزوّار الشهير شهرة المزرعة وجعل المكان رمزًا لتقدم الملونين - وهدفًا كذلك. ورغم كل شيء، فإن آثار شبح تمرّد الملونين وكل تلك الوجوه المظلمة الغاضبة المحيطة بهم، كانت قد دفعت المستوطنين البيض لمغادرة الجنوب. أتوا إلى إنديانا، وفي الباب المجاور كانت الأمة السوداء تتقدم. لكن ذلك دائمًا ما انتهى بالعنف.

ازدرت سبيل مينغو، بشخصيته المتحوّلة ومناوراته المستمرة، والطبيعة المتعجرفة التي تختفي تحت طرفاته. نعم، اكتسب الرجل أسطورة مشرفة: فقد صار يعمل خارج مزرعة سيده في عطلة نهاية الأسبوع، واشترى حرية زوجته، ثم أولاده، وأخيرًا نفسه. نبذت سبيل هذا العمل البطولي المذهل - كان الرجل محظوظًا وحسب بخصوص سيده الذي سهّل له أمورًا كثيرة، هذا كل شيء. لم يكن مينغو أكثر من انتهازي، يضايق سكان المزرعة بمفاهيمه حول تقدّم الملونين. وبمساعدة لاندر سوف يأخذ المنصة في اجتماع الشهر المقبل لتحديد مستقبلهم.

رفضت كورا الانضمام إلى صديقتها في سُخريتها. ظلّ مينغو بعيدًا عنها رغم ما جلبه الهاربون إلى المزرعة من اهتمامٍ بالمزرعة. وعندما سمع أنّ كورا كانت مطلوبة في جريمة قتل، صار يتجنّبها تمامًا. ومع ذلك، فقد

أنقذ الرجل عائلته، وكان يمكن أن يموت قبل الانتهاء من مهمته - لقد قام بشيء عظيم. قرأت ابنتاه أماندا وماري إعلان الاستقلال باتزان في اليوم الأول لهما في المدرسة. كانتا فتاتين تثيران الإعجاب. لكن أيضًا، لم تحبّ كورا حديثه المتزادي. شيء في ابتسامته ذكّرهما بليك، ذاك الوغد من الأيام الخوالي. لم يكن مينغو بحاجة إلى مكان يضع فيه منزل كلبه، لكنه بالتأكيد كان يحاول توسيع سيطرته.

طمأنتهم غلوريا أنهم سيبدؤون عزف الموسيقى خلال وقت قصير. لم يكن هناك ما أسماهم فالنتين «بالشخصيات البارزة» بينهم الليلة - بملابس فاخرة، ولهجة اليانكي - على الرغم من وجود بعض الضيوف الذين أتوا من المحافظة. طلبت غلوريا منهم الوقوف وتعريف أنفسهم للترحيب بهم. ثم حان وقت التسلية. "بينما تهضمون هذه الوجبة الجيدة، لدينا علاجٌ خُلُو"، قالت. «قد تتعرّفون على وجهه من زيارته السابقة لفالنتين، إنه أبرز شباب في عالم الفنون».

خلال السبب الماضي أحضروا مغنيّة أوبرالية حُبلِي، من مونتريال. والسبب الذي سبقه أحضروا عازفة كمان من كونتيكيكيت جعلت نصف النساء يبكين، بعد أن تغلّبت عليهن مشاعرهن. واللييلة كانت للشاعر. كان رامزي بروكس مُتَزَنًا ونحيفًا، ارتدى بذلة سوداء وربطة عنق سوداء. وبدا مثل واعظ متنقّل.

جاء إلى المزرعة قبل ثلاثة أشهر مع وفدٍ من أوهايو. هل تستحق مزرعة فالنتين سُمعتها الشهيرة؟ لقد نظّمت الحملة امرأة مُسنّة بيضاء تهتمّ بقضية تقدم الزوج. أرملة محامٍ كبير من بوسطن، كانت تجمع الأموال لمشاريع مختلفة، مثل نشر وتوزيع الأدب الملون الذي كان

همّها الأوّل. بعد أن سمعت واحدة من خطب لاندر، ربّبت لتوزيع سيرته الذاتية؛ كانت المطبعة قد طبعت سابقًا بعض أعمال شكسبير التراجيدية. بيعت النسخة الأولى من المجلد خلال أيام، طبعةً أنيقة مع اسم إيليا لاندر بخطّ ذهبي. قالت غلوريا إن مخطوطة رامزي الخاصة ستصدر في الشهر المقبل.

قبّل الشاعر يد مضيّفته وطلب الإذن لمشاركة بعض أشعاره. اعترفت كورا أن شخصيته كانت بارزة. بحسب جورجينا فقد كان رامزي يتودّد إلى إحدى فتيات منزل الحليب، لكنه كان متحرّزًا مع حقيقة أنه كان شابًا منفتحًا على الجانب الغامض للمصير. «مَن يعلم ماذا يضع لنا القدر في المتجر»، سألت كورا في زيارته الأولى، «وأي نوع من الناس سنحظى بمتعة التعرف عليهم؟» فجأة ظهر رويال إلى جانبها وأبعدها عن كلمات الشاعر المعسولة.

كان يجب أن تميّز نوايا رويال. لو كانت تعرف كم سيجعلها غيابه متعكّرة المزاج لكانت صدّته.

مع مباركة غلوريا بدأ الشاعر، سعلَ سعلةً خفيفةً كبداية لتهيئة صوته. «في السابق رأيت معجزة مرقّطة»، أخذ يقرأ، وصوته يرتفع وينخفض كما لو كان يقا تل رياحًا معاكسة. «تجلس في الحقل، تحلّق بأجنحة ملاك وتلوح بدرع ملتهب...»

استمع الناس في منزل الاجتماعات وتنهّدوا. حاول رامزي ألا يبتسم على رد فعلهم، وتأثير أدائه. لم تتمكن كورا من فهم كثير من قصائده: زيارة من وجود رائع، وسائل ينتظر رسالة، ومحادثة مع شجرة بلوط، والشتلة، وشجرة البلوط القوية، وتكريمًا لبنجامين فرانكلين وبراعته. لم تؤثر فيها الأبيات. كانت القصائد تشبه كثيرًا الصلاة، ما أثار في دواخلها

مشاعر مؤسفة. تنتظر أن ينقذك الرب بينما كل شيء في يدك. لقد وضع الشعر والصلاة في رؤوس الناس أفكارًا تسببت في قتلهم، وتشتيت انتباههم عن الآلية الشرسة للعالم.

بعد انتهاء فقرة الشعر استعدّ الموسيقيون لأدائهم، كان بعضهم عازفين انضموا مؤخرًا إلى المزرعة. أعد الشاعر دوائر الرقص جيدًا، فقد أسكرهم برؤاه حول الطيران والتحرر، إذا جعلهم ذلك سعداء، فمن هي حتى تحاول التقليل من شأنه؟ لقد وضعوا أجزاء من أنفسهم في شخصياته الشعرية، وأضافوا وجوههم إلى الأشكال في قوافيه. هل رأوا أنفسهم في بنجامين فرانكلين أو ابتكاراته؟ كان العبيد أدوات، لذلك ربما رأوا أنفسهم في ابداعاته، لكن لا أحد هنا كان عبدًا. ربما يُحسبون كمتلكات شخص هناك في البعيد، لكن ليس في هذا المكان. كانت المزرعة بأكملها شيئًا يفوق خيالها. لقد صنع آل فالنتين معجزة. وقد جلست بين الأدلة على ذلك؛ والأفضل أنها كانت جزءًا من تلك المعجزة. لقد قدّمت نفسها بسهولة شديدة إلى الوعود الكاذبة لكارولينا الجنوبية. الآن جزء منها متألّم ويرفض كنوز مزرعة فالنتين، حتى وإن أزهرت بعض النعم كل يوم في فتاة صغيرة تُمسك بيدها، وفي مخاوفها على الرجل الذي راحت عاطفتها تميل له.

اختتم رامزي فقرته بنداءٍ للانتباه إلى المواهب الفنية في الصغار والكبار على حد سواء وأهميّة رعايتها، «لنلّهب ذلك العشق الأبولوجي في جميع الكائنات الفانية!». دفع أحد الوافدين الجدد منضدة القراءة عن المنصة. كانت تلك إشارة للموسيقيين، وإشارة لكورا. الآن عرفت سيبيّل طباع صديقتها، فقَبَلتها مودّعة. امتلأت القاعة؛ في الخارج كان الجو باردًا ومظلمًا. غادرت كورا وتركت خلفها الصوت الصاخب

لتحريك الأشياء وإفساح المجال للرّقص. مرّت بجانب شخص على الطريق قال لها، «أنتِ ذاهبة في الاتجاه الخاطئ يا فتاة!»
عندما وصلت المنزل، وجدت رويال يتكئ على عمود في شرفتها. رأت ظلّه في الظلام. قال، «اعتقدت أنك ستبقين فترة أطول عندما سمعت صوت البانغو».

أضاءت كورا المصباح ورأت عينيه السوداويتين، والنتوء الأرجواني. «أوه»، قالت وهي تعانقه، ودفنت وجهها في عنقه. «كان مجرد شجار»، قال. «وتمكّنا من الهرب». ارتعدت كورا فهمس، «أعلم مدى قلقك. لكنّي لم أشعر بالرغبة في الاختلاط بالناس الليلة، واعتقدتُ أنه يمكنني الانتظار هنا». جلسا في الشرفة على المقعد الهزاز الذي صنعه النجار المتيم واستغرقا في الليل. تحركا فتلامست أكتافهما.

أطلعته على ما فاتته، الشّاعر والوجبة. «سيكون هناك مزيد»، قال. «لقد أحضرتُ لك شيئاً». بحث في حقيبتة. «إنها طَبْعَة هذا العام، لكنّي اعتقدت أنك ستحبينها رغم أنها مطبوعة منذ أكتوبر. عندما أذهب إلى مكان تتوفر فيه نسخ العام المقبل، سأحضرها لأجلك». أمسكت بيده. كان للروزنامة رائحة غريبة وصابونية وكانت تُصدر ضوضاء بينما تقلّب الصفحات. كان ذلك أوّل دفتر جديد تمتلكه، وكانت أوّل من يفتحه.

أخذها رويال إلى نفق الأشباح بعد قضاءها شهرًا في المزرعة. بدأت كورا العمل في يومها الثاني، وكانت أفكارها معقودة حول شعار مزرعة فالنتين: «ابقى وساهم». طلبت، وعلاج. ساهمت أولًا في غرفة الغسيل. كانت مديرة غرفة الغسيل امرأة اسمها أميليا، تعرّفت على آل فالنتين في فرجينيا، وتبعتهن إلى هنا بعد عامين. حدّرت كورا بلطف من «إساءة التعامل مع الملابس». كانت كورا سريعة في عملها عندما كانت في مزرعة راندال. لكن العمل بيديها أثار ذكرى صناعتها القديمة والمخيفة. قررت هي وأميليا أنها قد تفضل مجالًا آخر. ساعدت في بيت الحليب مدّة أسبوع، وعملت مع العمّة في رعاية الأطفال أثناء عمل آبائهم وأمّاتهم. بعد ذلك، نشرت السّماد في الحقول عندما تحوّلت أوزاق الذرة الهندية إلى اللون الأصفر. وبينما هي منحنية بين الصفوف نظرت فوقها باحثة عن المُشرف الذي يطاردها.

"تبدين منهكة"، أخبرها رويال في إحدى ليالي أغسطس بعد أن ألقى لاندر واحدة من خطبه. كان حديث لاندر شبيهًا بالموعظة، بشأن معضلة العثور على هدفك ما إن تنزلق خارج نير العبوديّة، وعن إحباطات الحرّية المتعددة. ومثل بقية سكان المزرعة، احترمت كورا الرجل بمهابة. كان أميرًا غريبًا، يسافر من أراضٍ بعيدة لتعليمهم كيف

يقود الناس أنفسهم نحو أماكن لائقة. أماكن بعيدة جدًا استعصت على جميع الخرائط.

كان والد إيليا لاندر محام أبيض غني من بوسطن، عاش علنًا مع زوجته الملوثة. وقد عانوا التعنيف في دائرتهم. وفي منتصف الليل، وصف الهامسون ذريتهم بأنها اتحاد إلهة أفريقية وبشريّ شاحب نصف إله. كانت القصة تُروى بأفواه البيض رفيعي المقام في مقدمات طويلة قبل خطبه، أظهر لاندر تألقه في سن مبكرة. كان طفلًا هزليًا جعل مكتبة الأسرة ملعبه، ينكب على مجلدات يكافح لحملها من على الرفوف. في سن السادسة، لعب البيانو مثل فتان أوروبي. عقد حفلات موسيقية في الصالون الفارغ، وانحنى للتصفيق الصامت.

توسّط أصدقاء العائلة لجعله أوّل طالب ملون في واحدة من الكليات البيضاء المرموقة. «لقد أعطوني إذن مرور العبيد»، كما وصفه، «واستخدمته للمشغبة». عاش لاندر في خزنة المكنس؛ إذ لم يوافق أحد على مقاسمته الغرفة. بعد أربع سنوات انتخبه زملاؤه الطالب المتفوق. تحرّك بخفة بين العقبات مثل مخلوق بدائي احتال على العالم الحديث. كان بوسع لاندر أن يكون أي شيء يريده. جراح، أو قاض. حثّه أفراد الطبقة العليا على الذهاب إلى عاصمة البلاد لترك بصمته في السياسة. لكنه توجه نحو زاوية صغيرة من النجاح الأميركي حيث أبناء عرقه الذين لم يلعبوه. قد يعيش البعض في تلك المساحة بسعادة، ويختارون الترقى بمفردهم، لكن لاندر أراد أن يفسح المجال للآخرين. يشكل الناس رفقة رائعة في بعض الأحيان.

وفي النهاية، اختار أن يلقي الخطب في صالون والديه إلى جمهور من موقري بوسطن، ثم في بيوت هؤلاء البوسطنيين المتميزين، في بيوت

الملونين والكنائس الميثودية وقاعات المحاضرات في جميع أنحاء نيو إنغلاند. في بعض الأحيان كان أول شخص ملون يضع قدميه في تلك المباني بخلاف الرجال الذين بنوها، والنساء اللاتي عملن في نظافتها. اعتقله الضباط ذوو الوجوه الحمراء بتهمة الفتنة. وسُجن بسبب التحريض على أعمال الشغب التي لم تكن أعمال شغب أكثر من كونها تجمّعات سلمية. أصدر القاضي المحترم إدموند هاريسون من ماريلاند أمرًا بالقبض عليه متهماً إياه «بإصدار معتقد شيطاني يُعرقل نسيج المجتمع الطيب». ضربه غوغاء البيض قبل أن ينقذه أولئك الذين جاءوا لسماعه يقرأ من كتابه «إعلان حقوق الزوج الأميركيين». أُحرقت كتيباته وتمثال يجسده من فلوريدا وحتى ماين، وفي وقت لاحق تم إحراق سيرته الذاتية. «من الجيد أنهم أحرقوا تمثالاً لي ولم يحرقونني»، قال.

ما هي الآلام السرية التي تزعجه تحت هذا السلوك الهادئ، لا أحد يستطيع أن يعرف. فقد ظل رابط الجأش وغريبًا. قال في المرة الأولى التي سمعته كورا يتكلم، «أنا ما يدعوه علماء النبات هجيتًا، مزيج من عائلتين مختلفتين. في الزهور يُرضي مثل هذا التدبير العين. لكن عندما يأخذ هذا المزيج شكله في اللحم والدم، يعتبره البعض إهانة كبيرة. لكننا في هذه الغرفة نعرف ماهيته الحقيقية، جمال جديد يأتي إلى العالم، ويُزهر في كل مكان حولنا».

عندما أنهى لاندر خطابه في ليلة أغسطس، جلست كورا ورويال على درجات منزل الاجتماعات. وتدفق السكان الآخرون بجانبهم. كلمات لاندر وضعت كورا في مكان كئيب. وقالت، «لا أريدهم أن يُخرجوني

من هنا".

قلب رويال راحة يدها وانزلق إبهامه عبر نسيجها الطازج. لا حاجة للقلق حول ذلك. واقترح رحلة لرؤية مزيدٍ من إنديانا، لترتاح من إجهادها.

في اليوم التالي ركبا عربة تسحبها خيول بقعاء. وبالأجر الذي كسبته اشترت ثوبًا جديدًا وقبعة. غطت القبعة الندبة على صدغها. في الآونة الأخيرة جعلتها الندبة عصبية. لم تفكر أبدًا في الندوب من قبل، حرف (X) وحرف (T) والعلامات التي يكوي بها الأسياد ممتلكاتهم. كانت هناك علامة وسم قبiche وأرجوانية على شكل حدوة حصان في رقبة سيبييل - أول مالك لها كان يربّي الخيول. شكرت كورا الرب أن بشرتها لم تؤسم بمثل هذه الطريقة. لكننا جميعًا موسومون حتى لو لم نستطع رؤية ذلك، في الداخل إن لم يكن في الخارج - وقد كان جُرح عصا راندال هو الشيء نفسه، فقد وسمها لإحدى ممتلكاته.

ذهبت كورا إلى المدينة عدة مرات، حتى أنها صعّدت درج مخبز البيض لشراء كعكة. أخذها رويال في الاتجاه المعاكس. كانت السماء ضبابية لكن ما يزال الجوّ دافئًا، ويُندر بقرّب حلول الشتاء. توقّفوا للتزّه بجانب مرج، تحت شجرة تفاح. كان قد أحضر بعض الخبز والمربي، والنقانق. تركته يضع رأسه في حضنها. فكّرت في أن تمرر يدها خلال شعره المجعد الأسود بجانب أذنيه، لكنها امتنعت عندما برزت ذكرى العنف القديم.

في طريق العودة قادَ رويال العربة عبر مسار مكسيّ بالأعشاب. لم تكن كورا لتراه لو لم يمر من هناك. ابتلع الحور القطني المدخل. قال إنه يُريد أن يربها شيئًا. اعتقدت أنه قد يكون بركة أو مكانًا هادئًا لا

يعلم بشأنه أحد. بدلاً عن ذلك التفا خلال منعطف وتوقفًا عند كوخ مهجور ومتداعٍ، ذي لون رماديّ مثل اللحوم الممضوغة. مصاريحه مائلة، والأعشاب البرية تنحني من سقفه. "متهاك" هي الكلمة المناسبة لوصف المكان - كان الكوخ يشبه الكلب الذي تم إيداؤه. ترددت عند العتبة. أصابها الوسخ والطحالب بالوحدة، حتى بوجود رويال هناك. ملأت الأعشاب الضارة أرضية الغرفة الرئيسية كذلك. وغطت أنفها من الرائحة الكريهة. «إنها تجعل رائحة السماد تبدو حلوة»، قالت. ضحك رويال وقال إنه كان يعتقد دائمًا أن رائحة السماد حلوة. فتح الباب السري الذي يؤدي إلى القبو وأضاء شمعة. أصدر الدرج صريرًا. تراكضت حيوانات القبو، غاضبة من تسلّهما. نزل رويال ست خطوات وبدأ يحفر. توقف عندما كشف الباب الثاني، ونزلا إلى المحطة. حذرها من الدرج فقد كان زلًّا بسبب الوحل.

كانت تلك المحطة الأكثر سعادة وحزنًا حتى الآن. لم يكن هناك ممرّ بين المسارات - بدأت القضبان عند نهاية الدرج وامتدت نحو النفق المظلم. استقرت مقطورة صغيرة على المسارات، تنتظر مضخّتها الحديدية لمسة إنسانية لتحريكها. وكما هو الحال في منجم الميكا في كارولينا الشمالية، عززت الألواح الخشبية الطويلة والدعامات الجدران والسقف.

"إنها ليست مصنوعة لقاطرة"، قال رويال. "النفق صغير جدًا، أترين. ولا يتصل ببقية الخط". منذ فترة طويلة لم يوجد شخص في هذا المكان. وسألت كورا أين ذهبوا.

ابتسم رويال. «هذا المكان يسبق ولادتي. أراي إياه المرشد الذي حلّلت مكانه هذا المكان عندما صهرت المسؤول عن هذا القسم. لقد تنقلت بهذه العربة اليدوية بضعة أميال، لكن الأمر كان مزعجًا للغاية. فالجدران

تنضغط وتتقارب». لم تكن كورا بحاجة لتسأل عمّن قام ببناءه. جميع رجال السكك الحديدية، من لومبلي إلى رويال، سيردون بإجابة واحدة «برأيك من الذي قام بذلك؟ من هم الذين يفعلون كل شيء؟» قررت أنها ستجعله يخبرها يومًا ما.

قال رويال أنه على حد علم الجميع فإن نفق الشبح لم يستخدم مطلقًا. لا أحد يعرف متى حُفِر، أو الذين عاشوا أعلاه. أخبره بعض المهندسين أن المنزل قد تم بناؤه من قِبَل أحد المساجين القدامى، مثل لويس وكلاارك، الذين قاموا باستكشاف ورسم خرائط للبرية الأمريكية. «في حال رأيتِ البلد بأسرها»، قال رويال. «من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ، شلالات نياغارا الكبرى وريو غراندي، هل ستختارين العيش هنا في غابة إنديانا؟» أحد عاملي المحطة القدامى قال إن المكان كان موطنًا لجنرال كبير في الحرب الثورية، وهو رجل شهد كثيرًا من سفك الدماء وانعزل عن الأمة الشابّة بعد أن ساعد في تكوينها.

كانت قصة الشخص المنعزل منطقية أكثر، لكن رويال ظن أن الجزء الخاص بالجيش محض هراء. هل لاحظت كورا أنه لم يكن هناك دليل على أن شخصًا ما عاش هناك، فلا شيء يدل على ذلك حتى مساكن قديم أو مسمارعلى الجدار؟

تسللت فكرة إلى عقلها مثل الظل: إن هذه المحطة لم تكن بداية الخط، بل نهايته. لم يبدأ البناء تحت المنزل لكن في الطرف الآخر من الثقب الأسود. كما لو لم يكن في العالم أماكن للهروب إليها، فقط أماكن للفرار منها.

يا له من ثقب صغير بارد. وفي الغالب أن أي رحلة تبدأ من هذه النقطة ستكون مجرد رحلة سيئة. في آخر مرة كانت فيها عند إحدى محطات

المغادرة للسكك الحديدية السرية كان المكان مضاءً بشكل ساطع، سخياً في وسائل الراحة، وأخذها إلى مزرعة فالنتين. كان ذلك في تينيسي، عندما كانوا ينتظرون نقلهم بعيداً عن خطر ريدجواي. ما زالت أحداث تلك الليلة تصيبها بالاضطراب.

أطلعها منقذوها على أسمائهم بمجرد أن تركوا صائد العبيد وعريته. كان رويال هو الرجل الذي أوما لها في المدينة؛ كان شريكه ريد، نسبةً للون شعره المجعد. الخجول كان جاستن، هارب مثلها وغير معتاد على التلويح بالسكاكين في وجوه الرجال البيض.

بعد أن وافقت كورا على الذهاب معهم – لم تعرض عليها حتمية بأدب مماثل من قبل – حاول الرجال الثلاثة إخفاء علامات المشادة بسُرعة. وجود هومر الذي يلوّح في الأفق، في مكان ما في الظلام، زاد الحاجة الملحة. ظلّ ريد يراقب وهو يحمل بندقيته بينما يقيّد رويال وجاستن بوسمان ثم ريدجواي بالأغلال إلى العربة. لم يتكلم صائد العبيد، وظل ينخر في وجه كورا بفمه الدّامي بعض الوقت.

"هذه الحلقة"، قالت مُشيرة إلى تلك الموصولة في العربة، وربطه ريد إلى الحلقة التي استعملها خاطفوها لتثبيت أغلال جاسبر.

قادوا عربة صائد العبيد إلى أقصى حافة المراعي، وأخفوها عن الطريق. كَبَل ريد ريدجواي خمس مرات، وذلك باستخدام كل سلسلة في العربة. وقذف المفاتيح في العشب. ثم حرروا الخيول. لكنهم لم يجدوا هومر؛ ربما تسلّل الصبيّ بعيداً عن ضوء الفانوس.

أيًا كانت المدّة التي ستوقرّها لهم تلك التدابير فستكون كافية. أطلق بوسمان لهاثاً ذليلاً بينما غادروا، واعتبرتها كورا حشجة الموت.

أوقف منقذوها عربتهم على بعد مسافة قصيرة سيّراً على الأقدام

من المكان الذي خيم فيه ريدجواي. اختبأت هي وجاستن تحت بطانية سميكة في الخلف وانطلقوا بسرعة خطرة نظرًا للظلام والطبيعة السيئة التي تجمع طرق تينيسي. نسي رويال وريد ربط أعين شحنتهم عدة أميال بسبب الانفعال في المعركة التي دارت قبل وقت قصير. كان رويال خجولًا بخصوص هذا الموضوع. «ذلك لأجل سلامة المحطة يا أنسة».

بدأت تلك الرحلة الثالثة على خط سكة الحديد من تحت إسطنبول. حتى الآن عنت المحطة النزول خلال درج عميق وملتبس والكشف عن شخصية المحطة التالية. كان مالك المبنى بعيدًا في رحلة عمل، وقد أخبرهم رويال بينما يربط أعينهم أن تلك كانت جيلة لإخفاء دوره في مشاريعهم. لم تعرف كورا اسمه قط، ولا البلدة التي غادروا منها. فقط كان شخصًا آخر ذو ميول جوفية - وذائقة تتضح في البلاط الأبيض المستورد الذي تم تغطية جدران المحطة به.

"في كل مرة تأتي هنا نجد شيئًا جديدًا"، قال رويال. انتظر أربعتهم القطار على طاولة مغطاة بمفرش أبيض، وجلسوا على كراسي ثقيلة منجدة باللون القرمزي. برزت ورود يانعة من مزهرية ورسمت أشكالًا ظلّية على الحائط. كانت هناك جرة كريستالية مليئة بالماء، وسلّة من الفاكهة، وقطع كبيرة من خبز الأرز ليتناولوه. قال جاستن «هذا منزل شخص غني».

"يجب أن يحافظ على مزاج معين"، أجاب رويال. قال ريد أنه يحب البلاط الأبيض، والذي جاء تحسينًا لألواح الصنوبر التي كانت هناك سابقًا. وأضاف "لا أعرف كيف وضعها بنفسه".

قال رويال أنه يأمل في أن يكون من ساعده كتومًا. «لقد قتل ذلك

الرجل»، قال جاستين. كان ثملاً، فقد اكتشفوا إبريقاً من النبيذ داخل خزائنه، وشرب الهارب كثيراً.

"اسأل الفتاة هل ما حدث يستحق أم لا"، قال ريد. أمسك رويال ساعد ريد ليووقف تأرجح الرجل. لم يأخذ صديقه حياة رجل من قبل. كانت مغامرتهم كافية لتعريضهم للشنق، لكن القتل سيضمن لهم تعذيباً وحشياً قبل أن يُشنقوا. اندهش رويال عندما أخبرته كورا في وقت لاحق أنها كانت مطلوبة لجريمة قتل في جورجيا. تجاوز اندهاشه وقال: «إذن فقد تم تحديد مسارنا بالفعل من اللحظة التي وقعت فيها عيني عليك في ذلك الشارع القذراً»

كان رويال أول رجل أسود حُرّ منذ يوم ميلاده التقتته كورا. نعم كان هناك عددٌ من الرجال الأحرار في كارولاينا الجنوبية الذين انتقلوا إليها بسبب مزاعم الفُرص، لكنهم عاشوا فيها حبيسين كعبيد مملوكين. أما رويال فقد أدرك الحرية مع صرخة الميلاد.

نشأ في كونيتيكت؛ عمل والده في صالون حلاقة بينما والدته كانت قابلة. وكانا أحراراً أيضاً، ينحدران من مدينة نيويورك. وحسب ما خططوا له، عمل رويال متدرّباً مع صاحب مطبعة بمجرد أن بلغ سنّاً تسمح له بالعمل. آمن والده بالكرامة التي تجلبها المهنة الزهية، وتصوّراً أجيالاً من السلالات المستقبلية لأسرتهم، يفوق إنجاز كل جيل سبقهم. وإذا كان الشمال قد قضى على العبودية، فإن مصير هذه المؤسسة البغيضة هو التلاشي في كل مكان. وإذا كانت قصة الزنجي في هذه البلاد قد بدأت بالخزي، فإن الانتصار والازدهار سيكونان من نصيبه يوماً ما.

لو أدرك والداه قوة أثر ذكرياتهما على الصبي، ربما كانا أكثر تحفظًا في قصصهما عن مدينتهما الأصلية. هرب رويال إلى مانهاتن في الثامنة عشرة من عمره، وتقرّر مصيره منذ أول مشهد له للمدينة المهيبة وهو يقف على العبارة الناقلة للبضائع. سكنَ في غرفة مع ثلاثة رجال آخرين في مأوى خاص بالملونين في منطقة فايف بوينتس حيث بدأ يُعيل نفسه من العمل في صالون حلاقة، حتى التقى يوجين ويلر الشهير. بدأ الرجل الأبيض محادثة مع رويال في اجتماع لمناهضي العبودية؛ وبعد أن أعجب به، طلب منه ويلر زيارته في مكتبه في اليوم التالي. كان رويال قد قرأ عن مآثر الرجل في الصحيفة: إنّه محام، وصاحب حملات قوية لإلغاء العبودية، وسمّ زُعاف لتُجار العبيد ومن يُنجزون لهم أعمالهم القنطرة. عمل رويال على استكشاف سجن المدينة بحثًا عن هارين يترافع المحامي في الدفاع عنها، ونقل رسائل بين أشخاص غامضين، ووزع أموال جمعيات مناهضة العبودية للهاربين في أماكنهم الجديدة. وبعد تجنيده الرسمي في السكك الحديدية السريّة، كان أدواتها بعض الوقت.

"أنا من يُزيّت مكابس المحرّكات"، كان يردّد بفخر. وضع رويال رسائل مشفرة في الإعلانات المبيّبة التي تُبلغ عن هارب ومرشدي المغادرين. وقام برشوة قباطنة السفن وضباطها، ونقل نسوة حوامل عبر الأنهار في منحدرات متعرجة، ونقل أوامر القضاة الخاصة بإطلاق السراح إلى نواب برلمانات مستائين من القرار. بشكل عام كان قد جعل له حليفًا أبيض، لكن فطنة رويال الحادة ومشيته المتفاخرة جعلت من الواضح أن لون بشرته لا تشكّل عقبة له. كان يقول "إن الأسود الحرّ يمشي بطريقة مختلفة عن العبد. يميّز البيض ذلك على الفور، حتى لو لم

يعرفوا عن ذلك. يمشي بطريقة مختلفة، ويتحدث بأسلوب مختلف، ويتصرف بصورة مختلفة. إنه شيء يكمن في عظام المرء." لم يعتقله الضباط أبدًا، وأبقى الخاطفون على مسافة منه. بدأ ارتباطه مع ريد في مهمة في إنديانا. كان ريد من كارولينا الشمالية، فرَّ بعد أن أعدم الضباط زوجته وطفله. مشى على درب الحرية أميالًا، بحثًا عن جنثهم من أجل الوداع الأخير. فشل، وبدأ أن أثر الجثث يمضي إلى الأبد، في كل اتجاه. وعندما بلغ ريد الشمال، شرع في الارتباط مع السكك الحديدية، وكرّس نفسه للقضية بكلّ دهائه وقدرته على التحايل والشرّ. ولدى سماعه عن حادثة قتل كورا غير المقصود لصبي جورجيا، ابتسم قائلاً "جيد".

منذ بدايتها لم تكن مهمة جاستين اعتيادية. كانت تينيسي تقع خارج مهمة رويال، لكن الاتصال بالممثل المحلي للسكك الحديدية كان مفقودًا منذ الحرائق. وبما أن إلغاء القطار سيكون كارثيًا. ومع عدم وجود شخص آخر مُتاح، أرسل رؤساء رويال على مضض الوكيلين الملونين إلى عمق أراضي تينيسي الوعرة.

كانت البنادق فكرة ريد. لم تُمسك يدُ رويال واحدة من قبل. «إنها تناسب يدك»، قال رويال، «لكنها ثقيلة مثل مدفع». "بدوت مفزوعًا"، قالت كورا.

"كنتُ مرعوبًا، لكن ممّا في دواخلي"، قال لها.

إستأجره رئيس جاستين في كثير من الأحيان لأعمال البناء وقام صاحب العمل المتعاطف بإنجاز ترتيبات تخصّ السكك الحديدية على حسابه. كان هناك شرط واحد - أن يؤجّل جاستين عمل المسارات لحين إنهاء جدران الحجر حول ممتلكات الرجل. واتفقوا على أن فجوة

من حجارات ثلاثة هي فجوة معقولة، وقد ترك جاستين تعليمات شاملة بخصوص إنهاء العمل.

وفي اليوم المعين انطلق جاستين إلى المكان للمرة الأخيرة، حيث لن يلاحظ غيابه حتى حلول الليل؛ أصرَّ ربّ عمله على أنه لم يظهر هذا الصباح. فبحلول الساعة العاشرة كان يجلس على ظهر عربة رويال وريد. تغيّرت الخطة عندما التقوا كورا في المدينة.

نُقِلَ القطار إلى محطة تينيسى. كانت القاطرة الأكثر روعة حتى اللحظة، بطلائها الأحمر اللامع الذي يعكس الضوء حتى من خلال غطاء السخام. كان المهندس ذا شخصية مرحة مع صوت طنان، قام بفتح الباب لمركبة الركاب دون القيام بالشكليات المعهودة. اشتبهت كورا أن نوعًا من جنون النفق قد أصاب مهندسي السكك الحديدية، بمن فيهم هذا الرجل.

بعد قطار النقل المتهاك ثم منصة البضائع التي نقلتها إلى كارولينا الشمالية، كان انتقالها إلى عربة ركاب - جيدة ومجهزة مثل تلك التي كانت تقرأ عنها في روزنامتها - مُتعة رائعة. ضمّت مقاعد فخمة وناعمة كافية لثلاثين شخصًا، وكذلك مصنوعات نحاسية تلمع حين يسقط عليها ضوء الشموع. أشعرتها رائحة الطلاء الحديث وكأنها الراكب الافتتاحي في رحلة سحرية أثناء انطلاقها الأول. تمددت كورا ونامت مستلقية على ثلاثة مقاعد، خالية من السلاسل وضيق العلية وظلمتها الكئيبة للمرة الأولى منذ أشهر.

عندما استيقظت كان الحصان الحديدي ما يزال يعدو غارقًا في النفق. استعادت كلمات لومبلي: إذا أردت معرفة حال هذه الأمة، فعليك اعتلاء القضبان الحديدية، وانظري خارجًا أثناء انطلاقك

السريع، وسوف تلمحين الوجه الحقيقي لأمريكا. لم تكن سوى مزحة، منذ البداية. وخلال رحلتها لم يكن هناك سوى ظلام خارج النوافذ، وسيستمر الظلام إلى الأبد. تحدّث جاستين من المقعد أمامها. أخبرها أن له شقيقًا له أبناء ثلاثة، يعيشون في كندا ولم يسبق له أن التقاهم. كان سيقضي بضعة أيام في المزرعة ثم يتوجه شمالًا.

أكد رويال للهارب أن السكك الحديدية تحت تصرّفه. جلست كورا وكرّر لها ما قاله قبل قليل لزميلها الهارب. يمكنها أن تستمر في الرحلة بعد محطة إنديانا، أو البقاء في مزرعة فالنتين.

وأشار رويال الى أن البيض اعتبروا جون فالنتين واحدًا منهم. كانت بشرته فاتحة. لكن بمستطاع أي شخص من الملونين تمييز أصله الإثيوبي على الفور. بأنفه، وتلك الشفاه، وشعره، سواء رجّله على طريقة البيض أم لا. امتهنت والدته الخياطة، بينما عمل والده الأبيض بائعًا متجولًا يرحل بضعة أشهر قليلة. وعندما توفي الرجل، ترك ممتلكاته لابنه، وهي المرة الأولى التي اعترف فيها بالصبيّ خارج جدران منزله.

حاول فالنتين زراعة البطاطا، مستخدمًا ستة من الرجال الأحرار للعمل في أرضه. لم يدع أبدًا أمرًا لم يكن فيه، لكنه لم يبدد أوهام الناس حوله. عندما اشترى فالنتين غلوريا، لم يشك أحد في نواياه. كانت إحدى طرق صون المرأة هي إبقائها في العبودية، خاصة إذا كنت، مثل جون فالنتين، جديدًا على العلاقات الرومانسية. فقط جون، وغلوريا، وقاضٍ من الجانب الآخر للولاية عرفوا أنها كانت حرة. كان مولعًا بالكتب وعلم زوجته الحروف. قاما معًا بتربية ولدين. واعتقد الجيران أنه متحرّر، أو مُسرف، لأنه جعلها وأبناءه منها أحرارًا.

عندما كان ابنه الأكبر في عمر الخامسة، سُئق أحد سائقي فالنتين

وأحرق بسبب تحديقه طائشة. أكد أصدقاء جو على أنه لم يكن في المدينة في ذلك اليوم؛ وتقاسم كاتب البنك الذي تربطه علاقة ودية مع فالنتين شائعات بأن المرأة كانت تحاول إثارة غيرة عشيقها. مع مرور السنوات، لاحظ فالنتين، أن التعبير عن العنف العنصري يزداد شراسة. وأنه لن يخفّ أو يتلاشى، ليس في أي وقت قريب، ليس في الجنوب. فقرر هو وزوجته أن فرجينيا مكان غير مناسب لتنشئة أسرة. باعوا المزرعة وأخذوا نصيبهم. الأرض رخيصة في إنديانا. كان هناك أشخاص بيض أيضًا، لكن ليس على مقربة شديدة من أرضهم. تعلم فالنتين طرق زراعة الذرة الهندية. وحالفه الحظ ثلاثة مواسم متتالية. عندما زار أقرباؤه في فرجينيا مرة أخرى، عزز مزايا وطنه الجديد. قام بتعيين أصدقاء قدامى. بل تركهم يعيشون في ممتلكاته حتى يجدوا مكانًا للسكن؛ كما قام بتوسعة مساحة أرضه.

وكان هؤلاء هم الضيوف الذين دعاهم. المزرعة، كما اكتشفت كورا، نشأت في ليلة شتاء واحدة بعد طمس من الثلوج البطيئة والجليد. منظر المرأة على الباب كان مروّعًا، مجمدة نصف ميتة. كانت مارغريت هاربة من ديلاوير. وكانت رحلتها إلى مزرعة فالنتين محفوفة بالمخاطر - فرقة من الشخصيات شديدة التحمل أخذتها على طريق متعرجة بعيدًا عن سيدها. وهو ناصب شراك، وبائع للأدوية الشعبية في الكرنفالات. تجوّلت من مدينة إلى أخرى مع طبيب أسنان جوال حتى تحوّل إلى شخص عنيف. حاصرتها العاصفة بين الأماكن. صلت مارغريت إلى الله من أجل الخلاص، ووعدت بالتوقف عن الأعمال الخبيثة والعيوب الأخلاقية التي قامت بها خلال رحلتها. من الظلام ظهرت أضواء فالنتين.

خدمت غلوريا زائريها بأفضل ما يمكن. جاء الطبيب على مُهره الصغير. لم تهدأ قشعريرة مارغريت أبدًا. وبعد بضعة أيام أسلمت روحها. في المرة القادمة التي ذهب فيها فالنتين شرقًا من أجل الأعمال التجارية، استوقفته ورقة كبيرة تحمل دعوة لاجتماع مكافحة العبودية في مساره. كانت المرأة على الثلج مبعوثة لقبيلة منزوعة الملكية. فصمّم على خدمتهم.

بحلول ذلك الخريف، كانت مزرعته أحدث مكتب للسكك الحديدية السرية، مشغولة بالهاربين والمرشدين. بعض الهاربين تخلّفوا. يمكنهم البقاء كما يحلو لهم بقدر مساهمتهم في العمل. قاموا بزراعة الذرة. في بقعة متضخمة باستمرار، قام عامل بناء مزرعة سابق ببناء ورشة لحدّاد مزرعة سابق. صنعت الورشة مسامير بمعدلات كبيرة. وقطع الرجال الأشجار وأقاموا الأكواخ. زار أحد مناهضي العبودية المكان بغرض الإقامة يومًا واحدًا وهو في طريقه إلى شيكاغو فبقي مدّة أسبوع. بدأ المستنيرون، والخطباء، والفنانون في حضور نقاشات ليلية السبت حول المسألة الزنجيّة. واجهت شقيقة إحدى النسوة الأحرار صعوبات في ديلاوير. فاتجهت الشقيقة غربًا بحثًا عن بداية جديدة. دفع فالنتين والآباء في المزرعة لها لتعليم أطفالهم، وكان هناك دائمًا مزيد من الأطفال.

قال رويال أن فالنتين استخدم وجهه الأبيض، وذهب إلى مقرّ المقاطعة واشترى قطع أرض لأصدقائه ذوي الوجوه السوداء. عمّال الأرض السابقين الذين جاؤوا إلى الغرب والهاربون الذين وجدوا ملاذًا في مزرعته. وجدوا غرضهم. عند مجيء فالنتين، كان هذا الجزء من إنديانا غير مأهول. ومع اندلاع المدن إلى حيز الوجود، متسارعة بالعطش

الأمريكي الذي لا هودة فيه، كانت المزرعة السوداء هناك مثل مملح طبيعي، مثل الجبال والخلجان. اعتمدت نصف المخازن البيضاء على ما تنتجه المزرعة السوداء؛ شغل سكان فالتين الساحات وأسواق الأحد لبيع مصنوعاتهم اليدوية. «إنه مكان للشفاء»، أخبر رويال كورا في قطار الشمال. «حيث بإمكانك تقييم وضعك وإجراء استعداداتك للمحطة القادمة من الرحلة».

في الليلة السابقة في تينيسي، اعتبر ريدجواي كورا ووالدتها خللاً في المخطط الأمريكي. وإذا كانت امرأتان تمثلان خللاً، فكيف بمجتمع كامل من أشباههما؟

لم يُشر رويال إلى النزاعات الفلسفية التي سادت الاجتماعات الأسبوعية. مينغو، بمشروعاته للمرحلة المقبلة في تطوير قبيلة الملونين؛ ولاندر، مع طعوناته الأنيقة لكن المهمة، لم يطرح علاجاً سهلاً. كذلك تجنّب المرشدون المسألة شديدة الواقعية المتمثلة في استياء المستوطنين البيض المتزايد من البؤر الزنجية. وقريباً ستكون هذه الانقسامات مقبولة.

مع تقدمهم السريع عبر الممر السري، معبر السفن الضيق في بحر الظلمات، حقق تأييد رويال الغرض منه. ربتت كورا بكفها على وسائد عربة القطار المريحة وقالت إن المزرعة في إنديانا تناسبها.

بقي جاستين يومين، ملأ فيهما بطنه، لينطلق إلى أقربائه في الشمال. وفي وقت لاحق بعث رسالة يصف فيها استقباله، ومنصبه الجديد في شركة البناء في كندا. وقد وقّع أبناء أخيه أسماءهم على الرسالة بحبر مختلف الألوان، تواقع مرحة وساذجة. وبعد أن طرحت فالتين

أمامها فيض المغريات، لم يُعد سؤال المغادرة يلح على كورا. فقد ساهمت في حياة المزرعة. وكان هذا هو العمل الذي تعرفه، كيف لا وهي تفهم التناغم الأساسي للزراعة والحصاد، ودروس وضرورات المواسم المتغيرة. أما رؤيتها لحياة المدينة فقد كانت غائمة - ماذا تعرف عن أماكن مثل مدينة نيويورك وبوسطن؟ لقد ترعرعت ويداها في الوحل.

بعد شهر واحد من وصولها، وعند مصب نفق الأشباح، ظلت كورا متيقنة من قرارها. كانت هي وروبال على وشك العودة إلى المزرعة عندما اجتاحتها عاصفة من أعماق النفق الغامض. كما لو كانت شيئاً يزحف نحوهما، شيئاً قديماً ومُظلمًا. بحثت عن ذراع روبال وتمسكت بها.

قالت كورا: «لماذا أحضرتني إلى هنا؟»

"لا يجب علينا التحدث عما نقوم به هنا."

"كذلك لا يجب على ركبنا التحدث عن طريقة تشغيل خط السكة الحديدية، لأنه سيتسبب في تعريض حياة كثير من الأشخاص الطيبين للخطر. يمكن أن يتحدثوا إذا أرادوا، لكنهم لا يفعلون ذلك."

عندما حكّت قصّة هروبها، أغفلت الأنفاق وأبقت على الملامح الرئيسية. كان سرّاً، لُغزاً عن ذاتك لا تحثك نفسك على مشاركته. ليس سرّاً سيئاً، لكنّه الجزء الأكثر حميمية من كينوتك، تلك التي لا يمكن فصلها عن روحك والتي ستموت متى قاسمتها.

"جئت بك إلى هنا لأنك رأيت من السكك الحديدية أكثر ممّا رأى معظم الناس"، قال روبال. «أردت منك مشاهدة كيف تتناسب تلك الأشياء معاً، أو عدم تناسبها».

"أنا مجرد راكب".

"هذا هو السبب". قال ذلك وفرك نظاراته بذيل قميصه. «السكك الحديدية السرية أكبر من مشغليها - وهي أيضًا في الوقت نفسه كل واحد منّا. الحفارات الصغيرة، وخطوط جذوع الشجر الكبيرة. لدينا أحدث القاطرات لكن المحركات عفا عليها الزمن، وعربات يدوية مثلها أيضًا. تذهب إلى كل مكان، إلى أماكن نعرفها وتلك التي لا نعلم عنها شيئًا. لقد اكتسبنا هذا النفق، الذي يعمل من تحتنا، ولا يعلم أحد إلى أين يقود. هذا إذا استطعنا المحافظة على تشغيل السكك الحديدية، دون أن يتمكن أحد من معرفة ذلك. لكن يمكنك أنت معرفة إلى أين تقود".

قالت له إنها لا تعرف سبب وجودها هنا، أو ما الذي يعنيه الأمر بالضبط. كل ما تعرفه هو أنها لا تريد أن تركز بعد الآن.

استنزف شهر نوفمبر حيويتهم مع إنديانا الباردة، لكن حدثين جعلتا كورا تنسى سوء الطقس. أولهما ظهور سام في المزرعة. عندما طرقت على مقصورتها، عانقته بقوة ولم تُفلته حتى طلب منها ذلك. ذرفا الدموع معًا. وبعد أن هدأت نفسيهما غلت لهما سيبيلا كويين من شاي الجذور.

كانت له لحية شعناء ومتشابكة ورمادية، كما نمت كرشه وكبُرَت، لكنه كان الزميل المهذار نفسه الذي شملها وسيزر بعنايته طيلة تلك الأشهر الطويلة الماضية. الليلة التي وصل فيها صائد الرقيق إلى المدينة كانت نهاية حياته القديمة. اختطف ريدجواي سيزر من المصنع قبل أن يتمكن سام من تحذيره. تلعثم صوت سام وهو يحكي لها كيف ضُرب صديقهم في السجن، وكيف التزم الصمت بخصوص رفاقه، لكن أحد الرجال قال إنه رأى الزنجي يتحدث مع سام في أكثر من مناسبة. وبسبب تخلي سام عن الحانة في منتصف نوبات عمله - وحقيقة أن بعض من في المدينة ممن عرفوا سام منذ أن كانوا أطفالاً وكرهوا طبيعته القنوعة - كانت كافية لإحراق منزله وإبادته.

"منزل جدّي. منزلي. كل ما أملك". بحلول الوقت الذي انتزع فيه الغوغاء سيزر من السجن واعتدوا عليه حتى الموت، كان سام في طريقه

إلى الشمال. دفع لبائع متجول من أجل الركوب، وفي اليوم التالي كان على متن سفينة متجهة الى ديلاوير.

وبعد مرور شهر من بقائها مدفونة تحت غطاء الليل، امتلأ العمال في مدخل النفق تحت منزله، وذلك وفقًا لسياسة السكك الحديدية. وقد تم التعامل مع محطة لومبلي بطريقة مماثلة. «هم لا يرغبون في اغتنام الفرص»، قال. أعاد له الرجال هدية تذكارية، كوبًا من النحاس انبعج بفعل النار. ورغم أنه لم يتعرف عليه، فقد احتفظ به على أي حال. "كنت عامل محطة فيما مضى. لذا وجدوا لي أشياء مختلفة للقيام بها". قاد سام هارلين إلى بوسطن ونيويورك، وقتل نفسه بحثًا عن أحدث الدراسات الاستقصائية لابتكار مسارات الهروب، كما قام برعاية الترتيبات النهائية التي من شأنها إنقاذ حياة الهارب. وحتى أنه تنكر في شخصية صائد رقيق يُدعى «جيمس أولني»، ليلتقط العبيد من السجن بحجة تسليمهم إلى أسيادهم. "مسؤولو الأمن والنواب الأغبياء أولئك. لقد أفسد التحيز العرقي ملكاتهم العقلية"، قال سام. ثم أظهر لكورا وسيبيل صوت صائد الرقيق ومشيته المتبخرة لتسليتهما.

كان قد أحضر توًا آخر بضائعه إلى مزرعة فالنتين، وهي عائلة مكونة من ثلاثة أشخاص كانوا يختبئون في نيو جيرسي. قال سام إنهم دسوا أنفسهم داخل المجتمع الملون هناك، لكن صائد العبيد ظهر في المكان، لذا حان وقت الفرار. وكانت هذه مهمته الأخيرة من أجل السكك الحديدية السرية. فقد نوى الرحيل غريًا. «كل رائد التقيته، وجدته معجبًا بنوعية الويسكي لديهم. بالتالي سوف يحتاجون سُقاة حانات في كاليفورنيا".

كان مما يبعث على ارتياحها أن ترى صديقها سعيدًا وموفور الصحة. لأن كثيرًا ممن ساعدوا كورا كانوا قد انتهوا إلى مصائر فظيعة. لم تُلقَى به إلى التهلكة.

ثم نقل لها الأخبار من مزرعتها، وهو الموضوع الثاني الذي انتزعها من لدغة برودة إنديانا.

لقد مات تيرانس راندا!

وفقًا لما قرأه وطرق أذنه، فإن انشغال مالك الرقيق بكورا وهروبها تعمق مع مرور الوقت. فأهمل شؤون المزارع. ويومًا بعد يوم انتهت حياته في المزرعة إلى مجرد حفلات قذرة في البيت الكبير وضع خلالها عبیده ضمن عروض تسلية قاتمة، مما اضطرهم ليكونوا بمثابة ضحاياه بدلًا عن كورا. واصل تيرانس في نشر إعلانات القبض عليها، وملء الإعلانات المبوبة في الولايات البعيدة يرفقها بأوصافها وتفصيل جريمتها. وقام أكثر من مرة بزيادة المكافأة الضخمة - وقد شاهد سام بنفسه هذه النشرات، وأذهل - كذلك استضاف أي صائد عبید عابر، لتقديم صورة أكمل عن الشريرة كورا وفضح ريدجواي غير الكفاء، الذي فشل أولاً مع والده وتاليًا معه.

توفي تيرانسي في نيو أورليانز، في غرفة داخل ماخور كريولي. وهن قلبه وضعف بعد أشهر من الإسراف في التهنك. «أوربما تعب قلبه بسبب أعماله الشريرة»، قالت كورا. وبعدها توقف سام عن سرد المعلومات، سألته عن ريدجواي.

لوح سام يده بالنفي. «إنه مثار استخفاف الآن. لقد كان في نهاية حياته المهنية حتى قبل...» "توقف قليلاً" «الحادثة في تينيسي».

أطرقت كورا. لم تتحدث من قبل عن فعل قتل ريد. فقد سرحته سكة

الحديد بمجرد معرفتها القصّة الكاملة. لم يزعج ريد. كانت لديه أفكار جديدة حول كيفية كسر خناق العبودية ورفض التخلي عن أسلحته. «بمجرد أن طرح المحرّث عن يده، لم يعد ذلك الشخص الذي يمكن أن يعود إلى الورا»، قال رويال. كان رويال حزينًا لرؤية صديقه يركب مبتعدًا، لكن لم تكن هناك وسيلة أخرى لتقريب أساليهما، ليس بعد حادثة تينيسي. تم التغاضي عن قتل كورا للصبي واعتُبر دفاعًا عن النفس، أما دمويّة ريد المجرّدة فقد كانت مسألة أخرى.

مَيّل ريدجواي للعنف وهوسه الغريب جعل من الصعب عليه العثور على رجال على استعداد للركوب معه. سُمعته القذرة، بجانب وفاة بوسمان، والإذلال بسبب هزيمته من قِبَل زنوج خارجين عن القانون، حولته إلى منبوذ بين أترابه. نعم ما يزال كلّ شريف يتبع لتينيسي يبحث عن القتلة، لكن ريدجواي كان خارج عملية المطاردة. ولم تُسمع أخباره منذ الصيف.

"ماذا عن الصبيّ، هوميروس؟"

ما سمعه سام عن المخلوق الصغير الغريب كان قليلًا. فهو الذي في نهاية المطاف جلب المساعدة لصائد الرقيق، هناك في الغابة. لم يفد أسلوب هوميروس الغريب شيئًا بالنسبة لسمعة ريدجواي - حيث غدت علاقتهما التخمينات غير اللائقة. وعلى أي حال، اختفى الاثنان معًا، لكن رباطهما لم ينقطع بسبب تلك الاعتداءات. «مصريهما يقودهما إلى كهفٍ بارد منعزل»، قال سام، «مثل كل حثالة لا قيمة لها». بقي سام في المزرعة مدّة ثلاثة أيام، يسعى وراء جورجينا دون جدوى. فترة طويلة بما فيه الكفاية ليحضر كرتفال تقشير الذرة.

تكشفت المنافسة في ليلة اكتمال القمر الأولى. قضى الأطفال النهار كله في ترتيب الذرة ضمن كومتين ضخمتين، أحيطت كل منهما بأوراق شجر حمراء. قاد مينغو أحد الفريقين - "للسنة الثانية على التوالي"، قالت سيبيل مستنكرة. اختار فريقه من الخلفاء، ولم يهّمه تمثيل مجتمع المزرعة الواسع. بينما جمع ابن فالنتين الأكبر، أوليفر، مجموعة متنوعة من العمّال ضمت القادمين الجُدد والقدامى. وختم أوليفر بالقول: «وضيفنا الموقر، بطبيعة الحال»، وأشار ناحية سام. أطلق طفل صغير صافرة البداية وبدأت عملية التقشير بجنون. جائزة هذا العام عبارة عن مرآة فضية كبيرة جلبها فالنتين من شيكاغو. وقفت المرآة منتصبة بين الكومتين، ملفوفة بشريط أزرق، تعكس الوميض البرتقالي للقرع المضيء «فوانيس جاك». هتف قائدا الفريقين وأعطيا الأوامر لرجالهما، في حين يهتف الجمهور ويصفق. قام عازف الكمان بعزف ألحان مرافقة سريعة ومضحكة. وسار الأطفال الأصغر حول الأكوام، يلتقطون القشور، وأحيانا حتى قبل أن تلمس الأرض. "احصلوا على تلك الذرة!"

"من الأفضل أن تعجلوا في ذلك المكان!"

جلست كورا على جانب الحشد تُراقب، بينما بجانبها رويال يضع يده على فخذهما. كانت قد سمحت له بتقبيلها في الليلة السابقة، فاغتمها، ليس دون سبب، بل كمؤشر إلى أنّ كورا قد سُمح له أخيرا باتخاذ خطوة تالية. قالت إنها تريد منه الانتظار. وكان قادرا على الانتظار أكثر. لكن تقرير سام عن موت تيرانسي الآن عريكتهما، حتى أنها وُلدت داخلها رؤى شريرة. تصوّرت سيدها السابق معقودا بأقمشة من الكتان، وبرز من شفثيه لسان أرجواني، وهو يصرخ طالبًا نجدة لم تصل. يذوب في

فقاعة دموية داخل تابوته، ومن ثم يتم تعذيبه في جحيم رؤيا يوحنا. كان هذا هو الجزء من الكتاب المقدس الذي آمنت به كورا، على الأقل، فقد كان يصف مزرعة العبيد بلُغة مجازية.

"لم يكن هذا حصاد راندال"، قالت كورا. «كان القمر كاملاً لحظة اقتلنا من الجذور، لكن على الدوام كان هناك دم".

"لم تعود مع راندال"، قال رويال. «أنتِ إنسانة حُرّة".

لم يغيّر ذلك من مزاجها. همست «كيف يكون ذلك؟ الأرض هي مُلكيّة. والأدوات كذلك مُلكيّة. شخص ما سيبتاع مزرعة راندال في مزاد علني، بما فيها من عبيد، أيضا. يظهر الأقرباء دوماً عندما يموت شخص ما. ما زلتُ مُلكيّة، حتى في إنديانا».

"لن يكلف ابن عمّ لآل راندال نفسه عناء إعادتك، ليس كما فعل"، قال رويال. "أنتِ إنسانة حُرّة".

انضمّ رويال إلى الغناء لتغيير الموضوع وتذكيرها بأن هناك أشياء يمكن أن يشعر حيالها الجسد بطريقة جيّدة. مثل مجتمع يجتمع معاً، من بذار الذرة وحتى حصادها. لكن الأغنية كانت نشيدَ عملٍ حفظته كورا من صفوف جمّع القطن، الأمر الذي أعادها مرة أخرى إلى قسوة مزرعة راندال وجعل قلبها يهدر. فقد اعتاد كونيلي على استخدام الأغنية كإشارة للعودة إلى قطف القطن بعد توقف الجلد بالسياط.

كيف يمكن لمرارة كهذه أن تصبح وسيلة للمتعة؟ كل شيء في فالنتين كان نقيضاً. لا يحتاج العمل إلى جعلك تعاني، بل هو شيء يستطيع توحيد الناس. طفل مُشرق مثل تشيستر قد ينمو ويزدهر، كما فعلت مولي وصديقاتها. وحيث تقوم الأم بتربية ابنتها بمحبة وطيبة. روح جميلة مثل سيزر يمكنها أن تصير أي شيء أرادته في هذا المكان، يمكن

تحقيق أمانيه كل شيء: أن يمتلك مزرعة ماشية، وأن يصير معلّم مدرسة، وأن يكافح من أجل حقوق الملونين. وقد يصبح شاعرًا حتى! في أثناء بؤسها في جورجيا كانت قد تخيلت الحرية، لكنها لم تكن على هذه الشاكلة. كانت الحرية مجتمعًا يعمل من أجل شيء جميل ونادر. ربح مينغو. جعله رجاله على رأس أكوام من أكواز الذرة العارية، وهتفوا بصوت أجش. قال جيبي إنه لم يرقّ رجلًا أبيض يعمل بجدّ، ابتسم سام ببهجة. غير أن جورجينا ظلت بعيدة المنال.

في يوم رحيل سام، احتضنته كورا وقبّلت خدّه المليء بالشعر. قال إنه سيُرسل مذكرة عندما يستقر، أينما كان.

كانوا في توقيت النهارات القصيرة والليالي الطويلة. زارت كورا المكتبة كثيرًا مع تحول الطقس. وجلبت مولي معها عندما استطاعت اقناع الفتاة. جلسا بجانب بعضهما، كورا مع كتب تاريخية أو رومانسية، ومولي تقلّب صفحات قصّة خرافية. ذلّت يوم أوقفهم سائق شاحنة وهما على وشك الدخول. «قال سيدي إن الشيء الوحيد الأكثر خطورة من زنجي يحمل بندقية»، خاطبهم قائلاً، «هو زنجي يحمل كتابًا. بالتالي، يجب أن ينتج عن هذا كومة كبيرة من مسحوق أسود!» عندما اقترح بعض السكّان، يملؤهم شعور الامتنان، إنجاز بناء ملحقٍ لبيت فالنتين تُخصّص لكُتُبِه، اقترحت غلوريا مبنًى منفصلاً. "وبهذه الطريقة، يكون بمقدور أي شخص يحمل عقلاً أن يقتني كتابًا في أوقات فراغه». وبالتالي ستحظى الأسرة بمزيد من الخصوصية. كانوا أسخياء، لكن كان هناك حدّ.

وُضعت المكتبة جوار معمل الدخان. وكانت الغرفة تنضح برائحة دخان لطيفة عندما جلست كورا على واحد من الكراسي الكبيرة صُحبة كتب

فالتنتين. أخبرها رويال إنها أكبر مجموعة من الأدب الزنجي، مجموعة هنا في هذا الجانب من شيكاغو. لم تعرف كورا ما إذا كان ذلك صحيحًا، لكنها بالتأكيد لم تفتقر لموادّ القراءة. وبصرف النظر عن الرسائل عن الزراعة وزراعة المحاصيل المختلفة، كانت هناك صفوف متراصة عن التاريخ. طموحات الرومان وانتصارات الموريتين، والخلافات الملكية لأوروبا. مجلّدات ضخمة تحتوي على خرائط لأراضي لم تسمع عنها كورا قط، خطوط عريضة لعالم غير مقهور.

أدب متنوع للقبائل الملونة. وتقارير عن الإمبراطوريات الأفريقية ومعجزات العبيد المصريين الذين أقاموا الأهرامات. كان نجّاروا المزرعة من الحرفيّين المهرة - فقد كان عليهم أن يُبقوا على كل تلك الكتب في مكانها حتى لا تقفز عن الأرفف، بما تضمّها من عجائب كثيرة. كتيّبات نثرية لشعراء زنوج، وسير ذاتية لخطباء ملونين: فيليس ويتلي، وجوبيتر هامون. كان هناك رجل يدعى بنيامين بانيكير، وهو الذي قام بتأليف روزنامة - روزنامة! لقد التهمتّها كلها - وعملت ككاتم سرّ لتوماس جيفرسون، الذي صاغ إعلان الاستقلال.

وضع الناس كل ذلك على الورق داخل غرف صغيرة. بعضهم كانت له بشرة داكنة مثلها. كانت كمن يضع رأسه في الضباب في كل مرة تفتح فيها باب المكتبة. وقالت إنه وجب عليها أن تبدأ إذا كانت ستقرؤها كلها. كان فالتنتين ينضم لها في وقت الظهر. كانت لكورا علاقة ودية مع غلوريا، الذي أسمت كورا «المغامرة»، وذلك بسبب تعقيدات رحلتها الكثيرة، لكنها لم تتحدث إلى فالتنتين، زوج غلوريا، بأكثر من إلقاء التحيّة. إن ما تدين به له ضخماً بطريقة يعسر تفسيرها، لذلك تجنّبته تمامًا.

"لم أكن هناك قط - القصص قاتمة جدًا، وأنا عُرضة لخسارة أعصابي وجعل زوجتي أرملة".

ردّت كورا بابتسامة. كان يأتي في أشهر الصيف، لرعاية الذرة الهندية. ورغم معرفة عمّال الحقل عن زراعة النيلي، والتبغ والقطن - بطبيعة الحال، لكن الذرة كان وحشهم الخاص. كان لطيفًا وصبورًا في تعليماته. ومع تغيّر الموسم غدى شحيحًا. وقال الناس إنه يشعر بالضعف. يقضي معظم وقته في منزل المزرعة، يقوم بجرد حسابات المزرعة. تجوّل بين أرفف الخرائط. الآن بعد أن ضمّتهما الغرفة نفسها، اضطرت كورا إلى تدارك أشهر صمتها. وسألته بخصوص تحضيرات الاجتماع.

"نعم، هذا هو الأمر". قال فالنتين.

"هل تعتقد أنه سيقام؟"

"لابدّ من ذلك"، قالت كورا.

كان الاجتماع قد أُرِجى مرتين بسبب محاضرات لاندر العامة. كانت طاولة مطبخ فالنتين هي من شهدت بداية ثقافة السّجال في المزرعة، عندما كان فالنتين وأصدقائه - وفي وقت لاحق، الباحثون الزائرون والمنادون بإلغاء العبودية - يجلسون بعد منتصف الليل في الماضي ويتجادلون حول مسألة الملّونين. الحاجة إلى مدارس تجاريّة ومستشفيات للملّونين، والحصول على صوت في الكونغرس، إن لم يكن ممثّل، ثم تكوين تحالف قوي مع البيض ليبراليّ التفكير. كيف يمكن إلغاء ضرر العبودية على الملّكات العقلية - لأن كثيرًا من الرّجال ما يزالوا مستعبدين حتى بعد تحريرهم بسبب الفظائع التي تعرّضوا لها.

أصبحت محادثات العشاء بمثابة طقوس، ثم نمت بحيث صارت أكبر

من حجم المنزل وهاجرت إلى بيت الاجتماع، حيث توقفت غلوريا عن تقديم الطعام والشراب وسمحت لهم بالاعتناء بأنفسهم. تبادل أولئك الذين يفضلون رؤية أكثر تدرجاً لتقدم الملونين تعليقاتٍ لاذعة مع الذين يدافعون عن جدول زمني أكثر إلحاحاً وسُرعة. وعندما وصل لاندر - الملون الأكثر جلالاً وبلاغَةً بين من رأى الجميع - اعتمدت المناقشات طابعاً أكثر محلية. كان اتجاه الأمة قضية؛ ومستقبل المزرعة قضية أخرى.

قال فالنتين «يعدنا مينغو بأنها ستكون مُناسِبةً لا تُنسى. مسرحية خطابية. في هذه الأيام، أمل أن يُنجزوا مسرحية في وقت مبكر حتى أستطيع التقاعد في ساعة لائقة». متعباً بسبب ضغوط مينغو، تخلى فالنتين عن تنظيم المناقشة.

عاش مينغو في المزرعة فترة طويلة، وعندما جاءت فرصة مخاطبة طعون لاندر، كان من الجيد أن تأتي من قِبَل صوت محلي. لم يكن متحدثاً بارعاً، لكن كعبد سابق تحدّث عن جزء كبير من المزرعة. استغلّ مينغو التأخير للضغط من أجل تحسين العلاقات مع مُدُن البيض. مبتعداً بعض الشيء عن معسكر لاندر، ليس لأن ما كان يدور في خلد لاندر واضح تماماً، بل كان لاندر صادق الحديث لكنه مهم.

"ماذا لو قرروا مغادرتنا المكان؟" فوجئت كورا بصعوبة حشدها الكلمات. «هم؟ أنتِ واحدة منا». جلس فالنتين على الكرسي الذي تفضّله مولي عندما تأتي. بتفصيل أكثر، كان من الواضح أن حمل عبء كثيرٍ من النفوس قد تسبّب في خسائرها. كان الرجل يُرهقها. قال «قد يكون الأمر خارج إرادتنا. ما بنيناه هنا... هناك كثير من البيض الذين لا يريدون لنا امتلاك هذا. حتى إذا لم يساورهم الشكّ في تحالفنا مع السكك الحديدية. انظري حولك. إذا كانوا يقتلون

عبدًا لأنه يحاول تعلّم الحروف، هل تعلمين شعورهم بخصوص المكتبة؟ نحن الآن في غرفة مليئة بالأفكار. أفكار كثيرة جدًا على رجل ملون، بل وامرأة ملونة أيضًا".

لقد حان وقت اعتزاز كورا بالثروة المستحيلة لمزرعة فالنتين، بحيث نسيت تمامًا أنها كانت مستحيلة. المزرعة والجوار يُديره ملونون. كانت الفوائد كبيرة جدًا، مزدهرة جدًا. جُيب من السواد في قلب الدولة الفتية. أصبح تراث زواج فالنتين مشهورًا لسنوات. شعر البعض بالخداع لأنهم تعاملوا مع الزوج على قدم المساواة، وبعد ذلك أصابهم الغرور، فقد فضحهم الزنجي بنجاحه.

أخبرت فالنتين عن حادثة وقعت الأسبوع الماضي، حينما أوشكت عربة أن تدوسها أثناء سيرها في الطريق. نَعَمُ السائق بأقذع الشتائم وهو ينطلق في مسيره. لم تكن كورا الضحية الوحيدة لسوء المعاملة. فقد بدأ الوافدون الجدد للمُدن المجاورة، والبيض المشاغبون والمنحطون، في اختلاق المشاكل عندما يأتي سكان المزرعة للحصول على إمداداتهم، إلى درجة أنهم تحرّشوا بإحدى الشابات. وفي الأسبوع الماضي علّق متجرًا أغذية لوحةً خشبية كُتب عليها "للبيض فقط". لقد جاء كابوس الجنوب للمُطالبة بهم.

"نملك حقًا قانونيًا كمواطنين أمريكيين في التواجد هنا"، قال فالنتين. لكن قانون الرقيق الهارب كان حقيقة قانونية أيضًا. فقد يعقّد تعاونهم مع السكك الحديدية السرية الأمور. لم يظهر صيادو الرقيق كثيرًا، لكن هذا لا يعني أن أخبارهم كانت غير مسموعة. في الربيع الماضي، ظهر اثنان من الصيادين مع مذكرة لتفتيش كل بيت في المزرعة. كانت طريدتهم قد غادرت منذ فترة طويلة، لكن ذكري دوريات

الرقيق كشفت عن الطبيعة المتزعزعة لأرواح السكّان، فقد تبوّأ أحد الطّهاء -مثلاً- في مقاصفهم عندما تهبوا الكبائن.

"إنديانا كانت عبودية"، أضاف قائلاً... "هذا الشرّ يتخلّل تربتها. يقول البعض إنّه يتشعّب ويزداد قوّة. ربما هذا ليس المكان الملائم. ربما يجب على غلوريا وأنا المضيّ إلى ما بعد فرجينيا".

"أشعر بذلك عندما أذهب في الوقت الراهن إلى المدينة. أرى تلك النظرة في عيونهم وأدركها". لم يكن فقط تيرانسي وكونلي وريدجواي هم من ميّزتهم، أي الوحوش بين البيض. بل شاهدت وجوه حديقة كارولاينا الشماليّة التي كانت تراها خلال النهار، وفي الليل عندما يتجمعون لمشاهدة الأعمال الوحشية. وجوه بيضاء مستديرة تشبه حقلاً لا نهائياً من لوزات القطن، تتشابه جميعها.

مأخوذاً بتعبير كورا الكئيب، أخبرها فالنتين: "أنا فخور بما شيدناه هنا، لكننا بدأنا في السابق أكثر من مرّة في مشاريع أخرى. وبإمكاننا البدء مجدّداً. الآن لدي ولدان أقوياء لمساعدتي، كما أننا سنتحصّل على مبلغ مُجزٍ من بيع الأرض. لقد أرادت غلوريا دائماً رؤية أو كلاهوما، رغم أنني لا أعرف السبب. لكن سأحاول إسعادها هناك".

"هذا إذا بقينا"، قالت كورا، «فلن يسمح مينغو ببقاء أمثالي، الهارين، أولئك الذين ليس لديهم مكان يذهبون إليه".

"النقاش جيّد»، قال فالنتين. «النقاش ينقّي الهواء ويخلقه، فتتمكنين من رؤية حقيقة الأشياء. سنرى الطابع الذي ستكون عليه المزرعة. هي ملكيّتي، لكنها ملك الجميع أيضاً. ملكك أنت. وسألتزم بقرار الشعب".

رأت كورا أن النقاش قد استنزفه. «لماذا يحدث كل هذا»، سألت. «لماذا يحدث لنا كلنا؟".

"أرى أنك من بين الأذكياء. ألا تعرفين لماذا؟ إنّ الرجل الأبيض لن يفعل لنا ذلك. علينا القيام بذلك بأنفسنا".

دخل مُزارع يبحث عن كتابٍ معيّن، لكنّه غادر صفر اليدين. صفرت الرياح من خلال الباب المفتوح، فسحبت كورا شالها الصغير. إذا بقيت للقراءة، فستختار كتابًا آخر بحلول وقت العشاء.

انعقد الاجتماع النهائي في مزرعة فالنتين في واحدة من ليالي ديسمبر المنعشة. في السنوات القادمة، تبادل الناجون رواياتهم عمّا حدث في ذلك المساء، وأسبابه. حتى مماتها، أصرت سيبيل على أن مينغو كان المُخِير. وقتها كانت هناك سيّدة مسنّة، تعيش قرب بحيرة ميشيغان مع عُصبة من الأحفاد الذين اضطرّوا للاستماع إلى قصصها المألوفة. وفقًا لسبيل، أخبر مينغو مسؤولي الأمن أن المزرعة تؤوي الهاربين ومدّهم بتفاصيل الكمين الناجح. كان من شأن الغارة الدراماتيكية أن وضعت حدًا للارتباطات مع السكك الحديدية، والتيار اللانهائي للزواج المعوزين، وكذلك لضمان بقاء المزرعة فترة أطول. وعندما سُئلت عمّا إذا كانت تتوقع العنف، زمّت شفيتها دون ذكر أي شيء.

رصد ناجٍ آخر - توم الحدّاد - أن القانون طارد لاندر عدّة أشهر. فقد كان الهدف المقصود. ألهمت خطب لاندر المشاعر. وأثارت التمرد. وكان شديد الغرور بالنسبة لهم ليسمحوا بتركه حرًا. لم يتعلم توم القراءة أبدًا لكن أحبّ أن يُظهر للناس نسخته من مجلّد انتقادات لاندر، الذي وقّعه له الخطيب الكبير بنفسه.

وُلدت جوان واطسون في المزرعة. كانت في السادسة من عمرها في

تلك الليلة. وفي أعقاب الهجوم تجولت في الغابة ثلاثة أيام، تمضغ جوز البلوط، حتى اكتشفتها عربات خيول. عندما تقدّمت في السن، وصفت نفسها بتلميذة التاريخ الأميركي، التي تتفق مع حتميته. قالت إن المدن البيضاء تجمعت معًا لتخلّص نفسها من المَعْقَل الأسود الموجود في وسطهم. وهذه هي الطريقة التي تعمل بها القبائل الأوروبية: إذا لم يتمكنوا من السيطرة على شيء، دمّروه.

لم يكن لأي شخص في المزرعة عِلْم بما سيحدث، لم يلحظوا أيّ إشارة. فقد بدأ يوم السبت كسولاً هادئاً. قضت كورا معظمه في غرفة نومها مع أحدث روزنامة منحها رويال لها. كان قد وجدها في شيكاغو. طرق بابها عند منتصف الليل لإعطائها الدفتر. فقد كان على علم بأنها مستيقظة. كان الوقت متأخراً ولم ترغب في إزعاج سيبيل ومولي. فأخذته كورا إلى غرفتها للمرة الأولى.

انهارت عندما اطلّعت على روزنامة العام المقبل، سميكة مثل كتاب الصّلاة. كانت كورا قد أخبرت رويال عن أيّامها في العليّة في كارولينا الشمالية، لكن رؤية تاريخ السنة على الغلاف - كائن مستوحى من المستقبل - حفّزت كورا لإطلاق سحرها الخاص. أخبرته عن طفولتها في مزرعة راندال حيث كانت تلتقط القطن، وتسحب الجوانات. وعن جدتها أجاري التي اختطفت من عائلتها في أفريقيا، وعن حرمها لزاوية صغيرة من الأرض، كان الشيء الوحيد الذي دعتة مُلكيتها. تحدّثت كورا عن والدتها مابل التي فرّت في أحد الأيام وتركتها إلى تقلّبات رحمة العالم. وعن بليك وبيت الكلاب وكيف واجهته بفأسها. عندما أخبرت رويال عن الليلة التي أخذوها فيها خلف مدخنة المزرعة واعتذرت لتركها ذلك يحدث، طلب منها ألا تواصل حديثها. قالت إنّها من تستحق

الاعتذار عن كل جراحها. وأخبرها أن كل واحد من أعدائها، جميع السادة والمشرفين على معاناتها، سيعاقبون، إن لم يكن في هذا العالم ففي التالي، لأن العدالة قد تكون بطيئة وغير مرئية، لكنها دائماً ما تُصدر حكمها الحقيقي في النهاية. طوى جسده نحوها لتهدئة ارتعاشاتها وتهداتها فسقطوا نائمين على هذه الصورة، في الغرفة الخلفية من المقصورة في مزرعة فالنتين.

لم تكن تؤمن بما قاله عن العدالة، لكن كان من الجميل أن تسمعه يتحدث عن ذلك.

لذا استيقظت في صباح اليوم التالي وشعرت بشعور أفضل، وكان عليها الاعتراف أنها صارت تؤمن بما قاله عن العدالة، ربما قليلاً.

مع شكها بأن كورا مستلقية مع واحدة من نوبات صداعها، جلبت سبيل لها بعض الطعام بحلول الظهيرة. ومازحت كورا حول قضاء رويال الليلة معها. كانت تقوم بإصلاح اللباس الذي تريد ارتدائه في الاجتماع عندما «أتى متسللاً يحمل حذاءه بيديه ويخطو مثل كلب سرق فضلات الطعام!» اكتفت كور بالابتسام.

قال سيبييل: "فتاك ليس الوحيد الذي أتى الليلة الماضية"، فقد عاد لاندر.

هذا يفسر أسباب مرح سيبييل. فقد كانت مُعجبة بلاندر أيما إعجاب، بحيث تمنحها كل واحدة من زيارته قوة لأيام متتالية. بكلماته المعسولة. الآن كان قد عاد أخيراً إلى فالنتين. وسوف يُقام الاجتماع غير المعروف العواقب. لم ترغب سيبييل في ترك منزلها والرحيل غريباً، وهو الحل الذي افترض الجميع أنه اقتراح لاندر. فقد كانت تصرّ على البقاء منذ أن بدأ الحديث عن إعادة التوطين. لكنها لم تلتزم بشروط

مينغو، بأن يتوقفوا عن توفير المأوى لمن هم في حاجة إليه. «لا وجود لمثل هذا المكان، ليس في أي مكان. وهو يريد القضاء عليه».

"لن يدعهم فالنتين يفسدونها"، قالت كورا، فبعد حديثها مع الرجل في المكتبة بدا أنه قد حزم الأمر في ذهنه.

"سنرى"، قالت سيبيل. «ربما عليّ أن أتحدث بنفسني، وأخبر هؤلاء الناس ما يحتاجون سماعه».

في تلك الليلة جلس رويال وكورا في الصف الأمامي بجوار مينغو وعائلته، الزوجة والأطفال الذين أنقذهم من العبودية. كانت زوجته، أنجيلا، صامته، كما هو الحال دائمًا. إذا أردت سماعها تتكلم، عليك أن تختبئ تحت نافذة مقصورتهم الخاصة وتسمعها وهي تنصح رجلها في سرية. ارتدت بنتا مينغو فستانين أزرقين زاهيين، وكانت ضفائرها الطويلة مجدولة بأشرطة بيضاء. لعب لاندر ألعاب التخمين مع صبيّة صغيرة بينما سگان المزرعة يتوافدون إلى قاعة الاجتماعات. كان اسمها أماندا. كانت تحمل في يدها باقة من أزهار صناعيّة. ألقى بنكتة عنهما فانفجرا بالضحك. عندما تقبض كورا على لاندر في لحظة مثل هذه، في الفترات الوجيزة بين العروض، كان يذكرها بمولي. فرغم حديثه الودي والاجتماعي، كانت على قناعة أنه يفضل التواجد في المنزل وحيدًا، ويقوم بعزف مقطوعات موسيقية في غرف فارغة.

كانت له أنامل رفيعة رقيقة. كم كان غريبًا لشخص لم يقطف لوزات القطن أو يحفر خندقًا أو يختبر سياط العبيد أن يقوم بالتحدّث باسم أولئك الذين تحدّث حياتهم بتلك الأشياء. كان هزيل الجسد، ذا بشرة متوهّجة تُعلن عن نسبه المختلط. لم تره قط مندفعًا أو على عجل. فالرجل يتحرك بهدوء رائع، مثل ورقة تنجرف على سطح بركة،

وهي تصنع مسارها الخاص بين التيارات اللطيفة. ثم يفتح فمه، لتر أن القوى التي توجهه أثناء وجودك لم تكن لطيفة على الإطلاق.

لم يكن هناك زوار من البيض في هذه الليلة. كل من يسكن ويعمل في المزرعة سجّل حضوره، وكذلك أسر من مزارع الملونين المجاورة. رؤية كل هؤلاء في غرفة واحدة، جعلت كورا تفكر لأول مرة عن كم كان حجمهم كبيرًا. كان هناك أشخاص لم يسبق لها رؤيتهم من قبل، مثل الصبي الصغير المزعج الذي غمز في وجهها عندما التقت أعينهم. غرباء لكنهم أسرة واحدة، أبناء عمومة لكن لم يتم تقديمهم بعضهم إلى بعض بصورة رسمية. كانت محاطة برجال ونساء وُلدوا في أفريقيا، أو وُلدوا في القيود، ممن حرّروا أنفسهم أو هربوا. تم وسمهم بالنار، وضربوا، وأغثصبوا. لكنهم موجودون هنا الآن. كانوا أحرارًا وسود وأمناء على مصائرهم الخاصة. هذه الفكرة سببت لها الرعدة.

سيطر فالنتين على المنصة للحصول على دعم. «لم أترعرع بالطريقة التي نشأتم بها»، قال. «ولم تخش والدتي قط على سلامتي. لم يكن هناك تاجر ينتزعي في الليل ويبيعني في الجنوب. رأى البيض لون بشرتي، وكان هذا كافيًا لتركي وشأني. قلت في نفسي أنني لن أقترف شيئًا خاطئًا، لكنني سلكت معظم أيام حياتي في الجهل. حتى جئتُ إلى هنا وصنعنا الحياة معًا».

قال إنه غادر فيرجينيا لتجنيب أطفاله ويلات التحيز وشريكه المتنمر، لتجنيبهم العنف. لكن إنقاذ طفلين لا يكفي عندما يهيك الله الكثير. «جاءتنا امرأة في أيام الشتاء اللاذع. كانت مريضة ويائسة. لم تتمكن من إنقاذها.» اصطك صوت فالنتين. "لقد أهملتُ واجبي. وطالما عانى أحد أفراد عائلتنا من عذاب العبودية، فستظل حريتنا شكلية

فقط. أودّ أن أعرب عن امتناني للجميع هنا لمساعدتي على وضع الأمور في نصابها. سواء من عاش بيننا سنواتٍ طويلة أو بضع ساعات، لقد أنقذتم حياتي». تعثّر الرجل فلحقت به غلوريا وضمت جسده إليها. «الآن بعض أفراد عائلتنا لديهم ما يريدون مشاركته معكم»، قال فالتين. «أمل أن تستمعوا إليهم مثلما استمعتم إلي. هناك مكان كاف للمفاهيم المختلفة عندما يتعلّق الأمر برسم مسارنا خلال البريّة. عندما يكون الليل مظلمًا وملئيًا بالأقدام الغادرة». ترجّل مؤسس المزرعة من المنصة وحل مينغو مكانه. تعقّب أطفال مينغو أباهم، وقبّلوا يديه متمنين له حسن الحظ قبل أن يعودوا إلى مقاعدهم الخشبية.

ابتدأ مينغو بقصّة رحلته، والليالي التي قضها سائلًا الرب الرُّشد، والسنوات الطويلة التي استغرقته لشراء حرية عائلته. «بعملي الشريف، واحدًا تلو الآخر، تمامًا مثلما أنقذتم أنفسكم». فرك عينيه بمفصل إصبعه.

ثم غير مسار حديثه. «لقد حققنا المستحيل»، قال مينغو، «ومع ذلك لم يمتلك الجميع الشخصية التي حققناها. لم ننجح جميعًا في ذلك. إذ ذهب بعضنا بعيدًا جدًّا. حيث عقّدت العبودية عقولهم، وملأتها بالأفكار الفاسدة. لقد أسلموا أنفسهم إلى الويسيكي ووسائل الراحة الكاذبة. اليأس وشياطينه الراسخة. وقد رأيتهم هؤلاء الضالين في المزارع، في شوارع المدن والحواضر – أولئك الذين لم، ولن يقدرُوا ذواتهم. لقد رأيتموهم هنا، يتلقّون هبة هذا المكان لكنهم غير قادرين على التناغم. يختفون دائمًا أثناء الليل لأنهم يدركون في قرارة أنفسهم أنهم غير جديرين. لقد فات الأوان بالنسبة لهم».

هلّل بعض مؤيديه في الجزء الخلفي من الغرفة. "هناك حقائق يجب

أن نواجهها،" أوضح مينغو. "لن يتغير البيض بين عشية وضحاها. أحلام المزرعة صائبة وجديرة، لكنها تتطلب نهجًا تدريجيًا. لا يمكننا إنقاذ الجميع والتصرف كما لو كنا نستطيع أن نؤذي جميع الموجودين هنا. هل تعتقدون أن البيض - الموجودين على بُعد بضعة أميال من هنا - سوف يتحملون وقاحتنا إلى الأبد؟ نحن نتباهى بضعفهم. نُؤوي الفارزين. يأتي وكلاء السكك الحديدية السرية بينادقهم ويذهبون. بيننا مطلوبون بسبب ارتكابهم جرائم قتل. مجرمين». جمعت كورا قبضتها عندما التقت بنظرة مينغو التي حدجها به.

قال إن مزرعة فالنتين اتخذت خطوات مَجيّدة نحو المستقبل. قدّم المتبرّعون البيض الكتب المدرسيّة لأطفالهم - لماذا لا يطلبون منهم تمرير القبعات للمدارس بأكملها؟ وليس فقط مدرسة أو اثنتين، بل عشرات المدارس الأخرى؟ قال مينغو أنه من خلال إثبات اقتصاد وذكاء الزنجي سوف يدخل المجتمع الأمريكي كعضو منتج يتمتع بحقوق كاملة. "لَمْ يجب علينا المغامرة بخسارة كل ذلك؟"

"نحن بحاجة إلى إبطاء الأمور. علينا أن نتألف مع جيراننا، والأهم من ذلك كله، وقّف الأنشطة التي من شأنها تسليط غضبهم علينا. لقد بنينا شيئًا مذهلاً هنا"، اختتم حديثه. «لكنه شيء ثمين، ويحتاج الحماية، والتغذية، وإلا سوف يتلاشى، مثل وردة في الصقيع المفاجئ».

خلال التصفيق، همس لاندرا لابنة مينغو وضحكا مجددًا. أخرجت إحدى الزهور القماشية من باقتها وثبتها في الجزء العلوي من بذلته الخضراء. تظاهر لاندرا أنه يشتمّ الرائحة الوهمية ويُصاب بالإغماء. "لقد حان الوقت"، قال رويال بينما يصفح لاندرا يد مينغو، ويأخذ مكانه في المحاضرة. كان رويال قد أمضى اليوم معه، يتزّهان ويتحدثان.

لم يخبرها رويال بما سيتحدث به لاندر الليلة، لكنه كان متفائلاً. سابقاً، عندما طُرح موضوع الانتقال، قال رويال لكورا أنه يفضل كندا على الغرب. وأضاف، «إنهم يعرفون كيفية التعامل مع الزوج الأحرار هناك». سألته عن عمله مع السكك الحديدية؟ أخبرها رويال أنه عليه الاستقرار في وقت ما. ليس بإمكانه بناء أسرة بينما يتنقل خلال مهام السكك الحديدية. غيرت كورا الموضوع عندما بدأ يتحدث بتلك الطريقة. الآن سوف ترى بنفسها - جميعهم سيرون - ما كان في ذهن الرجل البوسطوني. قال لاندر، "لقد طرح الأخ مينغو بعض النقاط الجيدة. لا يمكننا إنقاذ الجميع. لكن هذا لا يعني أنه ليس بمقدورنا المحاولة. في بعض الأحيان يكون الوهم المفيد أفضل من الحقيقة عديمة الفائدة. لا شيء سينمو في هذا البرد اللئيم، لكن ما تزال الزهور هناك."

"أحد الأوهام هو أنه بمقدورنا الهرب من العبودية. لا يمكننا ذلك. لن تتلاشى ندوبها أبداً. ندبة رؤيتك أمك ثباع، وندبة ضرب والدك أمامك، وندبة مضاجعة أختك من قبل رئيس أو سيد، هل سبق لك الاعتقاد أنك ستجلس هنا اليوم، دون أغلال، دون نير، بين عائلة جديدة؟ كل شيء كنت تعرفه كان يخبرك أن الحرية خدعة - وبعدها ها أنت هنا. لكننا ما زلنا نهرب، وتتبع مسارات القمر الكامل نحو الملاذ الآمن."

"مزرعة فالنتين وهم. من الذي أخبركم أن الزوج يستحقون مكاناً يلتجأوا إليه؟ من قال لكم أن لديكم هذا الحق؟ كل دقيقة معاناة في حياتكم أخبرتكم بخلاف ذلك. كل حقيقة من حقائق التاريخ تثبت أن هذا المكان ليس موجوداً. هذا المكان وهم أيضاً. لكن ها نحن هنا."

"أميركا أيضاً وهم، أضخم خدعة بين جميع تلك الخدع. يعتقد العرق الأبيض - يؤمنون بكل قلوبهم - أن من حقهم أخذ الأرض. يقتلون

الهنود. يُشعلون حريقًا. يستعبدون إخوتهم. هذه الأمة لا ينبغي أن توجد، إذا كانت هناك أيّ عدالة في العالم، لأنّ أُسسها هي القتل والسرقة والقسوة. لكن ها نحن هنا."

"من المفترض أن أجيب على دعوة مينغو للتقدّم التدريجي، لإغلاق أبوابنا في وجه أولئك المحتاجين. من المفترض أن أجيب عن أولئك الذين يعتقدون أن هذا المكان قريب جدًا من التأثير الخطير للعبودية، وأننا يجب أن نتحرك نحو الغرب. ليس لدي جواب لكم. أنا لا أعرف ما يجب علينا القيام به. الكلمة هي نحن. في بعض النواحي، الشيء الوحيد المشترك بيننا هو لون بشرتنا."

"جاء أسلافنا من جميع أنحاء القارة الأفريقية. إنها كبيرة جدًا. الأخ فالتين لديه خرائط العالم في مكتبته الرائعة، يمكننا أن نتحدثوا بأنفسكم. كانت لديهم طُرُق مختلفة للعيش، عادات مختلفة، ويتحدثون مئات اللغات المختلفة. وقد جُلبَ ذاك الخليط الكبير إلى أمريكا محجورًا في سفن العبيد. إلى الشمال، والجنوب. جمع أبناءهم وبناتهم التبغ، والقطن، وعملوا في أكبر المزارع وأصغرها. نحن الحرفيّون، والقبائل، والواعظون والباعة المتجولون. بنّت الأيدي السوداء البيت الأبيض، مقرّ حكومة أمتنا. الكلمة هي نحن. نحن لسنا شعبًا واحدًا لكننا شعوبٌ مُختلفة جُمعت هنا. كيف يمكن لشخص واحد أن يتكلم عن هذا العرق العظيم والجميل - الذي ليس عرقًا واحدًا بل أعراق كثيرة، مع ملايين الرغبات والآمال والأمانى لأنفسنا وأطفالنا؟"

"إننا أفارقة في أمريكا. شيء جديد في تاريخ العالم، دون نماذج لما سنصبح عليه."

"يجب أن يكون اللون كافيًا. لقد اجتمعنا هذه الليلة، وحُضنا هذه المناقشة، وستأخذنا إلى المستقبل. كل ما أعرفه حقًا هو أننا نرتفع ونسقط مثل شخص واحد، عائلة ملوّنة واحدة تعيش بجوار عائلة بيضاء واحدة. قد لا نعرف الطريق خلال الغابة، لكن يمكننا مساعدة بعضنا عندما نسقط، وسوف نصل معًا».

عندما يتذكر المقيمون السابقون في مزرعة فالنتين تلك اللحظة، عندما يخبرون الغرباء أو الأحفاد كيف كانوا يعيشون وكيف انتهى الأمر، فإن أصواتهم ظلّت ترتعش بعد كل تلك السنوات. في فيلادلفيا، في سان فرانسيسكو، في بلدات البقر والمزارع حيث صنعوا في نهاية المطاف منازلهم، حزنوا على أولئك الذين ماتوا في ذلك اليوم. روى لعائلاتهم أن الجو في الغرفة أصبح مضطربًا، ومدفوعًا بقوة غير مرئية. لقد عاشوا تلك اللحظة معًا سواء ولدوا أحرارًا أو عبيدًا: اللحظة التي توجّه نفسك فيها نحو النجم الشمالي وتقرر الهرب. لعلمهم كانوا على شفا نظام جديد، على وشك التشابك مع الفوضى، ووضع كل دروس تاريخهم لتطبيقها على المستقبل. أو ربما أعار الوقت - كما هو الحال - لهذه المناسبة جاذبية لم تكن تمتلكها، وأن كل شيء كان كما أصر لاندر: أنهم خُدعوا.

ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن حقيقيًا.

أصابت الطلقات النارية لاندر في صدره. سقط ساحبًا معه منضدة القراءة. كان رويال أول من هرعوا إليه. لكن بينما يركض نحو الرجل الساقط اخترقت ثلاث رصاصات ظهره. ارتعش كما لو كان مصابًا

برقاص القديس فيتوس⁽¹³⁾ وسقط. ثم بدأت جوقة من نيران البنادق، الصراخ، الزجاج المكسور، والتدافع الجنوني في قاعة الاجتماعات. هتف وعوى الرجال البيض في الخارج على المذبحة. وسرعان ما سارع السكان إلى المخارج، تدافعوا بين المقاعد، وتسلقوها، وتسلق بعضهم بعضًا. وعندما امتلأ المدخل الرئيسي، زحف الناس عبر النوافذ. تزايدت نيران البنادق. ساعد أبناء فالنتين أبيهم للخروج من الباب. انحنت غلوريا فوق لاندر إلى يسار المنصة. ورأت أنه لا يوجد شيء بإمكانها القيام به فتبعت عائلتها. احتضنت كورا رأس رويال، تمامًا كما حدث في تلك الزهرة. حركت أصابعها خلال شعره المجعد وهزته وبكت. ابتسم رويال خلال الدم الذي يتدفق من شفاهه. وأخبرها ألا تخاف، النفق سوف ينقذها مرة أخرى. «اذهبي إلى المنزل في الغابة. يمكنك حينها أن تخبريني أين يتجه ذلك النفق». ثم خمد جسده. أمسكها رجلان وأبعدها عن جسد رويال. أخبرها أن المكان هنا لم يعد آمنًا. أحدهما كان أوليفر فالنتين، والذي عاد لمساعدة الآخرين للهرب من منزل الاجتماعات. بكى وصاح. هربت كورا من منقذها حالما أخرجوها وركضت عبر الدرج. كانت المزرعة في حالة هياج. سحب رجال الدوريات البيض الرجال والنساء نحو الظلام بينما وجوههم البيضاء البشعة تُشرق بالفرحة. قام أحد الفرسان بقتل أحد نجّاري سيبيل - كان يحمل طفلًا في ذراعيه وسقط كلاهما أرضًا. لا يعرف أحد ما هو الاتجاه الأفضل للهرب، ولا يمكن سماع صوت منطقي فوق

(13) رقاد سيدنهام أو الرقاد الثاني (يشار إليه تاريخياً باسم رقاد القديس فيتوس) هو مرض يتميز بحركات سريعة غير متناسقة فجائية تؤثر على الوجه والقدمين واليدين بشكل أساسي. م.

الصخب. كل شخص مسؤول عن نفسه، كما كانوا دائماً. سقطت أماندا ابنة مينغو على ركبتيها، ولم تجد عائلتها. سقطت بأثسة على التراب. تساقطت بتلات باقتها. أمسكت الحواجز العارية، الأسلاك الحديدية التي وضعها الحداد الأسبوع الماضي، لأجلها فقط. جرحت الأسلاك كفيها لأنها أمسكتها بشدة. وتدفق مزيد من الدم في التراب. بعد سنوات، عندما ستصبح امرأة عجوزة سوف تقرأ عن الحرب العظمى في أوروبا وتتذكر هذه الليلة. بعد ذلك عاشت في لونغ آيلاند، بعد التجوال في جميع أنحاء البلاد، في منزل صغير مع بحار هندي فتن بها بشدة. قضت وقتاً في لويزيانا وفرجينيا وكاليفورنيا، حيث افتتح والدها مؤسسات تعليمية للملونين.

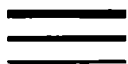
قضت قليلاً من الوقت في أوكلاهوما، حيث استقر آل فالنتين. أخبرت بحارها عن أن الصراع في أوروبا كان فظيماً وعنيفاً، لكنها اعترضت على الاسم. كانت الحرب العظمى دائماً بين البيض والسود. وستظل هكذا دائماً.

بحثت كورا عن مولي. لم تر أي شخص تعرفه؛ فقد تبدلت وجوههم بسبب الخوف. اجتاحتها حرارة النيران. كان منزل فالنتين مشتعلاً. انفجرت جرة من النفط في الطابق الثاني، فاشتعلت غرفة نوم جون وغلوريا. تحطمت نوافذ المكتبة ورأت كورا الكتب تحترق على الرفوف في الداخل. مشت خطوتين نحوها قبل أن يمسكها ريدجواي. تصارعاً لكن ذراعيه الكبيرتين طوقتاها، بينما أقدامها تركزل الهواء مثل أولئك الذين يُشلقون على شجرة.

كان هومر إلى جانبه - هو الصبي نفسه الذي رآته بين المقاعد في منزل الاجتماعات وغمز في وجهها. كان يرتدى حمالات وبلوزة بيضاء، وبدا

كالطفل البريء الذي كان سيكونه في عالم مختلف. أضافت كورا صوتها إلى جوقة الرثاء التي تردّدت عبر المزرعة عندما رآته. قال هومر، «هناك نفق يا سيدي. لقد سمعته يقول ذلك».

ما بِل



كان أوّل وآخر شيء قدّمته لابنتها هو الاعتذارات. كانت كورا تنام في حضنها، في حجم قبضة اليد، عندما اعتذرت مابل عمّا جرّتها إليه. وبعد عشر سنوات عندما كانت كورا تنام إلى جانبها في العليّة اعتذرت مابل عن جعلها ضالة، لم تسمع كورا هذا الاعتذار أيضًا. عند اكتمال القمر رأت مابل النجم الشمالي وأكملت طريقها. تماكنت نفسها وشقت طريقها عبر المياه السوداء. وأبقت عينها موجّهتين نحو الأمام لأنّه كلّما نظرت إلى الخلف رأت وجوه أولئك الذين تركتهم خلفها.

رأت وجه موسى. وتذكّرت عندما كان موسى صغيرًا. طفل رضيع ضعيف لم يتوقع أحد أن يعيش حتى بلغ العمر الذي يسمح له القيام بأعمال الأطفال: جمع القمامة، أو توزيع المياه على صفوف العمّال في حقل القطن. كان ذلك في الفترة التي اعتاد فيها أطفال مزرعة راندال على الموت قبل أن يقوموا بخطواتهم الأولى. استخدمت والدته علاجات السّاحرة: الأعشاب والعروق، وظلّت تغني له كل يوم في كوخهم. تغني التهويدات وأغاني العمل وأغنياتها الأموميّة الخاصّة بحنان. لقد عاش أكثر من أغلب الفتية الذين وُلدوا في المزرعة في تلك السنة. كان الجميع يعرفون أن كايت والدته هي من أنقذته من العدوى والموت المبكر الذي

عانى منه معظم الأطفال في المزارع.

تذكرت مابل عندما باع راندال العجوز كايث، كان ذلك عندما تعطلت ذراعها ولم تعد قادرة على العمل. جلد موسى أول مرة بسبب سرقة البطاطا. وثاني مرة بسبب الكسل، وقد أمر كونيلي بأن تغسل جراح الصبي بلماء والفلفل حتى يعوي. لم تجعل كل هذه الأشياء موسى لثيمًا، بل جعلته صَموتًا وقويًا وسريعًا، أسرع من كل الأفراد الآخرين في مجموعته. لم يكن لثيمًا حتى عيّنه كونيلي مديرًا، كان بمثابة عيون وأذان السيد على بني جلده. حينها أصبح موسى الوحش، موسى الذي جعل العبيد الآخرين يرتعشون، الرعب الأسود في صفوف العمّال السّود.

عندما طلب منها أن تأتي إلى مبنى المدرسة خدشته وبصقت في وجهه لكنه ابتسم وأخبرها أنها لو لم تكن تود ذلك فيسجد شخصًا آخر - كم عمر ابنتك كورا الآن؟ كانت كورا في الثامنة. لم تقاّله مابل بعد ذلك. كان سريعًا ولم يعد عنيفًا بعد تلك المرة. أخبرها أنه يجب كسر النساء والحيوانات مرّة واحدة فقط، وسيظلون منكسرين إلى الأبد.

رأت كل تلك الوجوه، الحية والميتة. أجماري وهي تسقط في صفوف القطن والزّبّد الدموي يخرج من بين شفّتها. بولي مشنوقة، بولي اللطيفة. كانتا قد وُلدتا في المزرعة نفسها وخلال الشّهر نفسه. ونقلهما كونيلي من الفناء إلى صفوف القطن في اليوم نفسه. كانتا تتناغمان في كل شيء حتى عاشت كورا وماتت ابنة بولي - انجبت الشابتان بفارق أسبوعين عن بعضهما، طفلة تبكي عندما جذبتها القابلة لإخراجها والأخرى لا تصدر أي صوت بتاتًا. مولودة تَوًّا ومتحجرة. عندما شنقت مولي نفسها في الحظيرة بحبل من القنب، قال جوكي العجوز،

كنتما تفعلان كل شيء مع بعضكما. كما لو كان على مايل أن تشنق نفسها الآن.

بدأت ترى وجه كورا وتنظر بعيدًا. هربت. ينشأ الرجال صالحين ثم يجعلهم العالم لؤماء. العالم لئيم منذ البداية ويزداد لؤمًا كل يوم. يظل يستهلكك حتى يصبح كل ما تحلم به هو الموت. لم تكن مايل ستموت في مزرعة راندال، حتى لو لم تكن قد ابتعدت ميلاً واحدًا عن هذه الأرض طوال حياتها. قررت ذات يوم وهي في الدور العلوي، سوف أنجو - وفي الليلة التالية كانت في المستنقع، تتبع القمر وهي ترتدي حذاءً مسروقًا. فكرت في هروبها طوال اليوم، ولم تدع فكرة أخرى تقاطعها أو تثنيها. كانت هناك جزرٌ في المستنقع - وتبعتها نحو قارة الحرية. أخذت الخضروات التي زرعتها، ومشعلًا، وأعواد ثقاب. تركت كل شيء آخر خلفها، حتى ابنتها.

عادت كورا للنوم في كوخها، التي وُلدت مايل فيه. كانت ما تزال صغيرة، لم تعرف بعد الأعباء التي يجب على المرأة تحمّلها. لو كان والد كورا حيًا، هل كانت مايل لتكون هنا الآن متنقلة بين الصفوف؟ كانت مايل في الرابعة عشر من عمرها عندما وصل غريسون إلى الجزء الجنوبي من المزرعة، تم بيعه في الجنوب بواسطة مُزارعٍ سَكّير يزرع نبات النيل. طويل وأسود، هادئٌ وذوي عيون ضاحكة.

اختارته منذ اليوم الأول وقررت: إنه هو. عندما ابتسم بدا وكأن القمر يضيء نحوها، هدية من السماء لإسعادها. كان يُميلها ويُديرها وهما يرقصان. أخبرها أنه سيشتري حريتهما.

لم يكن راندال العجوز ليوافق على ذلك لكنه سوف يقنعه. سيعمل بجد، وسيكون أحسن عامل في المزرعة - سوف يتحرّر من الأغلال

وسياًخذها معه. سألته، أتعديني بذلك؟ لم تكن تصدق تماماً أن بإمكانه فعل ذلك. مات غريسون اللطيف بسبب الحمى قبل أن تعرف عن أمر حملها جينياً منه. لم تنطق اسمه بعدها أبداً.

داست مايل على غصن سرو وشقت طريقها في المياه. ترنحت خلال نباتات الغاب (البوص) نحو الجزيرة التي أمامها وجلست على الأرض. لم تعلم كم من الوقت ركضت. كانت لاهثة ومرهقة.

أخرجت بعض اللفت من حقيبتها، كان ما يزال طازجاً وطرياً، وأخذت قضمة. أفضل لفت زرعته في أرض أجاري قط، رغم طعم ماء المستنقع الذي يغلفه. على الأقل تركت لها والدتها في ميراثها أرضاً ترعاها. من المفترض أن تمرر شيئاً مفيداً لأولادك. لكن الصفات الأفضل في أجاري لم تجد طريقها إلى مايل. قوتها، مثابرتها. لكن كانت هناك قطعة أرض بمساحة ثلاث ياردات والأشياء الجيدة التي تنبت منها. كانت والدتها تحمي تلك الأرض بكل قوتها. الأرض الأكثر قيمة في جورجيا كلها.

استلقت على ظهرها وتناولت بعض اللفت. عادت ضجة المستنقع مرة أخرى بعد خروجها من الماء وتوقف صوت لهاثها. الضفادع والسلاحف والمخلوقات الزلقة، هسيس الحشرات السوداء. وفوقها - من خلال أوراق وفروع أشجار المياه السوداء - مرّت السماء، ودارت كوكبة جديدة في الظلام بينما هي مستلقية. لا دوريات، لا رؤساء، لا صرخات يائسة تقودها نحو يأس آخر. لا جدران كوخ ينقلها خلال البحار الليلية وكأنها مقيدة إلى سفينة عبيد. حولها كانت طيور الكركية الكندية والطيور المغردة والمياه التي ترشها القنادس. تباطأ تنفسها على سرير الأرض الرطبة، ما جعل أنفاسها تنفصل عن اختفائها في المستنقع. كانت حرة في تلك اللحظة.

كان عليها أن تعود لابنتها، فالفتاة الصغيرة تنتظرها. سيكفيها هذا في الوقت الحالي. كان اليأس قد تمكّن منها، وصار يتحدث بين أفكارها مثل شيطان. سوف تُبقي هذه اللحظة قريباً، كثرها الخاص. وعندما ستجد الكلمات لتتشاركها مع كورا، ستفهم أن هناك ما هو أكبر من المزرعة، أكبر من كل ما عرفته. وإنما إذا أصبحت قوية يوماً ما فإمكانها أن تفعل نفس الشيء.

ربما يكون العالم لثيماً، لكن ليس على الناس أن يكونوا لؤماً أيضاً، يمكنهم رفض ذلك.

نهضت مايل وحملت أغراضها. إذا حافظت على وتيرة جيدة يمكنها العودة قبل شروق الشمس وقبل استيقاظ مَنْ في المزرعة. كان هروبها فكرة غير معقولة، لكنه كان أفضل مغامرة في حياتها.

سحبت مايل قطعة لفت أخرى وقضمتها. كانت حلوة حقاً.

وجدتها الأفعى بعد وقت قليل من عودتها إلى المستنقع. كانت تعبر خلال مجموعة من نباتات الغاب المتينة عندما أفلقت راحته. عضّتها الأفعى المائيّة مرتين، في ساقها وفي لحم فخذهما. دون صوت وبألم شديد. رفضت مايل تصديق الأمر. كان ثعبان ماء، لا بد أنه كذلك. مشاكس لكنه غير مؤذٍ. عرفت عندما جفّ فمها وارتعشت ساقها. أكملت طريقها ميلاً آخر. كانت قد أسقطت كيسها على الطريق، وفقدت مسارها في المياه السوداء. كان بإمكانها التقدم أكثر - العمل في مزرعة راندال جعلها قوية، قوية في جسدها إن لم يكن في أي شيء آخر - لكنها تعثرت على سريرٍ من الطحلب الناعم بدا مناسباً للراحة الأبدية. قالت: نعم، هنا. وابتلعها المستنقع.

الشّمال





هاربة

هربت من سيدها القانوني لكن غير الشرعي قبل خمسة عشر شهرًا، عبدة تدعى كورا؛ متوسطة الطول وبشرتها بنية داكنة. لديها علامة على شكل نجمة في صدغها جراء إصابة. تمتلك طبيعة حماسية وطُرقًا ملتوية. ربما تستخدم أيضًا اسم بيسي. ظهرت آخر مرة في إنديانا بين الخارجين على القانون في مزرعة جون فالنتين.

لقد كَفَّت عن الهرب.

لم يتم المطالبة بالمكافأة بعد.

لم تكن ملكية قط.

٢٣ ديسمبر



نقطة انطلاقها نحو الرحلة النهائية على السكك الحديدية السرية كانت محطة صغيرة تحت منزل مهجور. محطة الأشباح. قادتهم كورا إلى هناك بعد القبض عليها. تركوا البيض المتعطشين للدماء يخربون مزرعة فالنتين أثناء مغادرتهم. جاء صوت إطلاق النار والصراخ من مسافة أبعد وأعمق في الممتلكات. الأكواخ الأحدث، والمطحنة. ربما بقدر ما تمتد ليفينغستون، فقد شملت الفوضى المزارع المجاورة.

كان مقصد البيض هو هزيمة كل المستوطنين الملونين. قاتلت كورا بينما حملها ريدجواي إلى العربة. أضاءت المكتبة المحترقة والبيت الريفي الأرض. جمع هومر أخيراً قدمها معًا بعد أن ضربته في وجهه، وأدخلها العربة، وقيدًا معصمها بالأغلال القديمة في أرضية العربة. راقب شاب أبيض الخيول تهتف وطلب الحصول على فرصة مع الفتاة عندما ينتهون. ركله ريدجواي في وجهه.

أفصحت عن مكان المنزل في الغابة عندما وضع صائد العبيد مسدسه بين عينها. استلقت كورا على المقعد، بينما داهمها الصداع. كيف بإمكانها استنشاق أفكارها مثل شمعة؟ مات رويال ولاندر. والآخرين انتهوا.

قال ريدجواي «صرح أحد الرجال أنّ الأمر ذكّره بالأيام القديمة والغارات الدقيقة على الهنود، الجداول العنيفة والشلالات الزرقاء. أعتقد أنه كان أصغر من أن يتذكّر ذلك. ربما أخبره والده عن كلّ ذلك". جلس معها في الخلف على المقعد المقابل، صارت ملابسه أقلّ أناقة وتبدو مماثلة للعربة والخيول النحيفة التي تسحبها. رقصت النار في الخارج، فبانث الثقوب والشقوق الطويلة في ملابسه.

سعل ريدجواي. كان قد فقد وزنًا منذ لقاءهم الأخير في تينيسي. بدا صائد العبيد كثيبًا تمامًا، أشعثًا، وشاحب الجلد. كانت طريقة حديثه مختلفة، وأقلّ تسلّطًا. وقد استبدل طبيب الأسنان أسنانه التي دمّرتها كورا في آخر لقاء بينهما. «لقد دفن بوسمان في أحد مقابر الطاعون»، قال. وأضاف «كان سيفزع من الأمر، لكنه لم يملك القرار. ذلك الذي كان ينزف على الأرض، أليس هو النذل الذي نصب كمينًا لنا، نعم؟ عرفتُ نظّاراته».

لماذا صدّت رويال فترةً طويلة؟ كانت تعتقد أن لديهما الوقت الكافي. شيء آخر اجتثّ من الجذور، كما لو تم ذلك بواحدة من شفرات الدكتور ستيفنز الجراحية. لقد تركت المزرعة تقنعها أن العالم هو شيء مختلف عمّا سيكون عليه الأمر دائمًا. لكن لا بدّ من أنه عرف عن حبّها له حتى لو لم تخبره بذلك. كان عليه أن يعرف.

صاحت الطيور الليلية. أخبرها ريدجواي بعد فترة أن تُبقي عينها على الطريق. أبطأ هومر الخيول. فوّتت المكان مرتين، وبدأ أنهم ابتعدوا بعيدًا جدًا. صفعها ريدجواي على وجهها وأمرها أن تنتبه. وقال، «استغرقني الأمر وقتًا طويلًا لأقف على قدمي بعد ما حدث في تينيسي. أنت وأصدقاؤك جعلتموني أمرّ بوقت عصيب. لكن ذاك انتهى. أنت

ذاهبة إلى المنزل يا كورا. أخيرًا. بمجرد أن ألقى نظرة على السكك الحديدية السرية الشهيرة». صفعها مرة أخرى. وفي الانعطاف الأخيرة وجدت الحور القطني الذي تميز به طريقها.

أضواء هومر الفانوس ودخلوا المنزل القديم الحزين.

كان قد غيّر زيّه وعاد ليرتدي بذلته السوداء والقبعة. قالت كورا «تحت القبو». كان ريدجواي حذرًا. سحب الباب وقفز للخلف، وكأنّ مجموعة من السود الخارجين عن القانون ينصبون له فخًا. سلّمها صائد العبيد شمعة وأمرها أن تنزل أولاً. وقال، «معظم الناس ظنوا أن السكك الحديدية كانت مجازًا. لكنني كنت أعرف دائمًا أنها موجودة. كان السرّ تحتنا، طوال الوقت. سنكشفهم جميعًا بعد هذه الليلة. كل خطّ، جميعها».

أيّا كانت الحيوانات التي عاشت في القبو فقد كانت هادئة هذه الليلة. فحص هومر زوايا القبو. أحضر الصبي المجرفة وأعطائها لكورا.

رفعت أغلالها في وجههما. أوأ ريدجواي. «حلّها وإلا سنبقى هنا طوال الليل». فكّ هومر الأغلال. كان الرجل الأبيض مرتبًا، قلّ التسلّط في صوته. في كارولاينا الشمالية، كان مارتن يعتقد أنه سيجد كنز والده المدفون في المنجم واكتشف النفق بدلًا عن ذلك. بالنسبة لصائد العبيد كان النفق يمثل كلّ ذهب العالم.

قال ريدجواي بينما تحفر كورا. «لقد مات سيّدك، لم أكن متفاجئًا من سماع الأخبار – فقد كانت له طبيعة منحصّلة. لا أعرف إن كان السيد الجديد لمزارع راندال سيدفع مكافأة الإمساك بك. لكنني لا أهتم فعلاً». وقد كان متفاجئًا من كلامه وأكمل. «كان عليّ أن أعرف أن الأمر لن يكون سهلًا. فأنت ابنة أمك بكل معنى الكلمة».

ارتطمت المجرفة بالباب السري. توقفت كورا عن الاستماع إليه، ولضحكة هومر الكريهة. كان بإمكانها هي ورويال وريد تحطيمه في لقاءهم الأخير، لكن أمها مابل هي من حطّمته في البدء. جنونه حول أسرته يبدأ مع أمها. لم يكن صائد العبيد ليكون مهووسًا بالإمساك بكورا لولا أمها. الشخص الوحيد الذي تمكّن من الهرب. في النهاية كلفها الأمر، ولم تعرف ما إذا كان عليها أن تفخر بأمها أو تكرهها أكثر. هذه المرّة رفع هومر الباب السري وانتشرت الرائحة العطنة.

سأل ريدجواي، «هذا هو؟» رد هومر، «نعم يا سيدي». لوّح ريدجواي لكورا بمسدسه أن تنزل أولاً. لن يكون أوّل رجل أبيض يرى السكك الحديدية السرية، لكنه بالطبع أوّل الأعداء. بعد كل ما لحق بها، والعار الذي التصق بها الآن جزاء خيانتها أولئك الذين جعلوا هربها ممكناً. تردّدت في الخطوة الأولى. لم تنضم كورا قط إلى دوائر الرقص في مزرعة راندال وفي مزرعة فالنتين. كانت تنقبض من الراقصين، وتخاف من أن يقترب منها شخص آخر بشدة ودون انضباط. وضع الرّجال الخوف داخلها قبل سنوات. هذه الليلة، قالت لنفسها. سأحتضنه قريباً، كما لو كنت في رقصة بطيئة، كما لو كنتا بمفردنا في العالم الوحيد وملتصقين ببعضنا حتى نهاية الأغنية. انتظرت حتى أصبح صائد العبيد في الخطوة الثالثة. استدارت نحو ريدجواي وعقدت ذراعها حول رقبته مثل سلسلة من الحديد. انطفأت الشمعة التي كانت تحملها. حاول أن يحفظ توازنه مع وزنها عليه، كي يثبت نفسه قبالة الجدار، لكنها أمسكت به بشدة مثل عاشقة فسقطا عن الدرج الحجري نحو الظلام.

تقاتلا وتصارعا في عنف خلال سقوطهما. ارتطم رأس كورا بالدرج الحجري خلال الاصطدامات. وتمزقت ساقها، والتوت ذراعها تحتها

في الجزء السفلي من الدرج. أخذ ريدجواي العبء الأكبر. عوى هومر للصوت الذي أطلقه ربّ عمله بينما يسقط. نزل الصبي ببطء، وهزّ ضوء الفانوس الظلال في المحطة. أبعدت كورا نفسها عن ريدجواي وزحفت نحو العربة اليدوية وهي تحاول تحريك ساقها اليسرى بألم. لم يُصدر صائد العبيد صوتًا. بحثت عن سلاح لكنّها لم تجده.

جثم هومر بجانب رئيسه. يده مغطاة بالدماء المتدفقة من الجزء الخلفي من رأس ريدجواي. خرج عظم الفخذ الكبير خلال سروال الرجل والتوت ساقه الأخرى ببشاعة. أحنى هومر وجهه وتأوه ريدجواي. «هل أنت هنا يا صبي؟»

"نعم سيدي".

"هذا جيد". اعتدل ريدجواي وعوى بألم. نظر إلى كآبة المحطة، ولم يتعرف على شيء. مرّت نظرته على كورا دون اهتمام.

"أين نحن؟"

قال هومر، «نحن نصطاد».

"دائمًا هناك مزيد من الزوج لمطاردتهم. هل معك دفتر؟"

"نعم يا سيدي".

"لدي فكرة".

أخرج هومر دفتره من حقيبته وفتح صفحة جديدة.

"الاحتمية هي... لا، لا. هذه ليست هي. إن الاحتمية الأمريكية هي شيء باهر... منارة... منارة مشرقة».

سعل وتمكّن التشنج من جسده. «ولدت من الضرورة والفضيلة، بين

المطرقة... والسندان... هل أنت هنا يا هومر؟"

"نعم يا سيدي".

"دعني أبدأ مجددًا..."

انحنت كورا على مضخة العربة اليدوية. لم تتحرك المضخة رغم الجهد الذي بذلته. كان هناك مشبك معدني صغير عند قدمها على المنصة الخشبية. سحبته وطققت المضخة. شدت الرافعة مرة أخرى وزحفت العربة اليدوية إلى الأمام. نظرت كورا إلى الورا نحو ريدجواي وهو مر. همس صائد العبيد وسجل الصبي الأسود كلماته. ظلت تضخ وتضخ حتى ابتعدت عن الضوء. في النفق الذي لم يمر به أحد، والذي لا يؤدي إلى أي مكان.

اكتشفت إيقاعًا خلال الضخ بذراعها، ودمجت نفسها في الحركة. نحو الشمال. هل كانت تسافر عبر النفق أم تحفره؟ في كل مرة تُنزل ذراعها على الرافعة، تحسّ بأنها تضرب فأسًا في الصخر، تقود معولًا في الحجر، وتضرب بمطرقة في مسمار السكك الحديدية. لم تتمكن قط من جعل رويال يروي لها عن الرجال والنساء الذين بنوا السكك الحديدية السرية. الذين حفروا مليون طنّ من الصخور والتراب، وأخرجوا باطن الأرض ليخلصوا عبيدًا مثلها. الذين وقفوا مع كل تلك النفوس الأخرى، الذين أخذوا الهاربين إلى منازلهم، أطعموهم، حملوهم نحو الشمال على ظهورهم، وماتوا لأجلهم. مُدير المحطة والمرشدون والمتعاطفون. ما الذي تكونه بعد الانتهاء من شيء رائع لهذه الدرجة - تسافر عبره خلال بنائه أيضًا نحو الجهة الأخرى من العالم. ناحية من هذا الطريق كنتَ فيها قبل أن تنزل تحت الأرض، وفي الناحية الأخرى شخص جديد يخرج إلى النور. لا بدّ أن العالم الخارجي عاديّ جدًّا مقارنة بتلك المعجزة تحت أرضية، المعجزة التي صنعوها بعرقهم ودمائهم. الانتصار السري الذي أبقوه في قلوبهم.

وضعت الأميال وراءها، وضعت وراءها المقدسات المزينة والأغلال اللانهائية، مذبحه مزرعة فالنتين. لم يكن هناك سوى ظلام النفق، ومخرَج في مكان ما أمامها. أو طريق مسدود، إذا كان هذا ما رسمه لها القدر - لا شيء سوى جدارن فارغة. تقف كآخر نقطة مريرة. في النهاية شعرت بالإرهاك، وتكوّرت داخل العربة اليدوية وداخت، وارتفعت في الظلام كما لو كانت تختبئ في أعماق خفايا السماء الليلية.

عندما استيقظت، قرّرت أن تكمل بقية الطريق سيراً - ذراعاها تؤلمانها. تعرج وتتعثّر عبر الفواصل الخشبية. مرّرت كورا يدها على طول جدار النفق، على النتوءات والتجاويف. رقصت أصابعها على الوديان والأنهار وقمم الجبال، وملامح دولة جديدة مخبّأة تحت القديمة. انظري إلى الخارج بينما تمرّين، وسوف ترين الوجه الحقيقي لأمريكا. لم تتمكن من رؤيته لكنها شعرت به يتحرك خلال قلبها. كانت تخشى أن تنقلب إلى الاتجاه المعاكس في نومها. هل كانت تذهب أعمق أو تعود من حيث جاءت؟ وثقت في اختيار العبيد لتوجيهها - إلى أي مكان، أي مكان غير الذي هربت منه. لقد أوصلها ذلك الاختيار إلى هذا الحدّ. سوف تعثر على المحطة أو تموت على قضبانها.

نامت نومًا متقطّعًا، وحلمت بأنها ورويال في كوخهما. أخبرته عن حياتها السابقة واحتضنها، ثم أدارها نحوه فواجهها بعضهما. سحب ثوبها وخلع بنطاله وقميصه. قبّلت كورا ومررت يدها على جسده. عندما باعد ساقها كانت رطبة فانزلق داخلها، نطق باسمها كما لم يقله من قبل ولن يقوله شخص آخر أبدًا، بطلاوة وحنان. كانت تستيقظ في كل مرة على فراغ النفق، وبعدها أكملت البكاء على نفسها وقفت وسارت. بدت فوّهة النفق مثل ثقب صغير في الظلام. ومع تقدّم خطواتها غدت

الفوهة دائرية الشكل، ثم أصبحت مدخل كهف، مخبأة بين الحشائش والكروم. دفعت جانباً الأشواك وخرجت نحو الهواء. كان دافئاً. كان الضوء يماثل الضوء الشتويّ الشحيح في إنديانا لكنه أكثر دفئاً، وأوشكت الشمس أن تُشرق. انفتح الشقّ متفجراً على غابة صنوبر وتنوب. لم تكن تعرف كيف تبدو ميشيفان أو إلينوي أو كندا. ربما لم تكن في أمريكا الآن، ربما ابتعدت أكثر من ذلك. انحنت لتشرب من جدول الماء عندما تعثرت به. كانت المياه نظيفة وباردة. غسلت السخام والوسخ عن ذراعها ووجهها. وقالت، "من الجبال تذوب الثلوج"، كما قرأت في إحدى المقالات في الروزنامات القديمة. جعل الجوع رأسها خفيفاً. وأخبرتها الشمس في أي اتجاه كان الشمال.

كان الظلام قد حلّ عندما وصلت إلى الطريق الرئيسي، الذي كان وسخاً ومليئاً بالحفر. سمعت عربات تمر بعد أن جلست على صخرة بُرّهة. كانت هناك ثلاث عربات معبأة لرحلة طويلة، محملة بالعتاد والمخزونات الموضوععة على الجانبين. كانوا يتجهون غرباً.

السائق الأول رجل أبيض طويل القامة يرتدي قبعة من قش وبنطالاً رمادياً، ويبدو جامداً كجدار من الصخور. جلست زوجته إلى جانبه على صندوق السائق، بوجه ورديّ ورقبة تبرز قليلاً من الياقة المنقوشة. حيّوها بطريقة عادية وعبروا. لم تُبدِ كورا أي اهتمام بوجودهما. قاد شابّ العربة الثانية، كان شعره أحمر وملامحه إيرلندية. جذبتها عيناه الزرقاوتين. توقف.

"يا له من منظر"، قال. كان صوته عاليًا ويُشبه زقزقة العصفير.

"أحتاجين إلى شيء؟"

هزّت كورا رأسها.

"قلت، أحتاجين أي شيء؟"

هزّت كورا رأسها مرة أخرى وفركت ذراعها من البرد. العربة الثالثة يقودها رجل زنجي عجوز. كان غليظ البنية وأشباه، يرتدي معطفًا واسعًا متهالكًا يشبه ما يرتديه مربو الماشية. شعرت أن عينيه لطيفتان. بدا مألوفًا على الرغم من أنها لا تعرفه. رائحة دخان غليونه مثل رائحة البطاطس وأصدرت معدة كورا ضجيجًا.

"هل أنت جائعة؟" سألتها الرجل. ميّزت من خلال صوته أنه من الجنوب. قالت كورا، «جائعة بشدة». فقال، «اصعدي وخذي شيئًا لنفسك». تسلقت كورا إلى صندوق السائق. فتحت السلة. أخذت بعض الخبز ومضغته.

"هناك كثير"، قال. كان يحملُ وسمُ حدوة حصان على رقبته، وسحب ياقته لإخفائه عندما رأى عيني كورا. «يجبُ علينا اللحاق بالركب» قالت: «هذا جيد». نبّه الخيول وشرعوا في التقدم.

"إلى أين تتجه؟"

"إلى سانت لويس ومن هناك إلى الطريق نحو كاليفورنيا. نحن وبعض الأشخاص الآخرين سنلتقي في ميسوري». عندما لم ترد، قال، «هل أتيت من الجنوب؟»

"لقد كنتُ في جورجيا وهربت من هناك». قالت إن اسمها كورا. فتحت البطانية ولفّت نفسها بها.

"أدعى أولي"، قال. ومن ثم ظهرت العريتان التاليتان خلال المنعطف. كانت البطانية قاسية وخشنة تحت ذقنها لكنها لم تمنع. تساءلت من أين هرب السائق قبلها، وإلى أي درجة عانى، وكم هي المسافة التي قطعها كي يتمكن من قذف كل ما جرى وراءه.

شكر وتقدير

أشكر نيكول أراغي، وبيل توماس، وروز كورتيو، ومايكل غولدسميث، ودوفال أوستين، وأليسون ريتش لإيصالهم الكتاب إلى أيديكم. وفي هانزر على مرّ السنين: أنا ليوب، وكريستينا كنيشت، وبييرو سالاي. أيضًا فرانكلين روزفلت لتمويل مشروع الكتاب الاتحاديّين، والذي جمع قصص حياة العبيد السابقين عام 1930. وبالطبع فريدريك دوغلاس وهاربيت جاكوبس. كما أن أعمال ناثان هوغينز، وستيفن جاي غولد، وإدوارد إي. بابتيسست، وإريك فونز، وفيرغوس بوردويش، وجيمس إتش. جونز، كانت مفيدة جدًا. نظريات جوسيا نوت عن «الاندماج»، ويوميات القيامة، وإعلانات العبيد الهاربين التي وجدتها في المجموعات الرقمية لجامعة نورث كارولاينا في غرينزبورو.

في أول مئة صفحة كنت استمع للأعمال المبكرة لفرقة ميسفيتس «Where Eagles Dare [نسخة سريعة]»، و«Horror Business»، و«Hybrid Moments»، ومشروع بلانك ماس «Dead Format». لكن ديفيد بوي موجود في كل كتاب، لأنني دائمًا ما كنتُ استمع إلى «Purple Rain»، و«Daydream Nation» عندما أكتب الصفحات النهائية؛ لذلك فالشكر له ولبرينس وسونيك يوث. وأخيرًا، جولي، ومادي، وبيكيت على كل الحب والدعم.

دليل القارئ إلى تحليل الرواية

1. كيف تم تصوير الرّقّ في الرواية مقارنة بالصّور الأخرى للعبوديّة في الأدب والسينما؟
2. لقد تم تصوير مزرعة راندال بطريقة مُروّعة، كيف أثر أسلوب الكتابة عليك كقارئ؟
3. في ولاية كارولاينا الشمالية، كانت هناك مؤسسات، مثل عيادات الأطباء والمتاحف التي كان من المفترض أن تساعد في «القضاء على الطاعون الأسود»، لكنها كانت مؤسسات فاسدة وغير أخلاقية، كيف تعكس التحديات التي واجهتها كورا في ولاية كارولاينا الشمالية الأمور التي ما تزال البشريّة تكافحها اليوم؟
4. تعيش كورا أحلام يقظة بشأن حياتها كامرأة حُرّة، بينما تُكرّس تعليمها للقراءة وإثراء ثقافتها. في رأيك، ما الدور الذي تعتقد أن القصص المكتوبة والمسموعة تلعبه لصالح كورا وغيرها من المسافرين في السّكك الحديدية السريّة؟
5. «بالتأكيد كان الكنز هو السكك الحديدية السرية. فبالنسبة للبعض قد تكون الحرية هي أئمن عُملة»، كيف يُعبّر هذا الاقتباس عن قصة حياتك الشخصية؟
6. كيف أثرت عليك القصة الفرعية الخاصة بعلاقة إثيل بالرّقّ وطريقة استخدام كورا لمنزلها؟
7. ما انطباعاتك عن رؤية جون فالنتين للمزرعة؟

8 . شرحًا لمزرعة فالنتين، قالت كورا: «حتى لو تحرّر الكبار من الأغلال التي احتجزتهم بسرعة، فإن العبودية قد سرقت منهم كثيرًا من الوقت. الأطفال فقط هم من يمكنهم الاستفادة بالكامل من أحلامهم. إذا سمح لهم الرجال البيض بذلك.» هل التأثير الذي قالت عنه كورا تأثير كبير على مجريات الرواية؟ وهل له تأثير على حياتنا اليوم؟

9 . ما رأيك بمصير تيرانسي راندال؟

10 . ما شعورك حيال قرار والدة كورا بالهرب؟ كيف تغيّر رأيك في والدة كورا بعدما عرفت مصيرها؟

11 . يخلق المؤلف حالة من عدم الاستقرار العاطفي لدى القارئ، كيف في رأيك حدث ذلك؟

12 . ما أكثر شيء ارتبطت به في الرواية؟ اذكر السبب.

13 . كيف كان لتقسيم الكتاب إلى فصول حسب مناطق الأحاديث تأثير على بنية الرواية؟

14 . إن الكتاب يشدد على أن العبيد كانوا يُعاملون معاملة تشبه العقارات، ثم تدنّى بهم الأمر، وأصبحوا يُعاملون كالأشياء، هل تكوّن لديك فهم جيد بالشكل الذي كانت عليه العبودية حينئذٍ؟

15 . لماذا تعتقد أن الكاتب اختار أن يصوّر السكك الحديدية بطريقة أدبية بحتة؟ كيف أثر هذا الجانب من الواقعية السحرية على تصوّرك للسكك الحديدية السرية الحقيقية؟

16 . هل ساعدت الرواية في تغيير الطريقة التي تنظر بها إلى التاريخ الأمريكي، وخاصة في زمن الرقّ وبعد إلغائه؟

عن الكاتب

كولسون وايتهيد هو المؤلف الأكثر مبيعًا بحسب صحيفة نيويورك تايمز. له أكثر من خمس روايات وكتاب مقالات. وهو حائز على جائزة البوليتزر، وحاصل على منحة ماك آرثر وغوغنهايم الإبداعية. يعيش في مدينة نيويورك.

عن المترجم

سماح جعفر مترجمة سودانية. ترجمت إلى العربية رواية «الناقوس الزجاجي» لسيلفيا بلاث، ورواية «رحلة من الاتحاد السوفيتي» لديفيد توراشفيلي، وكتاب «عن الحشيش» للفيلسوف فالتر بنيامين، وغيرها من الأعمال. تُقيم في مصر.

ينضمّ إلى المزرعة سيزر، العبد الذي اصطادوه في فرجينيا، فيُعجب بكورا ويُخبرها عن أمر السكك الحديدية السرية: مهارب تحت الأرض لا يُعرف من حفرها ومن سعى إلى جلب القاطرات البدائية إليها، ولا يعرف البيض الأعداء طريقًا إليها وأين تقع، فالمداخل إليها مخبأة ومموّهة. غير أن سيزر، الذي يعرض على كورا الهرب نحو الشمال، حيث يعيش السود أحرارًا، يعرف شخصًا يدلّه على أحد المداخل، فتأخذ حياة كورا دربًا لم تتخيّلها.

يُعالج وابتهد في الرواية مسألة العبودية والظلم الأسود-الأبيض، والخدعة الأمريكية بشأن المساواة بين المواطنين منذ إعلان الاستقلال الأمريكي. ورغم كتابته السردية المتشظية التي تشبه اللقطات المتتابعة والتي يضطرّ معها القارئ إلى إعادة القراءة دومًا، لا الرّكض مع السرد حتى النهاية، فإن أسلوبه هذا يترك التأثير المرجوّ منه في نفس القارئ وخياله: الحياة ليست نهريًا جاريًا سلسًا، بل هي مليئة بالسّخام والتراب والمستنقعات، وخطوات الهرب إمّا إلى المشنقة، أو الشّمس.



كولسون وايتهيد هو المؤلف الأكثر مبيعًا بحسب صحيفة نيويورك تايمز. له أكثر من خمس روايات وكتاب مقالات. وهو حائز على جائزة البوليتزر، وحاصل على منحة ماك آرثر وغوغنهايم الإبداعية. يعيش في مدينة نيويورك.



كورا، عبدة تعمل في مزرعة قُطن خلال الفترة التي سبقت نشوب الحرب الأهلية الأمريكية في القرن الثامن عشر. يعيش العبيد وقاتمها حياةً جحيميةً، غير أن كورا وجدت في حياتها ما هو أشدَّ صعوبةً؛ فهي لم تكن منبوذة وحسب من قبل البيض، بل وأيضًا من قِبَل إخوانها الأفريقيين، لأن والدتها هربت من المزرعة دون أن يتمكن صيادو العبيد من إعادتها، وهذا حُلم كلِّ عبدٍ دون استثناء؛ ولأسبقية جدتها في الوصول إلى المزرعة قادمةً في بطن سفينة عبيد أبحرت من القارة السوداء.

القائمة الطويلة لجائزة المان بوكز 2017

الفائز بجائزة بوليتزر 2016

الفائزة بجائزة National Book Award 2016

Oprah's Book Club pick

ISBN 9789948101468



9 789948 101468

روايات
REWAYAT

